اعداد
بازيل ديفيد سون
ليونيل كليف
بيركيت هابتي سيلاسي

مؤسسة الأبحاث العربية

ترجمة
محمّد مشموشي

وراء الحرب في اريتريا

وراء الحرب
في
إريتريا

اعداد
بازيل ديفيدسون
ليونيل كليف
بيركيت هابتي سيلاسي

وراء الحرب في اريتريا

ترجمة
محمّد مشموشي

مؤسّسة الأبحاث العربيّة

* وراء الحرب في اريتريا .
* الطبعة العربية الأولى .
* جميع الحقوق محفوظة .
* الناشر : مؤسسة الأبحاث العربية ، ش . م . م .
ص . ب ٥٠٥٧ - ١٣ (شوران) ، بيروت - لبنان .
هاتف ٨٠٤٢٥٧ - تلكس ٢٠٦٣٩ دِلتا . لبنان

* صدر هذا الكتاب باللغة الانكليزية تحت عنوان :

Behind The war in Eritrea

Edited by:

Basil Davidson, Lionel Cliffe and Bereket Habte Se Lassie, Spokesman, Nottingham.

المحتويـات

تقديم ٧

القسم الأول

دعاوى اريتريا التاريخية في وجود الأمة

١ ـ نظرة تاريخية ١١
بقلم : بازيل ديفيدسون
٢ ـ التاريخ الاستعماري وما قبل الاستعماري ١٨
بقلم : ريتشارد غرينفيلد
٣ ـ من الحكم البريطاني إلى الاتحاد والضم ٣٧
بقلم : بيركيت هابتي سيلاسي

القسم الثاني

طبيعة النضال التحرري

٤ ـ نضال العصابات ٥٩
بقلم : جيرارد شاليان
٥ ـ الموقف المتغير في اريتريا ٦٤
بقلم : دان كونيل
٦ ـ « الارهاب الأحمر » الأثيوبي ٧٢
بقلم : ماري داينز

٧ ـ التورط الخارجي في اثيوبيا واريتريا ٧٦
بقلم : لارس بوندستام

القسم الثالث

الثورة الاجتماعية

٨ ـ الثورة الاجتماعية في اريتريا ١٠١
بقلم : فرنسوا هوتار
٩ ـ الزراعة في الثورة الاريترية ١٣٦
بقلم : توني بارنيت
١٠ ـ الأرض والشعب والثورة ١٥٥
بقلم : ماري داينز

تقديم

لا يشكل نقص الاهتمام العام بالقضية الاريترية مقياساً لأهميتها . فحرب التحرير من الحكم الاستبدادي الأثيوبي ، والتي ما زالت مستمرة هناك منذ العام ١٩٦١ ، هي أطول حرب في تاريخ افريقيا . وقد تسببت ، ربما ، في ٥٠ ألف ضحية وأكثر من مليون مشرّد يقيم معظمهم لاجئين في السودان . ويتوقف المصير البعيد لثلاثة ملايين ونصف المليون اريتري على نتيجة هذه الحرب التي زاد أهميتها دائماً بالنسبة للمنطقة المحيطة وبالنسبة للقضايا الاستراتيجية الأوسع تورط القوى الخارجية فيها . ولكن وكما أن الامبراطورية « الاقطاعية » الأثيوبية تلقت دعماً عسكرياً من الولايات المتحدة ، فان التورط السوفياتي والكوبي الى جانب النظام العسكري « الثوري » في اثيوبيا منذ العام ١٩٧٧ يشير الى الحاجة لإعادة تقييم جديدة للمسألة الأريترية ، بل وللدور السوفياتي في افريقيا ايضاً .

وإلى جانب حجم القتال والتعقيدات الدولية ، ينبغي في كل حال اضافة سبب جديد يستدعي ان يستحوذ النضال التحرري الاريتري على الاهتمام : وهو أن هذا النضال يكشف لنا « سياسات التحرر » في افريقيا اليوم . وكما يقرّ العديد من مقالات هذا الكتاب ، فان النضال الاريتري يظهر بأفضل ما يستطيع بعض الخصائص ذاتها التي تظهرها حروب العصابات الأخرى للتحرر الوطني : تعبئة الدعم الشعبي ، الالتزام بالاعتماد على النفس ، ومزاوجة عناصر الثورة الاجتماعية بالنضال الوطني . ولكن هناك اختلافات أيضاً . فمحتوى النضال ـ ضد دولة افريقية زميلة باعتبارها الدولة « الاستعمارية » ، وليس ضد بلد غربي أو نظام أقلية بيضاء ـ يضطرنا لاعادة التفكير بطبيعة « الامبريالية » وأيضاً بما تعنيه « المسألة الوطنية » في افريقيا .

ومع ذلك فان اية اعادة تقييم للنضال التحرري الاريتري والقضايا العميقة التي

يثيرها تبدو الأمر الأصعب بسبب ندرة المعلومات الموثوقة ، ليس فقط من سياقها المتموّج في أية لحظة بل وأيضاً في أصولها وشخصيتها . وقد كانت هذه الاحتياجات في الذهن عندما عقدت في لندن في كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩ ندوة دولية حول اريتريا . وقد نظمت كل جلسة من الجلسات التي ترأسها بازيل ديفيدسون بحيث تدور حول عرض يقدمه عضو من جماعة من الخبراء درسوا بعض أوجه التاريخ الأريتري . كانت الندوة الأولى من نوعها في بريطانيا ، وربما في أي مكان آخر ، التي تجمع معاً مؤرخين ، ومحللين ، وعاملين سياسيين ، والعديد من المراقبين الخارجيين الذين شهدوا الأحداث مباشرة . وقد أدت تقاريرهم الى/وتعمقت بدورها من/نقاش حي بين حضور من مائتي شخص بينهم اريتريون ، أثيوبيون ، وافريقيون آخرون وكذلك عدد من المشتركين المهتمين من اوروبا ، أميركا الشمالية ، ومن بريطانيا .

هذه العروض ، كما نقحت في ضوء تلك المناقشات ، تشكل صلب هذا الكتاب . ولا يدعي أحدها أنه يقدم تقييماً نهائياً للنضال التحرري الاريتري ، كما أنها لا تشكل معاً مسحاً شاملاً لأبعاده كلها . إلا أنها ، في كل حال ، تمثل تجميعاً للمعلومات المتوفرة ، وان لم تكن واسعة ، في نقطة زمنية محددة . وهي تغطي أيضاً سلسلة من المسائل الأكثر حسماً ، وتلمس جميع المراحل التاريخية الأساسية ؛ تناقش المحتوى الاجتماعي والاقتصادي وكذلك الخبرات السياسية والعسكرية لهذا النضال . ولذلك فان نشرها يجد مبرّراً له ، ولو أنه ليس الكلمة الأخيرة أو لو أن أحداثاً أخيرة ألغت فعلاً بعض المادة التي مرّ عليها الزمن .

ويجب التأكيد ايضاً بأن كل واحد من المساهمين كان حراً في تقديم تقديراته الخاصة واستنتاجاته ، ولم تجر أية محاولة في الكتابة للمواءمة بين النقاط التفصيلية لعدم الاتفاق أو الاختلاف في التفسير . ومع ذلك فان المواد المتباينة ما تزال ترسم درجة مؤثرة من الاتفاق على القضايا العريضة : حق الشعب الاريتري في الهوية وتقرير المصير ، الثورة الاجتماعية التي بدأتها الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا ، وادانة الدعم السوفياتي للهجمات الأثيوبية .

ولم يكن نشر هذا الكتاب ممكناً لولا جهود بيركيت هابتي سيلاسي الذي بادر الى عقد الندوة ، و « الحرب على الحاجة » التي أعطت الندوة دعمها ، وماري داينز التي نظمتها والتي كانت مساعدتها في تحضيرها للنشر قيمة جداً .

بازيل ديفيدسون ـ ليونيل كليف ـ وبيركيت هابتي سيلاسي

تشرين الأول، (اكتوبر) ـ ١٩٧٩

القسم الأول

دعاوى اريتريا التاريخية في وجود الأمة

بازيل ديفيدسون

نظرة تاريخية

تريد الملاحظات الموجزة التالية حول التاريخ الاريتري ان تكوّن ، في اطار منظور افريقي ثوري ، خلفية لدرس النضال التحرري في اريتريا اليوم . وكما في مثل هذه العمليات كلها ، لا يمكن فهم هذا النضال من دون اطاره التاريخي .

تعود أصول شعب هذا البلد وهويته الشخصية الى فترة زمنية بعيدة . فهذا الشعب يبرز في التاريخ الحديث ، خلال القرن التاسع عشر ، كمجموعة من القبائل والعشائر المستقلة كانت لها علاقات تجارية مع شعوب البحر الأحمر الأخرى على امتداد الساحل ، ومع جيرانها التيغريين والأمهريين الى الغرب في الهضاب خلف وادي مأرب . ولكنها لم تتبع الى أي من هؤلاء الجيران .

وتعريف بلد هذا الشعب ، اريتريا ، بحدوده ، يعود الى الشراكة الامبراطورية وتنافس قوتين توسعيتين في وقت متأخر من القرن التاسع عشر هما اثيوبيا وايطاليا .

وقد بدأت المؤسسات الاستعمارية الايطالية عملها ببطء ، جزئياً بسبب تخلف ايطاليا الاقتصادي وحداثتها السياسية كبلد موحَّد ، وأيضاً بسبب الهيمنة على الساحة من قبل بريطانيا وفرنسا . وكانت هناك معارضة كبيرة للمغامرات الاستعمارية ، والدعم المتردد الوحيد لها كان يأتي من قبل البورجوازية المصرفية والصناعية في المدن [الايطالية] الشمالية .

وبالقدر الذي كان يعني القرن الافريقي (وأزيح جانباً هناالصومال) فان « وجود » ايطاليا يعود الى قيام صاحب سفن من جَنَوَى بشراء شريط ساحلي في خليج عصب الى الجنوب من الشاطىء الغربي للبحر الأحمر في العام ١٨٦٩ . ولم تؤد عملية الشراء هذه الى الكثير ، إذ أن قصة الاستعمار الايطالي للمنطقة تبدأ في الواقع في العام ١٨٨٥ عندما

احتلت قوة ايطالية ميناء مَصوَّعْ الصغير . لقد تمكنوا من ذلك بفضل دعم دبلوماسي بريطاني بعد أن وجدت الحكومة البريطانية ، يومها ، ان من الملائم لها الحصول على شريك يافع في « القسمة الاستعمارية » هنا في الشمال الشرقي ، تماماً كما وجد البريطانيون ايضاً أن من الملائم لهم الحصول على شريك يافع آخر هو البرتغال ، في المناطق الغربية من افريقيا .

ومن مَصوَّع اندفع الايطاليون الى الداخل في غزوة عسكرية . ولم يجدوا ذلك سهلاً إذ أنهم تعرضوا لهزيمة قاسية في دوكالي العام ١٨٨٧ على يد المقاتلين الاريتريين واستمروا ايضاً في مواجهة مقاومة اريترية مسلحة . إلا أنهم واصلوا ، في كل حال وتدريجياً ، التقدم الى الداخل ؛ وهنا بالذات دخل العنصر الامبريالي الآخر الى الساحة ، اثيوبيا الأمهرية . وقد تصادف الضغط الايطالي مع صعود باني الامبراطورية الأثيوبية الحديثة مينيليك ، وكان يومها « نيغوس » أو ملك مقاطعة شوا الأمهرية المنافس على العرش الامبراطوري للامبراطور جون .

وقد أرادت الحكومة الايطالية (حكومة غريسبي) اقامة مستعمرة ساحلية أولاً ، ثم توسيع « الوصاية » الايطالية ثانياً على كل ما كان يعرف يومها باسم ابيسّينيا (الحبشة) . وفي سعيه وراء هذه الأهداف، اعتقد غريسبي أن مساعدة مينيليك على أن يصبح امبراطوراً ستفتح الباب أمام تغلغل ايطاليا الامبريالي . ويبدو أن مينيليك ، بدوره ، قد فهم لعبة غريسبي بشكل كامل ، فكان يتلقى المساعدة الايطالية (والأسلحة بالذات) بعيون مفتوحة . وفي آذار (مارس) ١٨٨٩ سقط الامبراطور جون في المعركة بينما كان يحاول أن يدفع النفوذ الامبريالي الاثيوبي (أي الأمهري) خلف تيغراي . وفوراً أعلن مينيليك نفسه امبراطوراً (برغم عدم موافقة عدد من الشخصيات الأثيوبية بمن فيهم ابن جون ، راس مانغسيا ، في تيغراي) ، واستطاع الايطاليون أن يضمنوا منه معاهدة صداقة وتحالف (أوتشيالي ، أيار (مايو) ١٨٨٩) . وبعد ذلك أخذ الغزاة الايطاليون بسرعة كيرين (حزيران/يونيو) واسمره (آب / أغسطس) برغم المقاومة الاريترية المستمرة . وفي أول كانون الثاني (يناير) ١٨٩٠ اعلن الايطاليون الأراضي التي كانوا ، بشكل أو بآخر ، قد احتلوها مستعمرتهم الاريترية .

أخاف ذلك مينيليك الذي رأى عندها أن فخ « الشراكة » الايطالية سيطبق عليه ما لم يردّ عليه بقوة . ولذلك ففي العام ١٨٩٣ ألغى معاهدة أوتشيالي انطلاقاً من أن النص الايطالي الذي أعطى ايطاليا « وصاية » على اثيوبيا باطل ومن دون مفعول لأنه لم يظهر في

النص الأمهري ، وانه ـ أي مينيليك ـ لم يوافق عليه . وقد اندفع الايطاليون الذين أساؤ وا كثيراً تقدير قوة مينيليك العسكرية والسياسية الى تحديه على أرضه . وأدى ذلك الى كارثة عسكرية كبيرة لهم في أدوا عام ١٨٩٦ عندما قتل من الايطاليين في يوم واحد أكثر مما قتل منهم في معاركهم كلها لتوحيد ايطاليا نفسها .

وضعت الهزيمة في أدوا حداً لآمال الايطاليين في فرض وصاية على اثيوبيا ، ولكنها أدت أيضاً الى تعزيز مستعمرتهم في اريتريا . أما مينيليك فقد تخلى عن مطامحه الخاصة في ذلك البلد ووقّع سلاماً مع ايطاليا بعد أشهر قليلة من معركة أدوا، أي في تشرين الأول (اوكتوبر) ١٨٩٦ .

دامت مستعمرة اريتريا الايطالية من العام ١٨٩٠ الى العام ١٩٤١ . وتدريجياً ، وصلت المقاومة الارتيرية للحكم الايطالي الى نهايتها . وكما حدث مع المستعمرات الأخري التي شُكلت في الفترة نفسها ، كانت الشعوب التي تعيش فيها عرضة لخبرات متناقضة . فمن ناحية سلبت هذه الشعوب استقلالها وفرض عليها حكم وثقافة استعماريان انكرا عليها ثقافتها وهويتها . ومن ناحية أخرى ، فان عيشها معاً وداخل حدود عُرِّفت يومها بأنها حدود كيان مستقل ، اريتريا ، أعطاها حساً جديداً بالمصير المشترك وبالقومية الأولية .

ولعل من المفيد ايراد تواريخ اخرى قليلة هنا . فقد استخدمت جيوش ايطاليا الفاشية اريتريا كقاعدة لها في غزوها اثيوبيا العام ١٩٣٥ وفي عبور مأرب في ٣ تشرين الأول (اوكتوبر) . وقد طالت المقاومة الاثيوبية إلا أنها فشلت في النهاية بسبب غياب أي عون أجنبي . إيطاليا الفاشية أعلنت تملكها الامبراطورية الاثيوبية في ٥ أيار (مايو) ١٩٣٦ . وجاءت بعدها الحرب العالمية الثانية ، وقد أرجأ موسوليني دخولها الى أن شعر أنه بات يعرف من سيكون الرابح فيها . وبسقوط فرنسا في حزيران (يونيو) ١٩٤٠ ، بدا أن الرابح سيكون ألمانيا النازية ، ولذلك بادرت ايطاليا في ١٠ حزيران (يونيو) ١٩٤٠ الى اعلان الحرب على بريطانيا وفرنسا . ولأنها تملك قوات قوية جداً في شرق افريقيا ، كان تعدادها في البداية حوالي ٣٠٠ ألف تحت السلاح ، فقد وضعت ايطاليا الفاشية بريطانيا أولاً في موقع الدفاع في القرن الافريقي . ولكن المدّ انقلب بسرعة ، وأزاحت الجيوش البريطانية في العام ١٩٤١ الحكم الايطالي من الساحة . وقد أعيدت أثيوبيا الى الامبراطور (هيلاسيلاسي) ، ووضعت اريتريا تحت ادراة بريطانية مؤقتة .
أما المسؤ ولية النهائية عما كان ينبغي حدوثه هناك فتقوم مع منظمة الأمم المتحدة التي كانت حديثة الانشاء يومها .

ماذا كان [حجم] شعب اريتريا يومها ؟ ان الأرقام التقريبية التالية تعود الى الفترة ما قبل العام ١٩٤٥ ، ويمكن أخذها ، كدليل على الأقل ، باعتبارها دقيقة بعض الشيء . لقد أعطي اجمالي السكان على انه ٧٥٨ ألف نسمة ، برغم ان ذلك ، كما هو الحال في معظم تقديرات السكان الاستعمارية ربما أقل من الرقم الحقيقي . ومن هذا الاجمالي كان ٥٦٥ ألفاً يحسبون مقيمين و١٩٣ ألفاً من الرحل . انتموا الى عدد من الأديان وأهمها [حسب هذا التقدير] القبطية (٣٧١ ألفاً) والاسلام (٣٤١ ألفاً) . يتحدثون عدداً من اللغات أهمها اللغة التيغرينية (٣٧١ ألفاً) والتيغراي (القريبة كثيراً من التيغرينية ، ١٧٥ ألفاً) . أما اللغات الأخرى التي تنطق بها مجموعات أصغر وفي بعض الحالات مجموعات صغيرة جداً فتضم البيجا ، البيلاين ، الساهو ، العفار ، العربية (٣٧ ألفاً) والنيلوتيك .

وفي تلك الفترة بالذات ، حوالى نهاية الحكم الاستعماري الكامل ، وفي فترة الحكومة البريطانية المؤقتة بدأت مجموعة القوميات التي تَشَكَّل منها لفترة طويلة سكان أريتريا ـ كما كان في غيرها من مناطق افريقيا ـ تصل الى مفهوم وجود أمة مشتركة وبالتالي الى مفهوم القومية المشتركة .

وفي احتلالها لاريتريا ، أوضحت بريطانيا أنها لن تبقى ، كما وعدت الاريتريين بأنهم لن يعودوا أبداً الى الحكم الايطالي . ماذا سيحدث إذن لاريتريا ؟ لقد وجد وزراء خارجية الدول العظمى الأربع صعوبة في الاتفاق على جواب على السؤال ، كما ان لجنة تحقيق مشتركة أرسلت للبحث عنه على الطبيعة فشلت أيضاً في الوصول الى اتفاق . كانت تلك هي الأيام الأولى لنهوض القومية الافريقية الحديثة ، ولم تكن ازالة الاستعمار الامبريالي قد وضعت على جدول الأعمال بعد . وكانت أوروبا يومها هي التي تقرر لأفريقيا . فما الذي كان يجب تقريره وكان « خيراً لمصلحة الاريتريين » ؟

ان نظرة على التفكير الامبريالي حول الموضوع قد تأتي من المسؤول الاداري البريطاني الرئيسي عن اريتريا في الفترة بين ١٩٤٢ و١٩٤٤ . فقد أعرب في العام ١٩٤٥ ، س . هـ . لونغريغ (تاريخ اريتريا الموجز ـ اوكسفورد ـ ١٩٤٥ ـ صفحة ١٧١) عن اعتقاده بأن دولة اريتريا المستقلة « لن تكون نهايتها سوى فوضى سياسية أو تجدّد السيطرة الأوروبية » . لأنه « لا توجد هناك طبقة حاكمة أو ادارية يمكن تصورها » . لقد كان ذلك نوعاً مألوفاً في الحكم على الأشياء في تلك الأيام ، إلا أنه حتى بصرف النظر عن ذلك فان هناك دلائل على أن فكرة القومية الاريترية كانت ما تزال

ضعيفة نسبياً حتى بين الشخصيات الاريترية التي تجدر استشارتها حول الموضوع .

في هذا الوضع ، قررت الأمم المتحدة في العام ١٩٥٠ ان اريتريا يجب أن تصبح دولة متحدة فدرالياً ضمن الامبراطورية الأثيوبية . وقد برز هذا الاتحاد ، نتيجة لذلك ، إلى حيز الوجود في ١١ أيلول (سبتمبر) ١٩٥٢ عندما اختارت جمعية اريترية رئيساً تنفيذياً لها رجلاً يدعى تيدلا بايرو وكان في ذلك الوقت رئيساً للحزب الذي يؤيد الاتحاد مع اثيوبيا . والملاحظ ، في كل حال ، ان ما حدث كان اتحاداً فدرالياً وليس امتصاصاً كاملاً . كان الامبراطور الأثيوبي وحكومته يريدان امتصاصاً كاملاً ولكنهما لم يحصلا عليه . وربما يستعيد المرء بالذاكرة هنا حكماً آخر من الاداري البريطاني نفسه في كتابه للعام ١٩٤٥ . فقد كتب يقول : « انه في مواجهة التعيين الذي ينادي به البعض لكامل (اريتريا) الى اثيوبيا (التي كانت ستقبل وفي الواقع كانت تدعيه بقوة) . . . يوجد التأكيد بأن معظم اريتريا لم يكن يوماً أثيوبياً ، وبأن مثل هذه الأجزاء لم يكن مناسباً ولا مقبولاً حكمها من قبل تلك الحكومة ، **وبأن أي جزء لم يكن أثيوبياً بالمعنى السياسي منذ أن تخلى مينيليك بشكل قاطع عن مناطق ما وراء مأرب في العام ١٨٨٩** (المصدر السابق ، التشديد مني) .

ولأن الامبرياليين الاثيوبيين عجزوا عن غايتهم في العام ١٩٥٢ فانهم انتظروا فرصة أخرى تسنح لهم . وفي الوقت نفسه فانهم أمَّنوا أن تنعكس في الجمعية الاريترية وجهات النظر التي أرادوا لها أن تسود . وفي ١٤ تشرين الثاني (نوفمبر) العام ١٩٦٢ ، أي بعد عشرة أعوام ، استطاعوا حث الجمعية تلك على التصويت لأنهاء الاتحاد الفدرالي ودمج اريتريا في الامبراطورية الأثيوبية كجزء لا يتجزأ منها . وقد عارض هذا القرار ، على الفور ، أريتريون آخرون مما أدى الى نشوب حرب استقلال بعد القرار مباشرة .

ومنذ العام ١٩٦٢ حكم النظام الأثيوبي ، أو حاول أن يحكم ، أريتريا بالأساليب الاستعمارية المباشرة ؛ أي بتقديم السلطة الأمهرية في كل النقاط الحاسمة ، بقمع الثقافة والحياة العامة للغة التغرينية واللغات المحلية الأخرى لمصلحة اللغة الأمهرية ، باستبعاد أية هوية اريترية محدّدة وصولاً الى اتخاذ القرار أو السيطرة على التنمية المحلية ، وباستخدام القوة المسلحة بصورة متزايدة لقمع كل مؤشرات أو دعاوى الاستقلال الاريتري : وبكلمات أخرى فقد نفذ الأثيوبيون في اريتريا السياسات والممارسات الاستعمارية نفسها التي نفذوها لفترة طويلة قبل ذلك ضد الصوماليين في أوغادين .

ولم تكن الحالة ضد الاستيلاء الأثيوبي على اريتريا ، في الماضي أو حالياً ، لتختلف نوعياً عن الحالة ضد أي تطويق استعماري آخر . وكما كان حقاً تجريد القوى الاستعمارية الأوروبية من ممتلكاتها في ما وراء البحار ، فان من الحق على وجه مشابه انكار تملك الاثيوبيين لاريتريا (تماماً كما هو الحال بالنسبة لأوغادين التي ضمت الى الإمبراطورية الأثيوبية في الوقت نفسه تقريباً الذي أصبحت فيه اريتريا مستعمرة ايطالية) .

وما سيصبح عليه الآن مصير أريتريا هو موضوع هذه الندوة ، وعلى الأريتريين أنفسهم أن يعطوا الجواب . وبالنسبة لمراقب فانه يستطيع أن يلاحظ ثلاث نقاط مركزية :

أ ـ إذا كان الشعور بالوطنية الأريترية ، والقومية الاريترية ، ضعيفاً كما يبدو في فترة الاستعمار الأوروبي (وكما كان ضعيفاً أيضاً في العديد من أجزاء افريقيا) فان من الواضح أنه لم يعد كذلك اليوم . وبنمو حركة ونضال التحرر الوطني ، وفوق ذلك كله بعد تبلور الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا ضمن ذلك النضال ، فان شعب اريتريا بدأ فعلاً صناعة تاريخه مجدداً . ويعود هذا الشعب الى طروحات الاستقلال والهوية التي كبتت من قبل الحكم الايطالي بعد العام ١٨٩٠ ، كما انه يردّ على تحدي العالم الخارجي اليوم كما تردّ الشعوب الأفريقية الأخرى : اي أنه يسعى لتأسيس هويته واستقلاله ضمن اطار وطني . وهذا هو التطوير الحديث (التحديثي) لتاريخ هذا الشعب .

ب ـ ان الأريتريين ، عبر الجبهة الشعبية لتحرير أريتريا ، يجيبون بمنظور ثوري على حدود واحباطات القومية الواضحة جداً في اطار النموذج الاستعماري الجديد (وأعتقد أنه لا حاجة هنا لتحديد معنى النموذج الاستعماري الجديد) . وهم يضيفون بديلاً آخر الى البدائل التي اقترحها لونغريغ في العام ١٩٤٥ ـ الفوضى أو استئناف الحكم الاجنبي سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة ـ . وهذا البديل الثالث الذي يجري صنعه الآن هو اقامة البنيات الاجتماعية ، الثقافية ، السياسية والاقتصادية « من القاعدة » والتي من خلالها وعن طريق مباشرة وتشجيع المشاركة الجماهيرية في الحكم الذاتي يتولى شعب اريتريا (بتمايز عن الشخصيات الاريترية) السلطة بيده ويحكم نفسه بنفسه . وهذا ايضاً هو التطوير الحديث (التحديثي) لتاريخ هذا الشعب .

جـ ـ وفي عملهم هذا ، يضع الاريتريون أنفسهم في خضم الاتجاه والمنظور

الثوريين في افريقيا . ومع حركات تحررية أخرى ترتبط بأنواع مماثلة من العمل ، يقفل الاريتريون الباب على الاستعمار الجديد وكذلك على الاستعمار ، ويعطون أنفسهم الفرصة والمجال لحل مشاكلهم الموروثة سواء كانت ما قبل استعمارية أو استعمارية جديدة . وأبعد من ذلك فانهم يضعون أنفسهم أيضاً على طريق حل مشاكل مصيرهم الوطني في اطار منطقة القرن كلها في حالة ما إذا اتخذ جيرانهم لأنفسهم الطريق نفسها .

ويتبع ذلك أن حركة التحرر الأريترية ، كما تبلورت في شكلها الأكثر تطوراً ، نستحق الاهتمام عن كثب والدعم الفعال من قبل كل الأشخاص والأحزاب والحركات الذين يرون ان مصالح بلدانهم ومصالح التقدم الافريقي واحدة .

ريتشارد غرينفيلد

التاريخ الاستعماري وما قبل الاستعماري

ليس هناك شعب يمتلك وحيداً التاريخ . فكل شعب وكل امة في افريقيا ـ كما في أي مكان آخر ـ تتمتع بثلاثة آلاف عام من التاريخ ، وأكثر ، ووراءها ، ولذلك فان موضوعي ، وبخاصة تاريخ اريتريا ، يكتسب أهمية باعتباره خلفية لفهم الثورة الاريترية ، وكما أشار بازيل ديفيدسون ، لفهم الدور البارز لاريتريا في الثورة الافريقية التي لقيت اهتماماً قليلاً جداً حتى الآن برغم التغيّر الذي يحدث حالياً . ولسوف اقترح عليكم ان هذا الفهم مهم بشكل خاص في النظر الى التاريخ الحديث جداً لاريتريا ، لأن التاريخ ليس العرض والتفسير الدقيقين للماضي فقط وانما لأن ادراكه هو عملية مستمرة ومتواصلة . ان التاريخ الملائم ، وبخاصة في أوقات النضال والثورة ، هو عملية متواصلة . وفي الواقع فان مؤرخي المستقبل قد يفسرون السبعينات على أنها الفترة الأكثر حسماً في التجربة الاريترية كلها ، الا انني في كل حال مدعو للتركيز على فترات سابقة لذلك .

وينبغي الاعتراف بأن الموضوع المعطى لي ما زال أوسع بكثير من هذا العرض القصير ؛ ويجب أن تشكل هذه الحقيقة مبرراً للمدخل الانتقائي والتفسيري للموضوع ، خصوصاً اذا أضيف اليها أن العديدين الذين قد يقرأون هذه المحاضرة لاحقاً لن يكونوا ، على ما اعتقد ، من حديثي الاطلاع على تاريخ القرن الافريقي .

في المقام الأول فان عنوان « **التاريخ الاستعماري وما قبل الاستعماري** » يطرح مسألة . انه يشير ضمناً ، وبصورة خاطئة تماماً ، الى أن الاستعمار هو فعل أوروبي حديث نسبياً في افريقيا . ولكن خبرة اريتريا مع الاستعمار هي بالتأكيد أبعد من ذلك بكثير . وتفحّص هذا الجدل يثير أسئلة عما كانت وما هي [الآن] السياسات في شمال شرق افريقيا وعما كانت علاقتها احداها بالأخرى ؟ . وعلينا إذن أن نعيد تفحص هذه

المعطيات وذلك لأن الأبحاث الدولية قد تجنبت هذه القضايا حتى الآن . فلماذا كان ذلك ؟

الهروب من التأريخ التقليدي

مع تعاقب أباطرة اثيوبيا وانحطاط الامبراطورية ، فاننا نفقد ظاهرة أخرى أقل وضوحاً ولكن ذات علاقة ـ ظاهرة المؤرخين [اليوميين] للأباطرة . ففي العصور الوسطى كان الرهبان يقومون بهذه المهمة. أما في المرحلة الأخيرة فيجب الاعتراف بأن رجال الدعاية الأجانب وحتى الدارسين كانوا يخدمون الأغراض الامبراطورية . والنتيجة لم تكن فقط تقديم تاريخ القرن الافريقي وكأنه تاريخ لمجموعة من الملوك وحواشيهم وأساقفتهم ، بدلاً من كونه تاريخاً للشعوب ككل ، وانما أيضاً اهمال مراكز الوطنية كلها في ما عدا المركز الامبراطوري الراهن لابيسينيا (الحبشة) . ومن المؤكد أن ثمن هذه المعالجة غير الموضوعية هو في النهاية واضح بالنسبة لكل انسان وحتى القليل المعرفة بالتاريخ المعاصر لشمال شرق افريقيا . ولهذا السبب لم يكشف إلاّ عدد قليل جداً من الدارسين اقتراب الثورة الاثيوبية . وفي الوقت نفسه كانت سفينة الدولة ـ الدولة الامبراطورية ـ تبحر مباشرة ، وليس بفعل التوه فقط ، نحو الصخور . لا يفاجئنا ان مؤرخي الأحداث قد أنكروا هذه الحقيقة بقوة ، كما أنكرها احدهم على الأقل حتى بعد الحدث نفسه . ووجهات نظرهم بالنسبة لاريتريا كانت مجحفة بالطريقة نفسها .

ان الدراسات ، وبخاصة في اوروبا ، تأخذ وقتها من أجل اعادة التكيف [والتعديل] . وقد حذفت من « **البيليوغرافيات** » (ثبت المراجع) ، وحتى انتقدت بقسوة في غيابها ، كتابات اولئك الذين لم يلتزموا بمبادىء مثل الحق الالهي للملوك (من غير الأصول الافريقية) . ولكن لو أنهم فهموا حقاً عادات الأبيسينيا فانهم لم يكونوا ليفاجأون . فهناك تماثل واضح في سهولة أن يقوم أي ملك يجلس على أي عرش برفض واستبدال أي اختصاصي في علم السلالات يفشل في الامساك بالدور المتوقع منه . ومن بقي اذن لمهمة وصف الأحداث ؟ . برغم أن التاريخ الحديث للمنطقة بمجموعها لم تجر محاولة كتابته بعد ، فان مؤرخي الغد سيجدون أنفسهم من دون شك مدينين لما يسمى بالكتابات السريعة من قبل الاريتريين وغيرهم ولأعمال عدد من الصحافيين الأجانب الجديين الذين أظهر الكثيرون منهم درجة عالية من التجرد ونفاذ البصيرة العلميين . وحتى إذا لم يكن أي متملق ذليل في البلاط يصلح لأن يكون دليلاً موثوقاً على السياسات الاقليمية ، فينبغي تذكر أن اعادة القراءة بصورة نقدية يمكن أن تثبت بالصدفة قدرتها

على كشف ما هو متضمن وربما ما أسيء تفسيره أو انكر نهائياً . ان مهمة عظيمة تترتب علينا جميعاً هي اعادة فحص واعادة تقييم المصادر جميعها .

ويتصل بالموضوع أيضاً فقدان الدقة بشكل واسع في استخدام المصطلحات [الفنية] الموروثة من الدراسات الاستعمارية . لنأخذ مثلاً مصطلح « الأمة » ومصطلح « القبيلة » . فقد اطلق على تنظيمات اجتماعية عريضة مثل ملايين الزولو والأورومو والإيبو اسم « قبائل » بينما وصف ٧٥ ألف مواطن لوكسمبورغي بأنهم «أمة». وعدم الاعتراف بالكيكويو والزولو كأمتين أدى، ولكن ليس كثيراً بصورة غير منتظمة ، الى نظرية ـ أو أكثر تحديداً الى افتراض ـ أن «القوميات» جميعها وبالتالي «الأمم» في افريقيا قد تطورت بشكل كامل من خلال التجربة الاستعمارية الأخيرة. ومثل هذا الجدال هو في الاساس عرقي (اثني) ، بالرغم من جاذبيته بالنسبة لمؤرخين بارزين مثل هيو تريفور روبر .

الامبريالية في العصور القديمة

حيثما كان هناك بشر كانت هناك السياسة ، لأن الانسان كما علمنا ارسطو هو حيوان سياسي . وحيثما تمت تعبئة ملايين الناس لانتهاج سياسة ما مشتركة وللاعتراف ببؤرة سلطوية ما في اطار كيانها السياسي المشترك تطورت القومية وأطر الدولة . ولقد كانت الفترة الاستعمارية الأوروبية فترة قصيرة وحديثة وان كانت بارزة ومهمة في التاريخ المديد للشعب الافريقي . لكن قوميات عدة في القرن الافريقي هي قوميات قديمة جداً وكذلك علاقاتها احداها بالأخرى . ومن ناحية أخرى فان « فرادة » التجربة الأبيسينية ـ الافريقية والتي لقيت تهليلا دائماً هي «فرادة» قريبة جداً .لقد ميّز بازيل ديفيدسون بشكل مفيد جداً بين القومية الافريقية والجنسية الافريقية . وفي هذا المجال دعونا نلق نظرة على تعبير « الامبريالية » . فالامبراطوريات الأوروبية لم تكن الأولى ولا الأخيرة . وعلى امتداد تاريخ افريقيا ، حيث توصلت اعداد كافية من الشعوب الى الاعتراف بنقطة تركيز للولاء وإلى الشعور ببعض المسؤولية في المقابل (بالمعنى العسكري على الأقل) فان هذه « القومية » قاومت الأخريات وحاولت فرض السلطة والنفوذ من دون اثارة الولاء رداً على ذلك . هذه هي الامبريالية . ومثل هذه المواقف ، وبخاصة المشاعر ، المتصلة بالهوية والولاء ربما تتغير . ولكن من المعتقد أن مثل هذه العلاقات المتغيرة بين القوميات وأطر الدولة هي نمط التاريخ ليس في افريقيا وحدها . وقد عرفت افريقيا امبرياليتها « المحلية » في اوقات ومناطق مختلفة .

لقد جرت التطورات الثقافية لشعوب شمال شرق افريقيا ، وهي شعوب افريقية بالطبع ، في فترات تأثرت كثيراً بغطاء ثقافي شكلته الهجرات غرباً عبر البحر الأحمر وعلى امتداد ألوف من الأعوام سبقت الحقبة المسيحية . والعكس كان صحيحاً أيضاً ، فالواقع أن الدراسات الحديثة تتجه نحو التساؤ ل عن « المؤامرة السامية » ككل التي نزعت حتى الآن الى نسبة اي اكتشاف في اللغة واسلوب الحياة الى تأثيرات من الشرق الأوسط . وقد جرت بعض التبادلات الثقافية في كل اتجاه ، وكان ذلك كافياً في كل حال للاستنتاج بأن التقنيات والانماط المحلية والمتطورة ، سواء في الزراعة أو التجارة أو السياسة ، أوحت الى مدى واسع بنشوء دول ـ المدن مثل ييها ومطرا الخ . . و (ربما لاحقاً ، بالرغم من أن العمل في الأضرحة المكتشفة حديثاً ما زال مستمراً) أكسوم . أما الثقافة والحضارة الاريتريتان فهما محليتان وتطورتا محلياً .

لقد اعتمدت ثروات هذه المدن على التجارة والضرائب . وفي هذا الاطار تشير رواية احد التجار في القرن الأول الى حاكم ، هوزوسكاليس بأنه كان « وضيعاًوبخيساً في أساليبه وكان يسعى دائماً للحصول على المزيد » . وهذا الحاكم الذي ساوى معظم المؤ رخين بينه وبين حكام اكسوم وحتى بينه وبين حاكم بالذات هوزاهاكال ـ بالرغم من أنه لا دليل كافياً على أي من هذه التعريفات ، ويمكن تماماً انه كان حاكماً ساحلياً ـ فرض وظيفة اقتصادية ، هي جمع الضرائب ، وكان مواطنوه ـ إذا لم يكن التجار الزائرون من ما وراء البحار ، من السودان الى الغرب والأبيسينيا الى الجنوب ـ يتغاضون عنها ربما وحتى يقدرونها .

اننا نعرف القليل [فقط] عن العلاقة بين مثل هؤلاء الحكام والمحكومين الذين أريد أن أسميهم بالاريتريين لأن كلمة اريتريا ليست جديدة . انهم إذا كانوا مواطنين ، فاننا ربما لن نعرف أبداً أيـة نسبـة (إذا كانت هناك) من الفوائد المالية أو المادية كانت تأتي من حكام معينـين الى محكوميهم ، أو ما إذا كان اذعانهم للسلطة فقط في مقابل السلام والنظام اللذين كانت قوة الحاكم تفرضهما واللذين كانا ضروريين لسلامة عائلاتهم و [حسن] وضعهم الاقتصادي . ومع ذلك يمكن الافتراض باطمئنان أن علاقة تؤكد التنظيم والطاعة ودرجة ما من الولاء كانت موجودة (قائمة) . انه في الثورة فقط ، يمكن أن تتبدّل جوهرياً طبيعة مثل هذه العلاقات . وفي كل حال فان العلاقة تكون أكثر وضوحاً إذا لم يكونوا مواطنين .

ومن المعروف عن دولة ـ مدينة أكسوم ان التنظيم الذي أقامه حاكمها سيطر على

مدن أخرى وعلى مساحة مهمة من شمال شرق افريقيا ، وهو الواقع الذي ربما لم تحـدّده بمدى التجارة المهم جداً في المنطقة مع بداية الألف عام الأولى من المسيحية لكنه ارتبط بها . والدليل على قيام مثل هذا النشاط التجاري يمكن أخذه من المخطوطات المحفورة لمصر القديمة وبلاد الفرس ، ومن دراسة العملات النقدية وكذلك من الاكتشافات الاثرية في الجزيرة العربية وأيضاً في اريتريا ، أثيوبيا ، ووادي النيل .

ومن المؤكد تقريباً انه بنية ضمان سيطرة أكبر على هذه التجارة ، قام حاكم وشعب مدينة أكسوم بمدّ نفوذهما لاقامة دولة ـ امبراطورية . وقد تبنى الحاكم لنفسه لقب نيغوزا نيغيست (Negusa Neghest) أو ملك الملوك الذي ربما يعود في أصله الى بلاد الفرس كما تردد ولكن مع اشتقاق واضح في كل حال : « فرض [جباية] الجزية » . ومن حفريات سجلت في ميناء ادوليس على الساحل الاريتري ، نعرف أن أحد حكام اكسوم من فترة ما قبل المسيح (التحول جرى في منتصف القرن الرابع) قام بغزوات « لجعل الشعب يعيش في سلام » في جبال (سيميان ؟) وفي « السهول التي لا ماء فيها في بلاد البخور » (الصومال ؟) واعطاء الشعوب « تعليمات لحراسة الساحل » في أريترياوإعادةأراضيها « شرط دفع الجزية » . وأرسل أيضاً اسطولاً عبر البحر (إلى الجزيرة العربية) وقام « بعد أن اخضع الملوك . . بفرض جزية على الأرض » ثم كلفهم « بجعل السفر في البحر أميناً » . لقد أمكنه اخضاع « الامم المجاورة » لبلاده حتى سازو (ميرو ؟) ، وأصبح ذلك ممكناً بفضل التنظيم السياسي وشبه العسكري . ويعلق على ذلك ، كما يمكن أن يعلق مؤرخو الأحداث اللاحقون بأن «بعض الحملات قمت بها بنفسي شخصياً وانتهت بالنصر (!) بينما كلفت ضباطي بالأخريات » . انها قصة غزو ، و « فرض السلم » واعادة توجيه اقتصادي : انها في الواقع استعمار نموذجي .

وقد جاء اعتراف بما تم إحداثه من قبل حكام العالم الآخرين ـ مثل الامبراطور قسطنطين ـ الذي شبّه سكان اكسوم بالرومان الذين يشكلون عرقاً امبراطورياً آخر ، مما أضاف رصيداً لسلطة ملك الملوك ومواطنيه .

من الواضح أنه كان في مصلحتهم الاحتفاظ بسيطرتهم المفروضة فرضاً أطول مدة ممكنة . إلا أن التاريخ يفيد بأن اقامة امبراطورية بالقوة أمر ممكن لكنه غال ، وان الاسلوب الأفضل هو دمج العناصر الجديدة وصولاً الى إثارة الولاء لمركز الدولة ـ الامبراطورية العريضة ، عن طريق إيجاد ونشر هوية جديدة وقومية أوسع تتطابقان مع الأفق المتمدّد للدولة ـ الامبراطورية . ولقد جرّبت معظم الامبراطوريات في التاريخ

هذا الأسلوب أو ذاك . والسؤال الذي ينبغي أن نسأله هو عما إذا كان الأريتريون وغيرهم قد اندمجوا في الدولة ـ الامبراطورية . فالقضية ليست قضية حدود وانما هوية لأن الدولة ـ الامبراطورية في فترات سابقة في اكسوم وغيرها لم تعرف حدوداً مخططة بل روافد [مناطق جزية] . وفي عدد من الحالات ، بل في جميعها تقريباً . كانت الحدود المخططة نتيجة « توسع أوروبا » . وفي اللغة الامهرية ، أن « الرافد » [منطقة الجزية] وليس « الحدّ » هو معنى الكلمة التي استخدمها كثيراً في وقت لاحق مينيليك الثاني في مراسلاته مع الحكام الأوروبيين في اواخر القرن التاسع عشر . فحدود سلطة اكسوم لم تكن غير حدود الجمع الفعال لأموال الجزية وللعبيد .

في القرن الرابع بعد الميلاد قام ملك الملوك ايزانا (٣٢٥ ـ ٣٧٥ ميلادية) بكشف هذا المفهوم للحدود التابعة لدولة ـ امبراطورية . وقدم نفسه في نقش آخر على انه « ايزانا ، ابن ايللا اميدا من قبيلة هالن ، ملك اكسوم وحمير ، وريدان وسبأ ، وصالحين ، وسيامو ، وبيغا ، وكاسو . . » ، وأوضح كيف أن مواطني الدولة ـ الامبراطورية ، من غير مواطني اكسوم ، ولكن في النوبة في جوار ميرو على النيل ، اعتبروا أنفسهم خارج اطار سيطرته في ما يتعلق بالجزية . ولقد قدروا ، كما يبدو ، أن حدوده تقف عند نهر تكاز الذي ما يزال يحمل هذا الاسم حتى الآن . وأمر بكتابة ما يأتي :

« بدأت القتال ضد النوبة عندما تمرّد شعب النوبة ، عندما تباهوا وقالوا « انه لن يعبر التكاز » بعد أن مارسوا العنف ضد شعب المانغورتا ، والهازا ، والباريا ، والسود وشنوا حرباً ضد الشعب الأحمر وحنثوا بقسمهم ثانية وثالثة ، ومن دون أي اعتبار قتلوا جيرانهم وسطوا على مندوبينا ورسلنا الذين أرسلتهم لاستجوابهم ، ونهبوا ممتلكاتهم ورماحهم . وعندما أرسلت للمرة الثانية ولم يستمع اليّ هؤلاء وشتموني وولّوا ، باشرت القتال ضدهم وسلّحت نفسي بقوة سَيِّد الأرض وقاتلت على التكاز عند مخاضة الكمالك . ونتيجة لذلك لجأوا الى الهرب » .

وانتقل ايزانا بعد ذلك الى تسجيل التدمير الذي أحدثه ، أسماء رؤساء القبائل الذين سقطوا ، والغنائم التي كسبها ، وتدمير أو نهب ميروى الذي حصل من وقت الى آخر . لقد كانت حدود التبعية لدولة ـ امبراطورية اكسوم مائعة بشكل واضح ، وهذا يشير الى أن الشعوب المستعمرة ، كما هو الحال اليوم ، لم تقبل ذلك الأمر الواقع راضية وان الأريتريين كانوا من بين تلك الشعوب .

الأمم في القرون الوسطى

ان الشعب الاريتري الذي عاش في محيط أبيسينيا تأثر ظرفياً فقط بسلطة تلك الدولة ـ الامبراطورية . ويمكن تمثيل تاريخ القرون الوسطى لتلك الأخيرة في سلسلة دائرية من اعمال التوسع والانسحاب من سلسلة من البؤر في شمال شرق افريقيا . وكما صوّر التاريخ الاثيوبي بصورة اعتيادية فقد اعتبرت الانسحابات الى «المرتفعات في عمق ابيسينيا القديمة » نكسات عامة لـ « القومية الأثيوبية » . وهذا أمر سطحي . فالقانون المرافق لقي انكاراً وهو امكانية اظهار ان القوميات الأخرى ، التي لم تَرُقْ دراستها ، نمت وتقدمت في مثل تلك الأوقات . وهنا تبرز نقطة أخرى تطرح نفسها وهي ان الامبراطورية الاثيوبية لم تكن ، ولم تصبح حتى الآن ، أمة أو دولة ـ أمة .

ان الاحساس القومي الحقيقي يستمد ، القوة من التجربة التاريخية . ويجب الاعتراف بأن ذلك يجري تحريفه في بعض الأوقات ، عادة بالتضخيم ، من قبل السياسيين لغرض بناء أمة . ولكن الاختبار الحقيقي هو انه عندما تتوقف التجربة التاريخية عند نقطة ما عبر انهيار دولة أو قومية فانه يستمر برغم ذلك موجوداً كطموح . وإذا التزمت به الأغلبية عند ذلك ، فاذن يمكن أن يقال ان القوميَة ـ وفي الواقع الأمة ـ قد صمدت وعاشت . ان أمتيْ الزولو والإيبو تعيشان اليوم من دون اطارين لدولتين معترف بهما . ومن هنا فان علينا أن نسأل ايضاً عما إذا كان الاريتريون الذين لا خلاف على انهم اكثر تنوعاً ثقافياً هم أمة ، وعما إذا كانوا أو لم يكونوا مستقلين وموحدين في أي وقت في الماضي ؟ هل كانت هناك روح وطنية حقيقية ؟ وهل ما تزال تعيش ؟

في مجالات عدة ، فان العملية المتكررة تاريخياً والموصوفة اعلاه ، وعملية التوسع الدائبة ولكن الدائرية لأبيسينيا ، تشبه تاريخ الصين التي تفاوتت كثيراً حدود حكمها الفعال اعتماداً على سلطة أو ضعف السلالة أو الحكومة المركزية . ولتطوير قياس التشبيه اكثر ، وبرغم الاعتماد الغربي حالياً على المعاهدات التي تضمن خطوط الحدود ، فان الكثيرين من الصينيين يميلون لتصوّر الصين باعتبارها « حيث يعيش الصينيون » بينما يعترفون بأن درجة الاستقلال الذي نعمت به منغوليا ، منشوريا ، كوريا ، التيبت الخ . . كانت في أي وقت في التاريخ تعتمد على قوة الداخل الصيني ، نواة الدولة ـ الامبراطورية . لقد نعمت الامبراطورية الصينية بعدة آلاف من السنين طوّرت فيها وألهبت « قومية واسعة » ، أما هل كان الأشخاص في محيطها صينيين أو لم يكونوا ، فذلك أمر يتَعلق بقرارهم الخاص ،ويتأثر ذلك ، كما ينبغي أن تكون تلك القرارات ،

بالعوامل التي تعتمد عليها القوميات كلها وهي المظاهر اللغوية والثقافية التي تسهل الاتصال ، والصلات الدينية والايديولوجية الخ . .

ان ملاءمة هذه المقارنة ـ وهناك جدل حول ضرورة اعتماد دراسة التاريخ على الملاءمة ـ هي أنها كل ما يعنيه مفهوم تقرير المصير والاتفاقات الدولية التي[تسنّــه] . وإذا ثابر أتباع امبراطورية ما على رفض الاندماج مع مجموعة امبريالية مجاورة فهلا يسمح لهم شق طريقهم الخاص بحرية ؟ وهل قرر الاريتريون أو الصوماليون ـ أو الايرلنديون لهذا الخصوص ـ جميعاً ان يكونوا مواطني دولة ـ امبراطورية مجاورة ؟ القضية هي كيف يُوجِد كل منهم هويته الخاصة وليس هوية الآخرين . وإذا كانوا يقاومون الدمج والامتصاص فانه ينبغي تفكيك تاريخهم القومي واعادة تحديده . وهذه هي مهمتنا .

في منتصف القرن السابع بعد الميلاد كانت دولة ـ امبراطورية اكسوم تتعرض للانهيار . لم تكن قادرة لا على التوسع ولا حتى على حفظ استقرارها لأن القوة الاقتصادية ، قاعدة الطاعة والوحدة المفروضتين ، كانت أيضاً تذوي وتذبل . ولهذا لم تستطع الدولة ـ الامبراطورية أن تقوى على البقاء . مع مرور الوقت سقطت اكسوم ، على نمط الامبراطوريات جميعاً ، في هاوية التراجع وتفككت . كان هناك عدد من الأسباب السياسية والاقتصادية لذلك ـ بما فيها مقاومة ونمو سلطة البيجا ـ ولكن من غير الممكن معالجتها هنا . في هذا الوقت شكل الاريتريون والعفاريون جزءاً من مملكة ادال وفي وقت لاحق سلطنة أوسّا (Aussa) ومع مرور الزمن ، أيضاً ، تطورت دولة أبيسينية أخرى من مراكز القوى التي كانت قائمة في الجنوب عند جبال ما هو اليوم اثيوبيا . وتشير التقاليد الأبيسينية المسجلة في وثائق لاحقة الى أن لاستا ، في عمق الحصون الجبلية لما هو اليوم شمال اثيوبيا ، أصبحت بؤرة السلطة الشاملة الجديدة . وللأسف ، كما قيل ، تمثل التاريخ الأثيوبي طويلاً باعتباره قائمة من الملوك ، وكان تفسير قصة حكام زاغوا يتلاءم مع الاطار الزمني بسهولة فائقة . والحقيقة اننا نعرف القليل جداً عن لاستا والزاغوا . اما روها ، أو لاليبيلا كما كانت تدعى على اسم أحد الملوك ، فهي العاصمة وقد اكتشف علماء الآثار في أواخر الستينات انها كانت مدينة مسوّرة ـ مسوّرة ضد من ؟ ليست لدينا فكرة ، أو هي فكرة ضئيلة جداً ، عن مدى سلطة الحكام في ما وراء تلك الأسوار ، ولهذا فاننا لا نعرف كم من الولاءات الوطنية والبؤر الأخرى وجدت في أفريقيا الشمالية الشرقية قبل ألف عام . وفي كل حال فان لدى المؤرخين العرب ما يتحدثون عنه ، في نطاق تاريخ المنطقة الاريترية ، أكثر مما هو معروف . وعلينا اعادة قراءة هؤلاء .

ليس هناك دليل على أن أياً من لاستا ، أو السلالة الأبيسينية الأبعد جنوباً والتي توصف منذ القرن الثالث عشر بأنها « سليمانية » قد قبضت جزية منتظمة من أي فريق من الأريتريين . فامارات بيجا على سبيل المثال كانت مستقلة تماماً . كما أن فرض الجزية لم يكن في أي حال دليلاً على الجنسية كما جرى تحديدها ، إذ أن الجزية كانت نوعاً من الضمان . كان يدفع في أحيان كثيرة في اكثر من اتجاه واحد . وأيضاً فانها كثيراً ما كانت لهاعلاقة بالصلات الدينية غير المرتبطة بالجنسية . وفي التاريخ الأقرب الى اليوم ، فاننا نعرف انه في القرن السادس عشر فرض البهري النجاش ، أو حكام البحر ، سلطتهم على أجزاء من الساحل أو ما بات يسمى المدري البهري ، وهي منطقة ربما تترادف مع مناطق الهضبة الأريتريةاليوم ، وكانوا في أكثر الأحيان حكاماً مستقلين تماماً ، وقد ناضل حكام أبيسينيا ، تكراراً ، لكسب السيطرة على طرق التجارة والموانىء . ولأنهم لقوا نجاحاً ضئيلاً فانهم يكونون اذن قد قوبلوا بمقاومة . وعلى كل حال فان موقع اريتريا الجغرافي ـ السياسي منها (الجيو ـ بوليتيكي) عرضة للاستعمار التقليدي ، وهذه المرة من البحر . إلا أن الخلفاء الأمويين استطاعوا ، برغم المقاومة ، احتلال مراكز التجارة المزدهرة التي نمت على أرخبيل جزر دهلق وأجزاء من الساحل . وقد دفعت أراضي برقه الواطئة والمرتفعات الشمالية الجزيةَ لحكام الفونغ Fung وفي وقت لاحق للمصريين . أما الغارات غير المنتظمة من الاتجاهات التقليدية ، من قبل حكام تيغراي وامهرا ، فقد قوبلت دائماً بمقاومة وفي بعض الحالات بمساعدة الأجانب .

ومرة اخرى فان الطريقة التي سجل بها ذلك ، في ما بعد ، هي مثال نموذجي لاسلوب مؤرخي الأحداث الاثيوبيين الذين ينبغي أن نكون له بالمرصاد . ويكتب أوليندورف قائلاً انه عندما « لم تكن للامبراطورية بؤرة ثابتة وأصبح رؤساء القبائل المحليون مستقلين بشكل متزايد . . . لم يعد معروفاً في الواقع التقدم المادي و (حتى) التطور الفكري . كانت هناك رعشات ظرفية من النور ، وبعض الحكام القادرين ، ولكن الظلمة التالية (كذا) كانت أكبر . . » وبرغم انه يناقش القرنين السابع عشر والثامن عشر ، فانه يجد من المناسب اضافة انه « فقط في وحدتها التي اعيد اكتشافها تحت حكم الأباطرة جون ، مينيليك ، وهيلاسيلاسي تكتشف البلاد عبقريتها ثانية وكذلك روحها ومعنى رسالتها*» . ولكن حدود الدولة ـ الامبراطورية الأثيوبية لم « يعد اكتشافها » كما لم يكن هناك شيء سوى واجهة للوحدة . ومهمة أولئك الملوك كانت ،

* إ . أوليندورف : « الاثيوبيون » ـ الطبعة الثالثة (لندن ١٩٧٣) الصفحة ٧٥ .

الى حد ما على الأقل ، امبريالية . الحدود كانت مجال تفاوض مع مشتركين آخرين يتزاحمون في افريقيا وقد تم الوصول اليها بالطريقة نفسها التي كان الوصول فيها الى العرش ، كما يقول المثل القديم ، « يجتاز مخاضة الدم » .

اريتريا والتزاحم

لقد عزّز افتتاح قناة السويس في العام ١٨٦٩ ، بدرجة كبيرة ، الأهمية الاستراتيجية لشواطىء البحر الأحمر وخليج عدن . وأدى ذلك الى نزاع استعماري متطور بين القوى التوسعية ـ ايطاليا ، بريطانيا (ومصر) ، فرنسا ، روسيا ـ وشيوا ، لأن تلك المقاطعة الهامشية الجنوبية لأبيسينيا كانت تتحرك بشكل خاص للسيطرة على الضالة الامبراطورية لرؤساء ابيسينيا و « الراز » . وفي الشمال ، كان يوجد ، حكم استعماري ايطالي أقيم في نهاية القرن التاسع عشر واستطاع في النهاية توحيد مدري البهري : أراضي برقه الواطئة والمرتفعات الشمالية ، مصوّع والسهل الساحلي المحيط وأراضي الدناكيل الواطئة ، برغم ما يمكن قوله من أن العملية بدأت من قبل المصريين . وتشكل هذه المناطق أريتريا الوقت الحاضر .

ان اهتمام العديد من الدارسين قد توجه الى التاريخ السياسي للاستعمار الأوروبي هناك والذي اتبع ، على امتداد افريقيا الشمالية الشرقية ، الأنماط التقليدية : اتفاقات « حماية » من جانب واحد ، منازل تجارية تفتح الطريق أمام الحكومات الامبراطورية ، ذرائع لـ « الحملات التأديبية » و « فرض السلم » الخ . . وربما كان الفارق المميز الوحيد الذي تمكن ملاحظته هو أن الحملات الاستعمارية المنظمة من قبل ممثلي القوى الأوروبية سعت ، بشكل عام ، لعدم تشجيع تجارة الرقيق بينما لم يكن حكام ابيسينيا يتجهون ذلك الاتجاه ، بل على العكس من ذلك تماماً .

الا أنه في كل حال يجب ألا يقف منحى البحث المستقبلي عند تأثير كل من مظاهر الامبريالية تلك على شعب اريتريا ، وانما يجب أن يسعى لعرض تطورها المتواصل والمترابط . ان تاريخ افريقيا ليس تاريخ غزاتها ، ولذلك فان المصادر التقليدية المورثة لنا من قبل الآخرين ، برغم أهميتها الحيوية ، تحتاج الى اعادة تفحص واستخدامها بحذر . وما كان عَرَضياً بالنسبة للمؤرخ الاستعماري قد يكون حيوياً بالنسبة للباحث الافريقي إلا أنه من المحتمل بالقدر ذاته أن يكون الكثير من المسائل الهامة لم يسجل اطلاقاً . والأفضلية ، لذلك ، هي أن يتم تجميع ثم مقارنة المادة الفطرية الشفهية والمكتوبة وما سمي بـ « العابرات » ، تماماً كما بدأ العمل في غانا في معهد الدراسات

الافريقية الذي افتتحه كوامي نكروما رسمياً في العام ١٩٦٣ (برغم انه بدأ عمله قبل ذلك) .

وحتى المصادر الواضحة مثل الرسائل والاتفاقات الامبراطورية الأثيوبية ، لم يجر تحليلها جميعاً بهدف اماطة اللثام عن حقائق اريتريا . والأهم من ذلك ، على أي حال ، العامل الاقتصادي . إذ أنه بينما كان الحكام والادارات يأتون ويذهبون كانت تحدث عملية حيوية ومستمرة . انني أشير الى قيام طبقة عاملة عفوية ، طبقة كانت طموحاتها الأوسع اريترية وفي اطارها ولدت القومية الأريترية الحديثة كما نعرفها اليوم . وهذه ، في الحقيقة ، هي فترة الحمل بالنسبة للقومية الأفريقية الحديثة كلها ، لأن اريتريا ، كما هو الحال بالنسبة لغانا وتنزانيا والسنغال ، هي طفل الثورة الافريقية .

فترات الاستعمار

يبقى الكثير من العمل مطلوباً لتغطية الفترة الاستعمارية الايطالية ، ولكن باختصار وكما كتبت في مطلع الستينات ، كانت موانىء أريتريا تحت السلطة الايطالية مجرد موانىء للدهو (وهو مركب شراعي مألوف في المنطقة) بينما كانت الاتصالات مع السهل تقتصر على نظام للسكة الحديدية غير كفؤ الى حد ما وحتى الوقت الذي تقرر فيه غزو اثيوبيا . عند ذلك أدت التحضيرات الى بناء طرق ونمو مدن ، ولكن المعيار دائماً كان استراتيجياً وليس اقتصادياً . وقد انهارت الامبراطورية الايطالية في شرق افريقيا خلال الحرب العالمية الثانية . وقد واجه المسؤولين البريطانيين حطام اقتصاد استعماري ايطالي الاتجاه ، فقدان المدخرات الفردية ، عجز ، وفي كل حال عدم رغبة ، البريطانيين عن اعانة الاقليم ، والارتفاع المريع الناتج في الضرائب وفي نفقات المعيشة الخ . . وذلك كله سبب عوزاً اقتصادياً قاسياً لمجموع السكان . والأكثر من ذلك فقد كان هناك الجنود العائدون من ليبيا وغيرها ، والذين برغم أنه لم تتم دراستهم كانوا ذوي وعي سياسي كاخوانهم الأكثر شهرة ، الذين وجدوا انفسهم من دون عمل ولا مساعدة فتوجهوا في خيبة أملهم الى المقر الحصين للحاكم العام في اكرا ، غانا ، يوم ٢٨ شباط (فبراير) ١٩٤٨ .

لقد ارتد الاقتصاد الاريتري ، بسرعة ، الى مستويات ما قبل الفاشية وليس الى مستويات ما قبل الايطاليين . كان هناك نوع من المنافسة على العمل ، وبالتالي نوع من الخلاف الحتمي بين الطبقات العاملة الأريترية الصغيرة والايطالية ؛ كان هناك استياء

من التحويل المستمر لملكية الأرض ، من مكابرة العسكريين السودانيين وغيرهم من المستخدمين عند البريطانيين ، وشك متزايد بحسن نوايا الأخيرين . كان مناخ القمع الذي ساد على أيدي الحكومة الفاشية السابقة قد خفّ إلى حد ما ، وأدى ذلك الى جانب الزيادات الضئيلة في فرص التعليم الى عدم رضى وعدم ولاء كلا المناطق المدينية والريفية في التعبير عن نفسها اكثر فأكثر في الوعي والنشاط السياسيين . وهكذا ازدهرت الأمة الأريترية .

في اطار تشكل الثورة الأفريقية الشامل ، وفّر الاستعمار الايطالي عموماً والسياسات المتصلة بالأرض خصوصاً ، والادارة العسكرية البريطانية معاً ، الثقافة التي تمكنت القومية الاريترية الحديثة من التطور من خلالها . لقد أدرك الأريتريون [وجود] خبرة تاريخية مشتركة . والحافز كان طبقتهم العاملة المحلية النامية وغير الراضية ، والتي كانت أكثر وعياً سياسياً وتحث على أمة أريترية تقدمية سياسياً .

كثيراً ما تمت العودة الى « الوعود » للوطنيين ، التي يقال ان المنشورات البريطانية التي ألقيت من الجو خلال الحرب العالمية الثانية قطعتها [على نفسها]. وهناك في كل حال خلافات غريبة في التقديم : بعض الكتاب يدعي أنها عرضت « تقرير المصير » ، وغيرهم « الاتحاد مع أثيوبيا الأم » . وقد حان الوقت لأن نجمع وننشر بالنص كل ما هو ممكن الوصول اليه من هذه المنشورات ثم تحليل الخلفية الكاملة لتلك الممارسة الدعائية . من كتبها ، على سبيل المثال ، وماذا كان في ذهنه ؟ ومن دون مثل هذه الدراسة فانها لن تكون ذات قيمة تاريخية (تمييزاً لها عن [القيمة] الدعائية) .

شهدت الفترة البريطانية احدى أولى الحركات السياسية The Mahiber Febli Hager (حزب حب البلاد ، أو الحزب الوطني) التي انبثقت في العام ١٩٤٢ وما لبثت أن أصبحت كتيباتها ودعاياتها قيد التداول . كما أنشىء أيضاً حزب اتحادي كان يعمل بتعاون وثيق مع الكنيسة المسيحية الأثيوبية في اريتريا . وقد التزمت الكنيسة بقيادة ابوني ماركوس ، بنشاط ، في الكفاح من أجل الاتحاد مع أثيوبيا . أما التقارير البريطانية فأوحت بأن سبب ذلك يعود الى أن الحكومة الأثيوبية كانت تميل أكثر من البريطانيين إلى إعادة الأملاك التي صادرها الايطاليون من الكنيسة ثم أجّروها الى المستوطنين وبعض القرويين الذين ضربهم الفقر. صحيح أن الكنيسة المسيحية كانت مالكاً كبيراً في تيغراي الى الجنوب ، إلا أن الأهم من ذلك بكثير هو أن الكنيسة المسيحية الأثيوبية كانت في ذلك الوقت قاعدة للفلسفة السياسية لهيمنة الشيوا . وقد جرت محاولات

متكررة من قبل الضباط البريطانيين لاقناع قادة الكنيسة ، بمن فيهم أبوني ماركوس ، بأن على الكنيسة ألّا تتدخل في السياسة كما كان يفترض أنه واقع في بريطانيا . كان الرهبان يستمعون بأدب ، إلا أنهم يرفضون مثل تلك النصيحة التي كانت ، الى جانب صدق مقصدها ربما ، نتاجاً نموذجياً للعزلة واللامرونة العقلية اللتين أظهرهما بعض البريطانيين في افريقيا . في وقت لاحق تلقت الحركة الاتحادية مساعدة مالية مكشوفة تماماً من ممثلي الحكومة الأثيوبية ، ولكن مدى سيطرتها على سياسات الحزب كان مبالغاً فيه . والواقع ان فقدانهم له كان سيؤدي الى نضال مطوّل بعد مغادرة البريطانيين .

كان هناك تعاطف بيّن مع الرأي الذي يقول باستقلال اريتريا عن شيوا ، وكذلك عن ايطاليا وبريطانيا ، وباتحادها ربما مع تيغراي كما قال البعض تحت القيادة المحتملة ولكن غير المطلوبة لسيوم مانغاشا . وقد دعا ، مثلاً ، الى ذلك تيسيما اسبيروم (الذي كان يعتبر مؤيداً للايطاليين والذي رغب الأثيوبيون في اعتقاله) وابنه ابرها . والاثنان اعطيا لاحقاً القاباً من البريطانيين الذين ربما كانوا يأملون في أن يحفظوا لكلاهما مصلحة بأية دولة تيغرانية ـ أريترية قد تقوم . كما كانوا يأملون أيضاً أن يتم بالنهاية انتقال لأجزاء اسلامية معينة من أريتريا الغربية الى السودان الذي كان تحت حكمهم في ذلك الوقت . والأرشيف الخاص بتلك الفترة مفتوح الآن للدراسة والتنقيب .

لقد كتب العميد لونغريغ ، رئيس الادارة البريطانية لاريتريا ، عن ذلك قائلاً :

«اذا استثنيت المرتفعات القبطية(كذا)، كان من المؤكد أن أي عنصر ما جدير بالاعتبار من السكان لن يرغب في ارتباط وثيق مع الامبراطورية الأثيوبية » .

تلك المناطق بمعظمها كانت مسلمة وقد أعربت بسرعة عن رغبة ـ كانت ثابتة وراسخة ـ بالاستقلال التام . لقد عملت من خلال تنظيمات سياسية . ولم تكن الانقسامات داخل أريتريا، في كل حال ، بسيطة أبداً . وحتى لو أن البريطانيين فهموها جزئياً فقط فانهم لم يكونوا غير مدركين للمستويات الجديدة من الوعي السياسي والتوتر المتصاعد . وهناك مذكرة بريطانية مؤرخة في ٢٨ حزيران ١٩٤١ لاحظت ما يأتي :

« وهناك مشكلة سياسية هامة هي أن الايطاليين ينشرون أكاذيب تحريضية [هذه هي كلمة أي انسان حين توجه الى انسان آخر من قومية أخرى] ، تثير المواطنين المحليين ؛ بالاضافة الى مسألة ضرورة اعترافنا (نحن البريطانيين) بالسيادة الايطالية ، المعطلة مؤقتاً ، في بلد تمرغت فيه سمعة ايطاليا بالوحل في أعين هؤلاء السكان المحليين الذين يفوق عددهم عدد الايطاليين بنسبة كبيرة جداً » .

وحذرت :

«لأن الايطاليين يعتمدون الى مدى بعيد على أهل البلد في المؤن ، ولأن الايطاليين يملكون حصة الأسد في رأس المال والتجارة، فان العلاقات بين العرقين ينبغي الاّ تترك لتصبح سيئة جداً. فبمرور الوقت قد تتحسن هذه العلاقة ، ولكن ما دام الايطاليون يواصلون ممارسة سلطتهم التنفيذية على اهل البلد ، أو الى أن يرى أهل البلد أن البريطانيين سيعملون على تبني تدابير ادارية أكثر تعاطفاً، تنسب لهم النية على اتخاذها، فان هذا التحسن سيكون غير مؤكد في أجزاء عدة من البلاد .

« ماذا نريد » هكذا تساءل مدير بريطاني بلغة بيانية ، واضاف :

« ان واجب الادارة البريطانية في اريتريا ان تدير البلد بأدنى الطلبات للمساعدة والملاحة العسكريتين ، وان تنفذ انفاقاً حكيماً للجنية الاسترليني . فالجنود في الوقت الحاضر أثمن بكثير جداً من المال في الشرق الأوسط » .

« ان تساهلنا تجاه الايطاليين يجب أن تمليه اهتماماتنا الخاصة ، ونحن لسنا هنا لنقيم طوباوية قومية وذلك بالرغم من أن على ادارتنا ألا تكون مكشوفة للانتقاد الذي يؤثر سلبياً على السمعة البريطانية في البلدان المجاورة » . . .

كان من المعترف به أن النية الحسنة من جانب المثقفين الأريتريين تتلاشى بسرعة وتلت ذلك بسرعة عودة الى النظرية الاستعمارية (والاستعمارية الجديدة) المعتادة من « أن أجنبياً ما يجب أن يكون وراء » أي تعبير شعبي عن الأشياء :

« ان المظهر الاقتصادي للمشكلة الأهلية اكثر خطورة وربما يكون له تأثير ملموس على الأمن . وإذا كان على أهل البلد أن يمروا في أوقات صعبة اقتصادياً فان من الجوهري أن يكون المناخ السياسي حسناً .

« ان العناصر الأجنبية صغيرة ، وعلى العموم فهي عنصر ازعاج سياسي . . . وهي ستقوي الميل السياسي ضد الايطاليين ، ربما بدعم الدعاوى المحلية الأكثر تطرفاً » .

لقد نجح الاريتريون في تمرير رسالتهم ، ولكن ذلك أمر مختلف عن النجاح في أن يُنْجَز شيءٌ. ولم يمضِ وقت طويل حتى كان الاحباط الذي يشعر به عمال اريتريا ملحوظاً :

« انهم يشكون من أننا حافظنا على سمعة البيض ومن أن الأشياء ليست أفضل من السابق . انهم يدعون اننا خدعناهم بوعودنا ونبدو كما لو أننا نسينا كم كانوا شجعاناً في مقاتلتهم الايطاليين في كيرين وغيرها عندما جئنا لتحريرهم .

« في مصوّع ، وخاصة حيث كان الايطاليون عالة على العمالة المحلية ، هناك استياء كبير عائد للبطالة وندرة الطعام . **والاضطراب متوقع من هذه الناحية ما لم يعمل شيء لتلك الفئة المهمة من أهل البلد** » . (التشديد لي) .

لقد لوحظ كم هو حيوي معرفة دور الطبقة العاملة الاريترية في ادراك نجاحات ـ وبعض حالات الفشل كما يمكن أن يستنتج المؤرخون يوماً ما ـ الأمة الاريترية الحديثة . ولكن لنستخدم المنهج الذي أيّده نكروما ونذهب الى « كتابات الأريتريين أنفسهم » .

في سياق « الثورة الافريقية » ، أظهر أصحاب الرأي في اريتريا مستوى متقدماً جداً من الوعي السياسي بالمقارنة مع ما هو بين العمال الافريقيين الجنوبيين أو المصريين اذا أضفنا شمال افريقيا (!؟) . وبشكل بارز ، فان نداءً أريترياً مؤرخاً في ١٢ كانون الأول ١٩٤١ للبريطانيين يندّد بالايطاليين على ادعائهم الاستعماري النموذجي بأن البلاد كانت من دون تاريخ وعلى رفضهم « توحيد القبائل » . وأكد النداء أن الايطاليين « كانوا يحتاجون للأريتريين كجنود فقط . . (ولكن) لتحرير الشعب الاريتري كان ضرورياً الاتيان بالاريتريين إلى الحكومة » .

وفي ٢٦ شباط ١٩٤٢ ، أصبحت النبرة أكثر حسماً :

« ان الشعب في اريتريا لا يحسّن وضعه . . . ربما لن يعترف العرق الأبيض بالزنجي أبداً ، ولكنه سيعامله دائماً بالطريقة التي يرغب بها الايطاليون البيض . .

« لقد فعل الأريتريون كل ما هو ممكن لافهام الايطاليين أنهم ردوا على التهديد بالتمرد . لقد قاتلوا ضدهم وقدموا دعمهم للبريطانيين قائلين : تحية وتحية لانكلترا .

« ومن المؤكد أن تضامن الشعب الأسود سيوجّد الاريتريين الذين ثاروا فعلاً ضد الحاكم الأجنبي . إذ أنه عندما قتل أريتري على يد نقيب ايطالي من الدرك حكم على الايطالي بالسجن لتسعة شهور بينما بعد ذلك مباشرة وعندما قتل ايطالي مسنّ في حماسين اعدم اربعة أو خمسة أريتريين انتقاماً لموته .

« نتيجة لذلك تزداد جرائم الايطاليين ضد الاريتريين يوماً بعد يوم . والضباط السياسيون البريطانيون متسامحون الى حد بعيد مع الايطاليين ويوقعون ضدهم عقوبات خفيفة ، الى حد السخافة ، على جرائم خطيرة .

« ان ما هو أكثر أهمية من معركة ، يقول الاريتريون ، سيكون في النهاية الخروج على النظام وثورات العرق الأسود ضد العرق الأبيض ، التي ستنمو بكثافة وتؤدي الى نتائج سياسية .

« ان هناك حاجة لدراسة التحريض للنزعة الافريقية (Pan African) والذي يستهدف تقريباً بدء حرب عموم غير البيض . (وعلى مدى عامين ، قبلاً ، عقدت رابطة الشعب الملون ضد الاضطهاد والامبريالية مؤتمراً لها) . مثل هذا العمل ينبغي أن يماثل دعاية النزعة الآسيوية » .

عند هذه النقطة ، يقوم الكاتب متحرراً من الوهم بتقديم عبارات متحررة من الشكل التقليدي عن امكانية التحرر الحقيقي على أيدي اليابانيين :

« كان الصديق الوحيد للعناصر السوداء هو انكلترا ، ولكن حتى الانكليز يفضلون الايطاليين . ماذا يبقى اذن ؟ اليابانيون .

« . . . تعوّد الاريتريون على الايمان بالانكليز . عندما لم يكونوا قد عرفوهم أو رأوهم كانوا يحبونهم . ولكنهم الأن ، وقد رأوا أساليبهم ، فان العديد من الاريتريين قد فقدوا الايمان بالانكليز » .

هل كان ذلك ليختلف بكثير عن اكتشافات لورد بيرس في زيمبابوي بعد ثلاثين عاماً ؟ إلا أنني ألححت أيضاً على تفحص ومقارنة المصادر . ماذا كان البريطانيون يقولون ؟ ان تقريراً مغروراً مؤرخاً في نيسان ١٩٤٣ يقول :

« سلوك السكان الأصليين ما يزال جيداً . الأسعار مرتفعة ، ولكن في متناول معظم أهل المدن ، بالرغم من أنه في الريف يوجد القليل من المشترين بالسعر الحالي للسلع التي تختزنها الادارة.

« في أسمرة يعمل حوالى ٢٠٠ عضو في ما يسمى « اللجنة الاريترية » على صيانة المصالح الاريترية ، باعتبار ذلك هدف اللجنة الأساسي . وبطلب من هذه اللجنة أقيم مجلس أريتري للتعبير عن رأي الأهالي . تأسيس هذا المجلس أوجد انطباعاً ايجابياً ، ولا توجد أية اشارات في الوقت الحاضر الى القومية الإريترية أو إلى المطالبة الابيسينية بتلك الأرض » .

تلك النقطة الأخيرة ملفتة. فبينما استبدل الأداريون العسكريون البريطانيون بمسؤولين سابقين من الادارة الاستعمارية ، إنخفض مستوى التفاهم . ولكن برغم ذلك عرفت على الأقل ، بعض المكائد التي نصبتها الحكومة في اديس أبابا :

« ان ابونا ماركوس مخادع غرضه الأساسي استغلال الوضع الحالي للأمور في اريتريا من أجل مصلحته . مكائده لم تلق تشجيعاً كبيراً على أيدينا ، ولذلك فهو يغازل حالياً كلاً من الايطاليين والامبراطور . **ان اية سياسة تحرّرية وحدوية ، ولو قليلة ، في اسمرة** (التشديد مني لكن هذا مهم) تنبثق من دون شك من بطانته ، وهو رجل تنبغي مراقبته والتعامل معه بعناية . وكشخص ذكي وعديم الضمير ، فانه يملك نفوذاً مهماً بين الفلاحين المؤمنين بالخرافات والخاضعين للكهنة » .

في الواقع ، وكما قيل سابقاً ، ذكر ان أبونا تعرض للتوبيخ في ٢٧ شباط (فبراير) ١٩٤٣ وأبلغ بأن يقصر نفسه على « الشؤون الدينية » .

لكن البريطانيين كانوا يفقدون الحسّ بالاشياء بطريقة ، كما يبدو لي ، عانوا منها دائماً عندما أصبحت القومية في المستعمرات قوة حقيقية . وكل من أتيحت له قراءة الارشيفات الاستعمارية يستطيع أن يفهم المثل الاستعماري القديم عن « حفنة فقط من المحرضين » . (الواقع انه استعماري جديد ايضاً ، إقرأ معظم التقارير عن الاضطرابات الطلابية في افريقيا المستقلة) . وتستشهد الآنسة بانكهورست ، التي أدت أبحاثها الى كشف التقارير الواردة اعلاه ، بتقرير للادارة البريطانية في منتصف نيسان (ابريل) ١٩٤٢ يصف القسم «المُسَيَّس» من مجموعة السكان بأنه « ضئيل جداً ويتكون أساساً من عدد من مستخدمي الحكومة السابقين والناقمين ، قلة من كبار التجار ، وعدد ضئيل من الكهنة الأقباط » . ويقول التقرير ان الغالبية الساحقة من الشعب كانت « تهتم فقط بالمسألة غير السهلة اطلاقاً لكيفية كسب الخبز اليومي » . وذلك كله يعيد الى الذاكرة ، مثلاً ، بيانات وقحة شبيهة بتلك التي نشرتها الهيئة الادارية لتنجانيقا ضد جوليوس نيريري وتانو بعد زيارة الأخير الى الولايات المتحدة الأميركية في العام ١٩٥٨ ، والتي نفت ان يكونا بأي حال ممثلين لشعبيهما .

وإذا فحصت بعناية كتابات حتى أشدّ المؤيدين من الأجانب للاتحاد مع أثيوبيا ، يمكن العثور على ما يوضح التحفظات الاريترية على تلك المسألة . وتصف سيلفيا بانكهورست زيارة قام بها العميد لونغريغ الى ادي كاي حيث :

« دعا ممثلي الشعب معاً وطلب منهم التعبير عن آرائهم حول مستقبل اريتريا واعداً بايصال آرائهم الى لندن . وقد تردّد الرؤساء في التعبير عن رغبتهم الحقيقية . . . (ذلك هو الواقع وما يأتي بعد ذلك هو التفسير) التي كانت العودة للاتحاد مع أثيوبيا . ولقد خشوا من أن تكون اجابتهم الصادقة مدعاة لغضب العميد الذي كانت معارضته لقضية الاتحاد قد انكشفت سابقاً . »

(وقد كشفت بعد ذلك حقائق أخرى:)

« . . لقد قرر رؤساء ادي كايه الإجابة بحذر وشفهياً في ذلك الوقت ثم كتابياً بعد ذلك . أكدوا أنهم لا يمثلون إلا جزءاً صغيراً من اريتريا ، ولذلك فهم لا يستطيعون الردّ على سؤال بهذه الأهمية من دون التشاور مع الأقاليم الأخرى . وقاموا بعد ذلك بابلاغ رؤساء اسمرة بما قاله العميد لونغريغ كما اطلعوهم على اجابتهم الكتابية له . وهكذا قرر رؤساء أسمرة ان يقوموا بعمل رداً على اقتراح لونغريغ . ولأن الاجتماعات كانت ممنوعة بموجب الأمر البريطاني بحظر اجتماع اكثر من ثلاثة اشخاص ، فقد قرروا اللقاء في مجموعات صغيرة في بيوت متعددة لمناقشة المستقبل وعقد استفتاء بهذه الطريقة يتمكن الجميع بواسطته من التصويت بما يرون أنه الأفضل »*

ان التدقيق في ما ورد سابقاً يكشف ان أولئك الرؤساء الأريتريين كانوا مؤمنين ثابتين بالمبدأ الديموقراطي وانهم أظهروا بكل تأكيد مستوىً رفيعاً من الوعي السياسي ، كما أنهم ، في الواقع ، لم يقفوا مع « الاتحاد » أو الاتحاد الفدرالي .

دور الأمم المتحدة

وفي الوقت نفسه ، لم تكن تطلعات القادة الطبيعيين للشعب هي التي ادخلت اريتريا في النصف الثاني من القرن العشرين ، وانما قرار اتخذته الجمعية العامة للأمم المتحدة لأن الدول الكبرى لم تستطع الاتفاق . كما لم تكن مواقفهم الفردية في الواقع ، ثابتة ، أبداً . فقد اعتبروا مستعمرات ايطاليا السابقة مجرد بيادق في دبلوماسية أوسع . والاتحاد السوفياتي ، على سبيل المثال ، أيد في البدء عودة المستعمرات الايطالية السابقة اليها ، إلا أنه بعد هزيمة الحزب الشيوعي في الانتخابات الايطالية العامة في نيسان (ابريل) ١٩٤٨ عكس موقفه بشكل كامل ، ولم يكن وحده في مثل تلك « التعديلات » . ولم ترَ الكتلة الشيوعية في وجهها المتقلب أي عدم ثبات . فقد قال مندوب أوكرانيا ان حكومته « كانت تأمل في أن توضع المستعمرات الايطالية السابقة بادارة ايطاليا ديموقراطية متحررة من الفاشية » ، وان الحكومة الحالية في ايطاليا ، في كل حال « وضعت ذلك البلد ، مقيد اليدين والقدمين ، بين أيدي الرأسماليين » . وأضاف أن حكومته لذلك « أدركت استحالة السماح لايطاليا بادارة أي من مستعمراتها السابقة » .

* الاقتباس من كتاب س . بانكهورست اثيوبيا واريتريا - (لندن - ١٩٥٣)- باسّيم Passim .

أما الضغوط السياسية على الدولة المديرة ـ الحكومة البريطانية ـ فكانت متعددة ومتباينة . ومثلاً ، فان [صحيفة] « **الناطق الكاثوليكي** » كانت تحث على اعادة مستعمرات ايطاليا السابقة اليها بينما كان جوموكينياتا وغيره ، وكذلك سيلفيا بانكهورست عبر صحيفتي «New Times» و «Ethiopia News» يقاتلون من أجل المحافظة على مطالب اثيوبيا أمام الرأي العام . في الوقت نفسه لم يجر استفتاء عام في اريتريا ، والأكثر أهمية في المحصلة كان الدبلوماسية السرية . وأصبح واضحاً الآن ، من تحقيقات مجلس الشيوخ ومجريات المحكمة الثورية الأثيوبية وكتابات بعض المعنيين ان الولايات المتحدة دخلت في اتفاقات مع الامبراطور هيلاسيلاسي كانت مشروطة بأولويات أخرى ولكنها أثبتت كارثيتها بالنسبة لقضية الحرية والاستقلال الاريتريين . وفي الواقع فان كل مظاهر النضالات الدولية التي سبقت منح ايطاليا ، في العام ١٩٤٩ ، وصاية من الأمم المتحدة لمدة عشرة أعوام على مستعمرتها السابقة في الصومال ، وبرغم الاعتراض الأثيوبي ـ الذي كان للغرابة يستشهد بمبدأ تقرير المصير ـ على الاتحاد الفدرالي لاريتريا مع أثيوبيا في العام ١٩٥٢ كانت كلها مطولة ومعقدة .

وكل ما لديّ لعمله هنا ، هو ملاحظة انه بعد أحد عشر عاماً من الادارة البريطانية ، والضغط السياسي المتصاعد داخل اريتريا وخارجها ، قررت الجمعية العامة للأمم المتحدة في ٢ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٠ وبأكثرية ٤٦ صوتاً ضد ١٠ ان اريتريا ينبغي أن « تشكل وحدة ذاتية الحكم متحدة مع أثيوبيا تحت سيادة التاج الأثيوبي » . أما المساهمة التالية فهي فهم القصة وتحليل النتيجة المأساوية وفشل ليس اثيوبيا وحدها بل المجتمع الدولي كله في الوفاء بالالتزامات المقدمة فعلاً .

بيركيت هابتي سيلاسي

من الحكم البريطاني الى الاتحاد والضم

خلفية تاريخية

ان تاريخ اريتريا أطول بكثير وأعقد من أن يلخص هنا ، ولكن الصورة الاساسية يمكن تتبعها في حدود الطروحات الدائبة التي ميزته . وفي البداية ، فان الأرض التي تعرف باريتريا اليوم كانت هدف موجات متعددة من المغامرات الاستَعمارية على امتداد حوالى ثلاثة آلاف عام .

وأريتريا اليوم ذات مساحة تقرب من ١١٩ ألف كيلومتر مربع وسكان يربون على الثلاثة ملايين . تمتد هذه الأرض حوالى ٨٠٠ كلم على ساحل البحر الأحمر ـ أطول حدودها ـ ويحدها من الشمال والغرب السودان ومن الجنوب اثيوبيا وجيبوتي . وتضاريسها مزيج من المرتفعات الجبلية في الوسط والشمال ، مع جرف يهبط الى سهول برقة الغربية ذات التربة الغنية ، ومنطقة عكار الشرقية القاحلة التي توفر القليل [فقط] من اسباب الرزق أو التجارة .

بعض المستعمرين الاوائل جاؤوا كمستوطنين مسالمين هاجروا من وراء البحر الأحمر واحتلوا المناطق الساحلية أولاً ثم انتقلوا تدريجياً الى المرتفعات حيث وجدوا المناخ اكثر مضيافية لهم . اما الآخرون فقد جاؤ وا كغزاة ، والجميع ، في النهاية ، ذابوا في الشعب الحاميّ (نسبة الى حام بن نوح) الاكثر عدداً والذي استفاد ، برغم كل شيء ، من الكفاءات التكنولوجية العالية للمهاجرين ، وقد مزّقت تحركات السكان من الشمال ، وبالذات شعب بيجا ، والحروب والقضايا الأخرى التطور السلمي للمقيمين المتوطنين قبل ذلك .

هذه المجريات التاريخية المبكرة انتجت مزائج ثقافية وعرقية مما ادى الى قيام

مجموعات وطنية ذات سمات خلقية (فيزيونومية) وثقافية مميزة والتي تميز ، عَرَضاً ، سكان القرن الافريقي ككل . وتمثل تركة الحضارة الاكسومية والنوبية أغنى معالم تلك المجريات التاريخية . والارث الأكثر أهمية للحضارة الأكسومية هو أبجدية جيز . وكان الجزء الأكبر من أريتريا يشكل جزءاً من المنطقة الوسطى لامبراطورية اكسوم الى جانب مقاطعة تيغراي الشمالية الاثيوبية .

لقد ازدهرت اكسوم وتطورت من التجارة البحرية مع العالم الخارجي عبر ميناء ادوليس قرب مصوّع . وقام حكام اكسوم باخضاع شعوب مختلفة وضمها الى امبراطوريتهم التي امتدت جنوباً في أوجها ، حتى الطرف الشمالي لجبال سيمين جنوب تيغراي وشمالاً غرباً حتى النوبة في ما هو السودان اليوم . وقد جاء الهبوط في التجارة الخارجية تقريباً مع صعود الاسلام واحتلال ساحل البحر الأحمر من قبل القوات العربية في العام ٦٤٠ ميلادية . وكان النزاع السياسي الداخلي ومجيء البيجيين من الشمال سببين آخرين لزوال امبراطورية كانت في الواقع تتقلص في الحجم بسبب فقدان التجارة الخارجية . وفي النهاية فان المملكة الأكسومية ، التي كانت قد تحولت إلى المسيحية على يد المبشرين السوريين في القرن الرابع ، تحطمت في أواخر القرن التاسع الميلادي(١) .

خلال القرون التي تلت تحطم الامبراطورية الاكسومية قامت دول عدة وزالت حول منطقة اكسوم . كما يجب ملاحظة ان اثيوبيا اليوم ، التي انشأها التوسع الامبراطوري من قبل مينيليك في ثمانينات وتسعينات القرن التاسع عشر ، لا توازي المملكة الاكسومية القديمة على عكس ادعاء بعض الاثيوبيين .

لقد شكلت اجزاء من اثيوبيا الشمالية (تيغراي اليوم) الهضبة الاريترية المرتفعة قلب الدولة الأكسومية . وبالمثل فان اجزاء من اريتريا الغربية كانت عرضة للغزو والاجتياح من الأمم المجاورة على امتداد التاريخ . والعكس من ذلك صحيح ايضاً ، اذ أن بعض المجموعات العرقية الاريترية الشمالية الغربية عبرت الحدود الى السودان .

ومن المعروف ، مثلاً ، انه بعد تحطم اكسوم اجتاح شعب البيجا اريتريا واقام سلطته على المرتفعات الاريترية حتى نهاية القرن الثالث عشر(٢) . ويمثل ذلك فترة أربعة قرون بعد سقوط اكسوم لم يحكم فيها اي ملك أبيسيني (٣) اي جزء من اريتريا . والواقع انه لم يكن هناك اي حكم (ابيسيني) حتى الى ما بعد القرن الخامس عشر حيث تكشف السجلات التاريخية غزوات ابيسنية متقطعة وحكماً ضعيفاً على اجزاء من اريتريا

التي بدأت تحمل آنذاك اسم مدري بهري(ارض البحر) . ولم يقبل شعب مدري بهري ـ واساساً المناطق المرتفعة ـ ابداً حكم ملوك ابيسينيا سواء كانوا ملوكاً أمهريين من غوندار اوتيغريين من تيغراي المجاورة . كانت هناك مقاومة متواصلة حتى في ذروة استعبادهم كما يشهد تمرّد فولد ميكايل في حماسين وباهتا هاغوس في اكيل غوزاي(٤) .

ان الأهمية الحاسمة للجغرافيا في تعريف الحدود الوطنية أو في فرض حدود على الغزوات تصبح واضحة عندما يحسب حساب الخط الفاصل الطبيعي الذي تشكله سلسلة جبال سيميان التي تصل شمالاً الى ادوا وكذلك وادي تيكيزي . هذه العوامل الجغرافية بالاضافة الى المسافة الزمنية بعد سقوط اكسوم تشرح المزايا القومية المحدّدة لشعب المرتفعات الأريترية وعناد مقاومته للمحاولات الأبيسينية من أجل حكمه .

وعلى الجبهة الغربية ايضاً يمكن جزئياً شرح تطورات مماثلة حسب هذه البنود . فبعد حلول مملكة الفونج (Funj) في السودان (١٥٠٤ ـ ١٨٢١) نرى خطاً فاصلاً تاريخياً بين السودان واريتريا . وقد لعبت الحافة الجبلية التي ترتفع بشكل حاد من السهول الشرقية للسودان دور مانع تاريخي لتوسع امبراطورية الفونج ، وأقامت ، بالتالي ، حدوداً وطنية مع اريتريا . وعلى كلتا الجبهتين ، اقام شعب المنطقة عندما لم يكن في حرب داخلية علاقات سلمية عبر بعض الممرات الجبلية الأساسية في التجارة والتعليم .

وقد أثر نهوض الاسلام ، وبعده الاتراك العثمانيون ، بشكل حاسم في تاريخ اريتريا تماماً كما فعل بالنسبة الى اجزاء أخرى من المنطقة . فالاتراك العثمانيون احتلوا المنطقة الساحلية في العام ١٥٥٧ وقطعوا بشكل فاعل مرتفعات الداخل عن العالم الخارجي . وفي مواجهة هذه الورطة اقامت مرتفعات اريتريا الوسطى والمناطق الأبيسينية الشمالية المجاورة روابط كانت في بعض الحالات لمنفعتها المشتركة ، وتميزت في معظم الحالات بنزوع أبيسيني للتوسع والسيطرة وبمقاومة اريترية . وقد لعبت الكنيسة الارثوذكسية في ابيسينيا والتي كانت خاضعة للكنيسة القبطية المصرية دوراً في محاولات تشكيل مملكة مسيحية متحدة ضد الحكم الاسلامي التركي .

في العام ١٨٧٢ ، وبعد اكثر من ثلاثمائة عام من السيطرة التركية على المنطقة . حاولت مصر تسلم السلطة كخليفة أقليمية للأتراك العثمانيين . إلا أن السيطرة التركية لم تكن قد توغلت في مرتفعات اريتريا ، ولكن المصريين حاولوا ، بتشجيع بريطاني ، عمل ما فشل الاتراك في عمله خلال ثلاثمائة عام . وبمساعدة بريطانية ، أمن المصريون

تحويل جميع الممتلكات التركية في اريتريا اليهم عبر معاهدة وقعت العام ١٨٧٥ . وقام المصريون ، مدفوعين بنجاح هذا الانقلاب الدبلوماسي ، بمغامرة عسكرية اثبتت انها كارثة وغالية بالنسبة اليهم . فقد هزموا في سلسلة معارك شرق مصوّع على ايدي الاريتريين وحلفائهم التيغريين .

لقد انبثقت الدوافع البريطانية لوضع مصر امام تلك المغامرة من رغبة بابقاء الفرنسيين خارج المنطقة . وكان افتتاح قناة السويس في العام ١٨٦٩ قد أثار اهتماماً استعمارياً اوروبياً بالمنطقة باعتبارها منطقة استراتيجية حيوية . وقد استعملت مصر دورها كشريك يافع في السيادة الانغلو ـ مصرية المشتركة على السودان لاقامة منطقة نفوذ خاصة بها . ولكن السيادة المشتركة واجهت تهديداً خطيراً بصعود المهدية في السودان وهو ما أدى الى سقوط تلك السيادة المشتركة وقيام الدولة المهدية التي استمرت حتى العام ١٨٩٨ . وبينما كانت الثورة المهدية تهز الهيمنة الانغلو ـ مصرية على السودان ، كانت اريتريا تسقط تحت الحكم الاستعماري الايطالي (٥) .

انّ شعور السقوط في الأحابيل والعزلة لدى الشعب الاريتري هو احد الأفكار الأساسية في تاريخه باعتبار أن القوى الاستعمارية المتتابعة طوّقت هذا الشعب واحتلت أرضه . وهنا بالذات يكمن الجذر العميق للقومية الأريترية . لقد أظهرت القومية الاريترية الحديثة نفسها ، بالطبع ، في اشكال عدة خلال الحكم الاستعماري الايطالي وبعده مباشرة . وهي تواصل عملها هذا ، الآن ، في شكل اكثر تنظيماً كما سنظهر في ما بعد . لكن لا يمكن أن نغالي في تأكيد ان القومية الأريترية ليست ظاهرة جديدة. فهي ، تاريخياً ، تمتد بجذورها الى النضال المشترك للشعب الاريتري ضد اشكال مختلفة من الحكم الاجنبي ، وهي النقطة التي لا يقدرها بما فيه الكفاية أو لا يريد أن يفهمها العديد من الاثيوبيين (حتى الاثيوبيين التقدميين) .

المخادعات الامبريالية وحركة المقاومة الوطنية

هناك قصة مثيرة وغير معروفة كثيراً تتعلق بالامة الاريترية الحديثة وهي تتعلق بالمكائد البريطانية في اربعينات القرن العشرين لتقسيم اريتريا وفق خطوط عرقية ـ دينية ، بحيث يضم القسم الغربي الى السودان الانغلو ـ مصري وتعطي المرتفعات والقسم الشرقي الى الامبراطور هيلاسيلاسي الذي كان يومها محمياً حديث التبني من قبل البريطانيين .

وهذه القصة مثيرة لاعتبارين . اولهما انها تكشف المحاولة الصفيقة لاستخدام

السياسات العرقية كأساس لتقرير مصير شعب من قبلْ دولة استعمارية مشهورة بانشاء حدود مصطنعة على امتداد امبراطورياتها الاستعمارية وبتجاهل طائش للامم والعائلات المقسمة . وثانيهما وهو الاكثر أهمية ، أن رد الشعب الأريتري كان سريعاً وحاسماً وغير مساوم في معارضة خطة التقسيم (٦) . كان ذلك أول مظهر دراماتيكي للمشاعر القومية الأريترية الموحدة في العصور الحديثة ونذيراً بمزيد من النضال في المستقبل . وفي السابق كانت مثل هذه التظاهرة الجماعية للمشاعر القومية قد قمعت على ايدي أنظمة الحكم الاستعماري المتوالية (٧) ، ولكنها بقيت حية وكمنت تحت المظهر الخارجي الهادىء للنظام الاستعماري القانوني .

الحكم البريطاني (١٩٤١ - ١٩٥٢)

حمل الحكم البريطاني معه آمالاً جديدة ، للشعب الأريتري . وقد استطاع البريطانيونْ الأقوياء والغاضبون الذين حلّوا مكان الايطاليين كأسياد استعماريين جدد أن يقيموا سلطتهم بسهولة . استطاعوا أن يفعلوا ذلك من دون مقاومة لأنهم كانوا موضع ترحيب باعتبارهم محرِّرين . وقد أعطي الشعب الأريتري تعهدات بانه ، إذا ساعد على هزيمة الايطاليين . سيتلقى مساعدة البريطانيين على ممارسة حقه في تقرير المصير (٨) . وحتى قبل بدء العداوات مع ايطاليا ، كان الاريتريون ينتظرون مساعدة من البريطانيين وبخاصة بعد صعود موسوليني الى السلطة . وكان بعض الأعضاء النافذين في طبقة المثقفين الاريتريين ، وبمعظمهم من متعلمي الارساليات ، يقيمون علاقات مع البريطانيين في السودان .

بعد انفجار العداوات ، قامت طائرات سلاح الجو الملكي البريطاني بإلقاء منشورات من الجو تعد اريتريا بالحرية ، وتحرك بالتالي التطلعات القومية المكبوتة من اجل تقرير المصير . وكانت تلك المنشورات بداية معتدلة لعملية تحريض سياسي اشتدت في وقت لاحق .

وعندما بدا واضحاً ان البريطانيين لن يفوا بتعهدهم ، بدأ التحريض السياسي يأخذ اشكالاً اكثر تنظيماً وعنفاً . وقد أصبح هذا التحريض السياسي ممكناً لأن البريطانيين سمحوا بقدر من الحرية والتجمع . كما أقام البريطانيون ايضاً خدمة صحافية واعلامية ناشطة كانت تنشر وتذيع ، بالانكليزية والتيغرانية والعربية . انباء عن تقدم الحرب في اوروبا والقضايا الأخرى . وهذان التطوران المتوازيان أنتجا عاملين

ومعلقين سياسيين بارزين كان قدر بعضهم أن يلعب ادواراً مهمة في النضال السياسي الوطني الأريتري .

الأكثر شهرة بين أولئك كان ولدي اب ولدي ماريام الذي كان العمود الذي يكتبه تعليقاً على مستقبل اريتريا مقروءاً بشكل واسع . وكل عدد من النشرة الصغيرة كان يستهلك بنهم ، يقرأ ويقرأ تكراراً ، يناقش ثم يناقش في المدن والقرى الكبيرة . وهذه العملية اثارت ، كما يفعل التيار الكهربائي ، رأياً سياسياً جماعياً خاصة في المراكز المدينية وساعدت على تنمية وعي الجماهير الأريترية . وتفسر هذه العملية جزئيا انتخاب ولدي اب رئيساً لاتحاد العمال الأريتريين الذي لعب دوراً حاسماً في المرحلة اللاحقة من النضال الأريتري .

وهكذا ، شهدت اعوام الحكم البريطاني لأريتريا انبثاق مجموعات سياسية منظمة مع وعي سياسي متصاعد بين الجماهير الأريترية . وكان لتشكيل المجموعات السياسية المختلفة اثر في أيضاح القضايا التي تحيط بوضع اريتريا الراهن ومستقبلها . وفي نهاية العام ١٩٤٥ تبلورت النزعات السياسية في « احزاب » سياسية : حزب الاستقلال الاريتري بقيادة ولدي اب ، الرابطة الاسلامية بقيادة ابراهيم سلطان ، والحزب الاتحادي بقيادة تيدلا بايرو . وكانت تلك هي التشكيلات الرئيسية .

والمكائد الخفية للقوى المعنية هي جزء لا يتجزأ من قصة تشكيل ومستقبل تلك الأحزاب ، وكذلك من سير حياة شخصياتها القيادية . لقد كانت الرشوة والارهاب بين الأساليب الأساسية التي استخدمت من قبل هذه القوى . كما أن حكومة هيلاسيلاسي استخدمت الكنيسة الارثوذكسية الاثيوبية كسلاح سياسي لتقسيم الأريتريين وفق خطوط دينية .

الا أن الوعي والمشاركة الجماهيريين لم يقفا عند حدود المراكز المدينية . فمدارس القرى كانت تنبت كالفطر ، بالاضافة الى مدارس المدن ، بموجب برنامج سريع نظمه ويديره مسؤول تعليمي بريطاني نشيط . وأدى ذلك ، بسرعة ايضاً ، الى ظهور جماعات من الشبان المتعلمين ساعدوا في نشر التربية السياسية من خلال القراءة اليومية لمقالات الصحف الى آبائهم . وبهذه الطريقة كانت الآراء والأفكار تنتقل بشكل فعال وكانت اسماء مثل ولدي أب تتردد في كل منزل مع المعاني التي تدافع عنها .

لا يمكن تحليل الانباء عن الاحداث السياسية المحلية خارج اطار الحقائق الدولية للعصر . وبعض الأحداث العالمية الاكثر صلة بالموضوع أوردت ونوقشت باعتبارها

جزءاً من النضال السياسي . ولذلك فان سرداً للاحداث الأساسية التي كانت تحيط بالمستعمرات الايطالية السابقة سيساعدنا على وضع المسرح السياسي المحلي في ذلك الوقت في منظوره التاريخي الأوسع .

فبعد انتهاء الحرب مباشرة عقدت الدول الحليفة مؤتمر باريس للسلام في حزيران (يونيو) ١٩٤٦ حيث تخلت ايطاليا رسمياً فيه عن جميع حقوقها في ليبيا ، اريتريا ، والصومال الايطالي . وقد نصت معاهدة باريس على أن التنظيم النهائي للأراضي الايطالية السابقة سيتقرر بالاتفاق بين فرنسا ، بريطانيا العظمى ، الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفياتي . وفي حال فشل « الأربعة الكبار » في الوصول الى اتفاق خلال عام فان الأمر سيحوّل الى الأمم المتحدة (٩) .

في تشرين الثاني ١٩٤٧ شكلت بعثة استقصاء مع صلاحية زيارة الأراضي الثلاث وتقديم تقرير عن الموقف السياسي . وقد قدمت البعثة تقريرها في ايار من العام ١٩٤٨ ولكن من دون ان يكون هناك أساس تستطيع الدول الأربع ان تتفق في اطاره . ولذلك وضع الأمر امام الأمم المتحدة في نيسان (ابريل) ١٩٤٩ . والى هذه الدورة (الثالثة) للأمم المتحدة قدمت خطة بيفن ـ سفورزا السيئة الصيت . وبحسب هذه الخطة كان يجب تقسيم ليبيا الى ثلاثة اجزاء يحكمها، تحت « وصاية »،البريطانيون والفرنسيون والايطاليون (جزء لكل دولة) ، وادارة الصومال الايطالي تحت وصاية ايطالية ، بينما يجري تقاسم اريتريا بين السودان وأثيوبيا وفق الخطوط المذكورة سابقاً . وقد انهار البرنامج كله وفشل مرة أخرى في توفير حل للاراضي الثلاث .

في الدورة الرابعة للأمم المتحدة اتخذ قرار بشأن مستقبل ليبيا والصومال الايطالي ـ منح ليبيا الاستقلال في كانون الثاني (يناير) ١٩٥٢ ووضع الصومال تحت وصاية ايطالية لمدة عشر سنوات يصبح بعدها مستقلاً (١٠) . وفشلت الأمم المتحدة في الوصول الى اتفاق حول اريتريا . ولذلك فقد قررت ارسال بعثة استقصاء ثانية مؤلفة من خمسة اعضاء : بورما ، غواتيمالا، النرويج ، باكستان وجنوب افريقيا .

عرضت البعثة نتائجها في ٢٨ حزيران (يونيو) ١٩٤٩ كما يأتي : أوصت الأغلبية المؤلفة من بورما ، النرويج ، وجنوب افريقيا باتحاد اريتريا مع اثيوبيا ، واقترحت بورما وجنوب افريقيا اتحاداً فيدرالياً مع اثيوبيا تحت السيادة الاثيوبية بينما أوصت النرويج باتحاد غير مشروط مع اثيوبيا . اما تقرير الأقلية المؤلفة من غواتيمالا وباكستان فقد أوصى بوضع اريتريا تحت وصاية الأمم المتحدة لعشر سنوات تصبح بعدها مستقلة .

وكلا تقريري الأغلبية والأقلية عارض التقسيم عاكسين بذلك بوضوح وبدقة المشاعر الاريترية .

هذه النقطة الأخيرة ربما تتضمن الأمر الوحيد الذي سُمعت فيه آراء الشعب الأريتري وتمثلت بوضوح ، بالرغم من المكائد البريطانية لجعل التقسيم حقيقة . وقد خضع تقرير الأغلبية لمثل هذه المخادعات والمعلومات المضلّلة عندما استنتج ، على سبيل المثال ، ان اريتريا غير قادرة على اقامة اقتصاد مجدٍ وهو العامل الذي اعتبرته ذا أهمية حاسمة في الوصول الى قرارها . ومثل هذا الاستنتاج الذي يتحدى الوقائع كان بتأثير آراء « القوة صاحبة الادارة » التي كانت تسيطر على الاحصاءات الاقتصادية وغير الاقتصادية لاريتريا . أما رأي البريطانيين فقد كشفته ملاحظات المندوب البريطاني الى الأمم المتحدة في المناقشة التي جرت في اللجنة السياسية الخاصة [المؤقتة] بهذه القضية .

كانت لدى بريطانيا ، كدولة مديرة ، كل الفعالية للتأثير على نتائج الاحداث حول المسألة الأريترية ؛ وبعد محاولات عدة للتقسيم ألقى البريطانيون بثقلهم في دعم الادعاء الاثيوبي بطلب من الولايات المتحدة الأميركية . كان الامبراطور هيلاسيلاسي قد بنى ادعاءاته حول أريتريا على اسباب اقتصادية وتاريخية لا أساس لها . وكانت الولايات المتحدة الأميركية التي انبثقت كقوة مسيطرة اقتصادياً وعسكرياً بعد الحرب العالمية الثانية قد بدأت التورط في الحرب الكورية . وعندما انفجرت الحرب الكورية في ٢٥ حزيران ١٩٥٠ كانت بريطانيا قوة امبريالية ضعيفة باقتصاد محلي منهك ودور دولي متناقص .

لقد جرت مناقشة التقرير المجزأ لبعثة الاستقصاء حول اريتريا في مناخ سياسي تسيطر عليه الحرب الكورية . ولذلك نظر الى المسألة الأريترية بمنظار جديد لدور امبريالي اميركي صاعد كان يحل بسرعة محل الدور البريطاني في مناطق عدة من العالم . وقد ادعى اكليلو هابتيوولد الذي كان وزير الشؤون الخارجية لاثيوبيا في ذلك الوقت ، بتبجّح منذ ذلك الحين ان دبلوماسية هيلاسيلاسي استغلت الحرب الباردة بربط مستقبل اثيوبيا ومصيرها الى جانب الدول الغربية بقيادة الولايات المتحدة وذلك في مقابل « صفقة » حول اريتريا (١١) .

وقد نفذ التزام اثيوبيا جانب الغرب في اكثر من طريقة واحدة . فأرسل هيلاسيلاسي كتيبة من حرسه الامبراطوري الحسن التدريب لتقاتل الى جانب الأميركيين في الحرب الكورية . والمثل الدراماتيكي الآخر للأدوار المتغيرة في اللعبة الامبراطورية وظهور الولايات المتحدة كقوة امبريالية صاعدة ، كان منح الولايات

المتحدة قاعدة كاغنيو للاتصالات قرب اسمره (١٢) . وقبل التسليم البريطاني لأريتريا في العام ١٩٥٢ ، وقعت الولايات المتحدة مع الامبراطور هيلاسيلاسي معاهدة دفاع متبادل سرية تستمر ٢٥ عاماً « تستأجر » فيها الولايات المتحدة قاعدة كاغنيو ويحصل هيلاسيلاسي على مساعدة عسكرية وغير عسكرية .

وقبل وقت من توقيع المعاهدة كان هيلاسيلاسي قد وضع نفسه بتصرف الولايات المتحدة التي ناورت بدورها بالأمم المتحدة لدفعها الى حل « فيدرالي » لاريتريا . وهذه هي خلفية القرار الرقم ٣٩٠ A (V) الذي اتخذته الأمم المتحدة في ٢ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٠ والذي يقترح اعلان اريتريا كوحدة ذات استقلال ذاتي تكون متحدة فيدرالياً مع اثيوبيا تحت سيادة التاج الاثيوبي . وكان واضحاً ان ذلك انتهاك لميثاق الأمم المتحدة ومناقض لرغبات الشعب الاريتري في تقرير المصير(١٣) .

من الفيدرالية الى الضم (١٩٥٢ - ١٩٦٢)

كان قرار الأمم المتحدة ينص على حكومة استقلال ذاتي اريترية ذات سلطات تشريعية وتنفيذية وقضائية في الشؤون المحلية ، الا أنه يضع قضايا الدفاع ، الشؤون الخارجية ، النقود ، المالية ، التجارة الخارجية وبين الولايات ، والمواصلات تحت السلطة « الفيدرالية » (أو الاثيوبية) . في الفترة المؤقتة بين كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٠ وايلول (سبتمبر) ١٩٥٢ كان يجب تعيين مفوض من الأمم المتحدة لتحضير مشروع دستور لاريتريا يقدمه الى جمعية تشريعية اريترية تدعوها للانعقاد السلطة البريطانية المديرة .

وتنبغي هنا ملاحظة أن الاتحاد السوفياتي ، الى جانب تسع دول اعضاء أخرى في الأمم المتحدة ، عارض الحل « الفيدرالي » واقترح بديلاً له الاستقلال الكامل لاريتريا وفق ميثاق الأمم المتحدة .

ومستهل القرار الذي أرسى التبرير المفترض هو خرق للعدالة . فهو يقول ضمن اشياء أخرى :

« آخذاً في الاعتبار (أ) رغبات ومصلحة سكان اريتريا ، بما فيها آراء مختلف المجموعات العرقية ، الدينية ، والسياسية لمقاطعات هذه الأراضي وقابلية هذا الشعب للحكم الذاتي ؛ (ب) مصالح السلام والأرض في شرق افريقيا ؛ (جـ) حقوق ومطالب اثيوبيا القائمة على اسباب جغرافية ، تاريخية ، عرقية او اقتصادية بما فيها خاصة الحاجة المشروعة لاثيوبيا ليكون لها ممر ملائم الى البحر . . . ورغبة في أن يضمن هذا الاتحاد

(اريتريا مع اثيوبيا) لسكان اريتريا **الاحترام الكامل ويصون مؤسساتهم ، تقاليدهم ، دياناتهم ولغاتهم** ، وكذلك أوسع قدر ممكن من الحكم الذاتي . . . » (التشديد لي) .

والتناقض في هذا الكلام القانوني المضلل واضح ، فكيف يمكن تأمين « مصالح السلام » عندما يجري انكار شرط أساسي مثل ممارسة حق تقرير المصير للشعب الذي انتحلت الأمم المتحدة لنفسها حقه ؟ كيف يمكن لمنبر دولي يأخذ في الاعتبار « رغبات ومصلحة سكان اريتريا » أن يصل الى قرار ينكر هذه الرغبات ؟ هل كان ضروريا ابتداع (أو تبني بدع أثيوبيا عن) « أسباب تاريخية » من أجل تقديم المصالح الاقتصادية لأثيوبيا ؟ هل أن حاجة أثيوبيا « المشروعة » لممرّ ملائم الى البحر كانت كافية وحدها كسبب لانكار حق الشعب الأريتري في تقرير مصيره ؟ فان أثيوبيا ، ليست الأمة الوحيدة التي تحتاج لممرّ الى البحر .

ان السبب الحقيقي ، بالطبع ، يكمن في موقع آخر وهو ليس بمنأى عن بلوغه . وقد كشفه بوضوح وزير الخارجية الأميركي يومها جون فوستر دالاس ، عندما تحدث امام مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة في العام ١٩٥٢ فقال :

« من وجهة نظر العدالة ، يجب اخذ آراء الشعب الاريتري بعين الاعتبار . إلا أن المصلحة الاستراتيجية للولايات المتحدة الأميركية في حوض البحر الأحمر واعتبارات الأمن والسلام العالمي تجعل من الضروري ربط ذلك البلد بحليفنا ، اثيوبيا »(١٤) .

والتعبير الذي استخدمه بيان دالاس مهم . فكلمة « إلا أن » التي تأتي بعد جملة تعترف بحق الشعب الاريتري ، تكشف بما لا يدع مجالاً للشك ان الولايات المتحدة (وبالتالي منظمة الأمم المتحدة) عرفت ان رغبات الشعب الاريتري كانت حاسمة في اتجاه الاستقلال . لقد كانت الرغبة القاطعة لشعب اريتريا في مواجهة المصالح الامبريالية الأميركية ومصالح حليفتها الجديدة .

ولذلك فرض على الشعب الاريتري شكل جديد من الحكم الاستعماري تحت ستار الفيدرالية . وأمضى مفوض الأمم المتحدة انزي ماتيينزو ، الذي كان مكلفاً بصياغة مشروع الدستور الاريتري . اسابيع عدة يتفاوض مع الامبراطور واعضاء حكومته حول بعض بنود مشروع الدستور . وكانت العقبة الاساسية هي واقع ان حكومة الامبراطور كانت حكومة شبه اقطاعية من دون أية مطامح ديموقراطية بينما كان الدستور الأريتري ذا تطلع بورجوازي ديموقراطي .

وكحل لهذا الشذوذ الدستوري ، أقترح انزي ماتيينزو ان تعيد اثيوبيا النظر في دستورها شبه الاقطاعي (لعام ١٩٣١) وتُعَصْرِنَهُ ببعض الزخارف الديموقراطية . وكان هذا أصل الدستور المعدّل لعام ١٩٥٥ . وينبغي أن يكون ضمير ماتيينزو الديموقراطي ، كما حدث فعلاً ، قد وخزه بشكل دائب من واقع معرفته بان اريتريا ، سياسياً ، كانت بلداً متطوراً اكثر بكثير من اثيوبيا ، وبأن مجتمعاً ديموقراطياً قد زف بالقوة الى اوتوقراطية اقطاعية في برنامج فيدرالي غير متوازن ذي شراكة غير متكافئة ومن دون حَكَم « حيادي » . وذلك الواقع ربما يشرح هذا المقطع المهم من تقريره النهائي الذي قال فيه :

« . . . ولا يعني ذلك أن الأمم المتحدة لن يكون لها حق بعد الآن في التعامل مع المسألة . فقرار الأمم المتحدة حول اريتريا سيبقى اداة دولية ، واذا تعرض للانتهاك ، فان الأمر سيستغرق الجمعية العامة (١٥) » .

وكما حدث ، فقد انتهك القرار فور وضع الاتحاد الفيدرالي موضع التنفيذ تقريباً . وملاحظات ماتيينزو الحذرة يمكن اعتبارها تنبؤية ، لولا انها جاءت من رجل كان يعرف نوايا ومُقاصد الحكومة الاثيوبية . فقد كان جواسيس الامبراطور ومخربوه يشنون حملات اتهام واعمال ارهاب ضد الشخصيات القيادية الاريترية في قلب الأرض الاريترية وبمعرفة بريطانية . وقد توفرت لماتيينزو فرصة لسماع توسلات الأريتريين المضطهدين واكتسب بذلك تصوراً واضحاً عن طموحات الامبراطور التي لا تقف عند حد .

على المستوى الدولي ، وخلال المناقشات النهائية للجمعية العامة قبل التصويت يوم ٢ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٠ ، وافق اكليلو هابتيوولد في النهاية وبعد أن عارض الحل الفيدرالي ، على القرار . الا أنه ألمح الى مثل هذه الطموحات عندما أعلن ان اثيوبيا تقبل الحل الفيدرالي فقط « بروح من المساومة » . ومنذ اللحظة الأولى بعد أن غادر البريطانيون بدأت حكومة الامبراطور بشكل واضح تعمد الى خرق الترتيبات الفيدرالية وضم اريتريا . وشرع ممثل الامبراطور ، بصورة منتظمة ، في تقويض مبادىء الدستور الأريتري ووضع الحكومة الأريترية تحت سيطرته .

كانت الحكومة الاريترية برئاسة تيدلا بايرو ، العضو القيادي في الحزب الاتحادي المؤيد لاثيوبيا . وكان على خلاف مع اندارغاشيو ممثل الامبراطور في الأعوام الأولى للاتحاد . وقد بذل تيدلا بعض الجهود لمقاومة تجاوزات اندار غاشيو على سلطاته المحلية سواء في النطاق السياسي أو الاقتصادي . وقد جرى في النهاية حل الدراما الواضحة

التناقض لرئيس تنفيذي منتخب ديموقراطياً ويتعدّى عليه ممثل اوتوقراطية اقطاعية ، عن طريق استقالة تيدلا ثم استقالة رئيس الجمعية التشريعية (١٦) . وحتى خلال خسارة المعركة سياسياً ، واصل المدعي العام الأريتري (وهو بريطاني الجنسية) معارك قانونية يائسة في « المحاكم الاتحادية » في محاولة للحد من التجاوزات .

في هذا الوقت أحلّ اندار غاشيو اتحادياً موثوقاً وعاملاً مخلصاً في السابق للحكام الاستعماريين الايطاليين هو أصفها ، مكان تيدلا . وقد بدأ أصفها عمله بتفكيك ما كان باقياً من المؤسسات المستقلة ذاتياً لأريتريا عن طريق تعيين أتباع اتحاديين في مواقع رئيسية في الادارة كلها . ووضعت الجمعية التشريعية تحت سيطرة اتحادي آخر هو ديمتروس الأكليركي الارثوذكسي ذي النزعات الراسبوتينية . وقام أصفها مع ديمتروس ، بتوجيه من اندارغاشيو وبالواسطة النشيطة لقوة الشرطة بارهاب منتظم ضد الشعب لاخضاعه او فرض اذعانه . وقد استخدم قانوناً للتوقيف الوقائي كان تيدلا قد سنّه بكل قسوة وبشكل واسع .

في الوقت نفسه دخل اندارغاشيو في مشاريع مشتركة عديدة مع رجال أعمال أجانب ومحليين ، ورأس بذلك قيام بورجوازية جديدة سعت وراء الثروة من دون رحمة وضمنت السيطرة على المؤسسات الاقتصادية الحيوية في اريتريا . وشكلت هذه البورجوازية الصغيرة ولكن القوية في الوقت نفسه نواة كوكبة أوسع من المتعاونين الذين اغرتهم هبات صغيرة من المناصب الحكومية والمنح في الأرض أو الأجور ، وكل ذلك بمباركة الامبراطور .

كان دور ممثل الأمبراطور في حدود الترتيبات الفيدرالية دوراً رمزياً في الأساس ، لإعلان التشريعات وتلاوة الخطب او الرسائل الامبراطورية . والسلطة القانونية الملموسة الوحيدة التي كان يملكها هي حقه في اعادة التشريع الذي يعتبره تعدياً على السلطة الفيدرالية (الاثيوبية) الى الجمعية الأريترية . لكن اندارغاشيو رأى دوره اكبر من ذلك بكثير ، ودعمه الامبراطور تماماً في محاولاته كلها لتحطيم ارادة اريتريا الوطنية وخرق بنود قرار الأمم المتحدة . وقد كشف اندارغاشيو النوايا الامبراطورية بشكل علني في خطاب ألقاه في الجمعية الأريترية يوم ٢٢ آذار ١٩٥٥ وقال فيه :

« ليست هناك شؤون داخلية أو خارجية في ما يتصل بمكتب ممثل جلالته الامبراطورية ، كما لن يكون هناك شيء من ذلك في المستقبل . وشؤون ارتيريا تعني اثيوبيا ككل والامبراطور خاصة » .

جاءت استقالة تيدلا بعد أربعة شهور من ذلك التصريح وقد زج بالمنتقدين وقادة المعارضة السياسية الآخرين كلهم في السجن او ارسلوا الى المنفى . كان المسرح جاهزاً لتوجيه رصاصة الرحمة الأخيرة للانتهاء من الاتحاد ، لكن الامبراطور قرر تأجيل ذلك وكسب الوقت في مواجهة الاحتجاجات الجماهيرية المتصاعدة التي كان رأس حربتها الطلاب والعمال والمثقفون .

كانت الجماهير الأريترية تعاني متاعب اقتصادية واجتماعية قاسية . فقد اقفلت حكومة الامبراطور صناعات متعددة ونقلتها الى أديس أبابا عن طريق اعطاء تعليمات لأصحابها (الاجانب) تحت طائلة المصادرة والطرد من البلاد . وكان الهدف مزدوجاً : اضعاف اريتريا اقتصادياً واستطراداً اثبات عدم قابلية الحياة لاقتصادها ، وثانياً توجيه ضـربة للقوة العاملة الأريترية التي كانت قوة سياسية وطنية منظمة وفاعلة . وأدت هذه الاجراءات بعدة ألوف من الاريتريين للخروج من اريتريا بحثاً عن العمل في مكان آخر ولكنها لم تستطع كسر العمود الفقري لقوة العمل المنظمة . كما قد طمع الأمبراطور طويلاً بالقوة العاملة الأريترية الماهرة ، فاصبح لديه فائض منها .

الا أن رغبة الامبراطور لم تكن لتقتصر على اليد العاملة الماهرة بل شملت البحر والموارد المعدنية الغنية التي كان على معرفة بوجودها . وقد التقت مطامحه كلها مع المصالح الاستراتيجية الأميركية . ولذلك فلم يكن غريباً ان تسقط في آذان صمّاء النداءات والاحتجاجات التي وجهتها قيادة المعارضة الأريترية في المنفى الى الأمم المتحدة .

وفي أريتريا أدى الخرق المتواصل لحقوق الانسان الديموقراطية الى احتجاجات وتظاهرات جماهيرية متصاعدة . وكانت عمليات بث اذاعي خارجية من قبل بعض قادة المعارضة امثال ولدى آب عوناً للعملية الداخلية في البلاد . وقد بدأ ولدي آب ، بشكل خاص سلسلة اذاعات يومية من القاهرة حوالى نهاية العام ١٩٥٥ استمرت أشهر قليلة فقط وأثارت المشاعر الوطنية الملتهبة ـ أو لِنَقُل قطع الجمر ـ التي كانت مدفونة تحت رماد الارهاب والاكراه البوليسيين . من هنا بدأت الاحتجاجات تأخذ اشكالاً جماهيرية منظمة ، وعلى امتداد العام ١٩٥٦ قاطع الطلاب صفوفهم من وقت الى آخر ، وفي العام ١٩٥٧ نزلوا الى الشوارع بعد أن جرى اسقاط اللغتين التيغرينية والعربية كلغتين رسميتين واستبدالهما بالامهرية ، اللغة الرسمية الاثيوبية . ولم يكن هذا العمل انتهاكاً للنص الصريح لقرار الأمم المتحدة (١٧) فقط ، بل انه وضع عقبة مؤلمة في طريق

امكانات التعلم امام الأطفال الاريتريين وأعادهم سنوات الى الوراء . وقد انعكست تأثيرات ذلك بعد أعوام عدة في امتحانات الدخول الثانوية والجامعية مما سدّ طريق آلاف الاريتريين الى التعليم العالي . وعندما يتأثر الطلاب يتأثر كل انسان آخر . فقد أعاد الأطفال معهم الى منازلهم نضالية الشباب المظلوم وغذّى ذلك بدوره الشعور الوطني المتفاقم .

تلك هي الظروف التي وفرت خلفية للاذاعات المؤثرة التي كان يوجهها ولدى آب من القاهرة . وقد اضطر هيلاسيلاسي لعقد صفقة مع جمال عبد التاصر يدعمه فيها في تأميم قناة السويس العام ١٩٥٦ في مقابل وقف الاذاعات الموجهة من القاهرة ، ولكن الرسالة اعطيت بصوت عال وواضح وبلغة فهمها كل انسان ويستطيع تذكرها (١٨) .

وهكذا ولدت حركة التحرير الأريترية . لقد انشأتها الجماهير : الطلاب والعمال والمثقفون بشكل خاص ، وساعد قادة متفانون امثال ولدى آب في الهام وتوجيه مراحلها المبكرة . كان لها مركزان اساسيان : احدهما في المرتفعات ونواته في أسمرة ، والآخر في السفوح ويقدم له الأريتريون المنفيون الذي يعيشون في السودان مصدر الالهام . واستطاع المركزان انشاء وسائل اتصال متعددة بما فيها النشاطات الرياضية والشبابية الأخرى ولكنهما لم يكونا مرتبطين تنظيمياً . وكان اساتذة المدارس ، والطلاب ، ومثقفو البورجوازية الصغيرة الآخرون اضافة الى التجار مصادر التجنيد الاساسية . كان الضعف التنظيمي وفقدان البرنامج السياسي الواضح عقبتي الحركة الأساسيتين مما أدى في النهاية الى انهيارها ولكن ليس قبل تحضيرها الساحة للمرحلة التالية من النضال . وصيغتها في المرتفعات كانت تعرف في مرحلتها الأخيرة باسم « ماهبر شيوات » (لجنة السبعة) وهي منظمة خلايا سرية في المراكز المدينية (١٩) ، اما صيغتها في السفوح فكانت تعرف باسم حركة التحرير الأريترية او « الحركة » .

لقد تعرضت هذه الحركة لصعوبات كبيرة حالت دون أي نضال منتظم ضد سلطة ارهابية لدولة بوليسية . وقد ضرب عنق الحركة بعد غارات واعتقالات بوليسية جماعية تمت في مناسبات متعددة . كانت الحركة قد نقلت النضال الوطني في مرحلة الى الامام وأخلَت الدرب للبديل الوحيد المتروك ، أي النضال المسلح الطويل [الأمد] والشعبي الذي ينظم في الريف . ومن المهم ملاحظة أن النضال المسلح الأريتري بدأ بعد أن جرّب الشعب الأريتري اساليب المقاومة الممكنة الأخرى كلها وفشل فيها .

كان ترتيب الأمم المتحدة يوفر اليسير من الحقوق الديموقراطية وهو ما حاول الشعب

الأريتري أن يستفيد منه . ولكن ذلك كله لم ينفع . وكان الاضراب العام للنقابات العمالية الأريترية الذي نظم في العام ١٩٥٨ أحد اكثر التعابير دراماتيكية عن المقاومة عبر ممارسة مثل تلك الحقوق الديموقراطية . وقد جرى حظر النقابات رسمياً الا أنها واصلت العمل سراً . وكان الاضراب ، والتظاهرات التي رافقته ، البرهان القاطع على الارادة الوطنية الأريترية في مقاومة ضرب الحقوق الديموقراطية ومواصلة النضال . وفي تلك المواجهة أمر الرئيس التنفيذي أصفها شرطته باطلاق النار على المتظاهرين مما أدى الى سقوط حوالى ٥٠٠ بين قتيل وجريح . كانت تلك أول عملية اضراب وتظاهر عمالية تقابل بمثل هذا القدر من القمع في تاريخ افريقيا الحديث . وأدى هذا العمل الوحشي الى تغيير في شكل النضال الأريتري . وهكذا ، وبعد حوالى عامين اعلن النضال المسلح بولادة جبهة التحرير الأريترية في ايلول (سبتمبر) ١٩٦١ .

بعد اكثر من عام بقليل، اي في ١٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٢، ضم هيلاسيلاسي اريتريا بدعم ضمني من الولايات المتحدة . ولم تسمع اية همسة في الأمم المتحدة . وليست هناك حاجة لنشغل أنفسنا هنا بتفاصيل كيف مهّد هيلاسيلاسي الأرض للفعل القانوني النهائي لالغاء الاتحاد الفيدرالي . بل يكفي القول انه بعد أعوام من الارهاب والاكراه بالتهديد اجبر أعضاء الجمعية الأريترية على قبول خطاب من العرش بحل الاتحاد . وقد طوّق مبنى الجمعية بوحدات من القوات المسلحة والشرطة الاثيوبية ، وبعضها ادخل الى المبنى عند « التصويت » بمدافعه الرشاشة . وبعض الأعضاء الذين تجرأوا على الاحتجاج والانسحاب اعتقلوا وضربوا . وكان دور رئيس الشرطة الأريترية في هذا العمل مهماً جداً . فقد منح اولاً تقديراً لخدماته ساعة الامبراطور الذهبية ومسدساً خاصاً ، ثم في وقت لاحق موتاً لم يجد تفسيره حتى الآن ووصفه اعلام هيلاسيلاسي بانه انتحار . والحقيقة انه أدرك في وقت متأخر جداً الجريمة التي اقترفها ضد شعبه .

بعد ازالة العقبات الرسمية ، لجأ نظام الامبراطور الاقطاعي الى استبدال القوانين والمؤسسات الأريترية بقوانينه ومؤسساته شبه الأقطاعية والتي كانت غريبة عن الشعب الأريتري . ولم يكن حتى الحكام الاستعماريون الايطاليون قد تجرأوا على ضرب جذور القوانين والعادات المحلية . ولدعم هذا الانتهاك السريع زيد عدد جيش الاحتلال الاثيوبي ونشر في البلاد بمساعدة أميركية واسرائيلية . وهكذا لم يترك للشعب الأريتري أي خيار سوى اللجوء الى النضال المسلح .

وقد عرف تريفاسكيس ، الذي كان سكرتيراً سياسياً للادارة البريطانية في اريتريا ، بمطامع اثيوبيا . فكتب في كتابه العام ١٩٦٠ .

« ان اغراء وضع اريتريا تحت سيطرتها التامة سيبقى دائماً كبيراً . ولو أنها حاولت أن تفعل ذلك فانها ستخاطر بمواجهة سخط اريتري ، وبالتالي ثورة ربما تؤدي بعطف ودعم خارجيين الى تمزيق كل من اريتريا و أثيوبيا نفسها (٢٠) » .

الخاتمة

اظهرت المناقشة السابقة ان هيلاسيلاسي بدأ تنفيذ خططه التوسعية قبل وقت طويل من الالغاء النهائي غير الشرعي للاتحاد الفيدرالي في ١٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٢ . ويجب أن ينظر الى حركة التحرير الأريترية كتعبير عن المقاومة الأريترية ، التي ظهرت بوضوح في وجوه عدة من الحياة الأريترية وجزئياً للرد على مثل هذه المطامع التوسعية ، ويرسم اعلان النضال المسلح في العام ١٩٦١ مرحلة حاسمة في تلك المقاومة برغم أنه يمثل تغيراً في أشكال النضال القديمة .

يقال ان الحرب هي استمرار للسياسة بأساليب اخرى . وقد شكل اعلان حرب التحرير الأريترية بانشاء جبهة التحرير الاريترية في ايلول (سبتمبر)العام ١٩٦١ ابلاغاً للمجتمع الدولي القاسي القلب بأن الشعب الأريتري قد أجبر على خوض نضاله السياسي بالأسلوب الأصعب . لقد أجبر على هذا السلوك بعد أن مرّ انتهاك قرار الأمم المتحدة من دون عقاب ، وحتى من دون ملاحظة ، وبعد أن استنفدت وسائل الاحتجاج السلمية كلها على مدى سنوات عدة .

وتاريخياً ، اذن ، نرى ثلاث مراحل مهمة في النضال الأريتري الحديث تميز كلاً منها اشكال مختلفة . اولاً ، كان هناك النضال السياسي العلني الذي خاضته مجموعات مختلفة خلال فترة الحكم البريطاني . وثانياً ، كانت هناك الحركة السرية التي بلغت ذروتها في تشكيل حركة التحرير الأريترية . وثالثاً ، جاء النضال المسلح .

بموجب القانون الدولي ، شكل انتهاك هيلاسيلاسي لقرار الأمم المتحدة من اللحظة الأولى عملاً غير شرعي كان ينبغي أن يؤدي بالجمعية العامة للأمم المتحدة لـ « استغراق القضية » كما كان قد نصح بذلك ماتينيزو . لكن النداءات المتكررة من الأريتريين الى الأمم المتحدة لم يسمعها أحد . وقانونياً ، أعطى انتهاك القرار ، كأداة دولية ، الشعب الاريتري حق استعمال اية وكل وسيلة متوفرة لبدء النضال ضد نظام أصبح بأعماله الخاصة نظاماً احتلالياً استعمارياً . وقد وضع الشعب الأريتري ،

للسبب نفسه ، في أمر واقع شبيه بموقف ما قبل العام ١٩٥٠ لشعب مستعمر يخوض نضالاً من اجل تقرير المصير والاستقلال من الحكم الاستعماري . ولهذا فان النضال الأريتري كان يتعلق بقضية استعمارية وليس بقضية انفصال .

وبموجب السياسات الدولية ، فان التحالف الأميركي مع هيلاسيلاسي الذي ناور الأمم المتحدة للتضحية بالشعب الأريتري على مذبح الألاعيب الامبريالية ادى الى تحويل اثيوبيا الآن الى اداة امبريالية . وقد دعم ذلك اتفاق دفاع متبادل وقع في العام ١٩٥٣ ، كما ذكرنا سابقاً ، وادى الى خلق علاقة تبعية عسكرية واقتصادية . وهكذا فان انتهاك هيلاسيلاسي لقرار الأمم المتحدة كان موضع دعم صامت من قبل الولايات المتحدة . وباختصار فان هيلاسيلاسي حوّل اثيوبيا الى مستعمرة جديدة وجعل من اريتريا مستعمرة للمستعمرة الجديدة . ولهذا أصبح النضال الأريتري فوراً نضالاً معادياً للاستعمار ومعادياً للامبريالية منذ العام ١٩٥٣ برغم انه لم يكن يوصف يومها بمثل تلك الكلمات .

ويجب أن ينظر الى نشوء وتقدم النضال المسلح ، بكل تناقضاته الداخلية ، في ضوء هذه الحقيقة وتشعباتها . وكانت احدى تشعبات تلك الحقيقة النزاع العربي ـ الاسرائيلي . فقد جعل التحالف الأميركي ـ الاسرائيلي مع اثيوبيا ، والروابط التاريخية والجغرافية لأريتريا مع العالم العربي ، ودعم القضية الأريترية من قبل بلدان عربية عدة ، النضال الاريتري نضالاً معادياً للصهيونية . وتوجز وثيقة مبكرة للجبهة الشعبية لتحرير اريتريا هذا الموضوع بالشكل التالي :

« ان اريتريا هي بلد افريقي ذو روابط وثيقة مع العالم العربي كما انه استراتيجياً يقع على الخاصرة الجنوبية الغربية للشرق الأوسط »(٢١) .

ومن دون استيعاب هذه الحقيقة السياسية ، بشكل شامل ، لا يمكن للمرء أن يفهم موقع الثورة الأريترية في النضال ضد الامبريالية العالمية .

فقد أثر العامل الاستراتيجي ، تاريخياً ، على السياسات الأريترية وفرض قيوداً على النضال من أجل حفظ او استعادة الاستقلال . وفي ذلك النضال الطويل كان هناك نوع من التبعية المتبادلة بين الاستقلال الذاتي والعزلة وتوقف احداهما على الأخرى . وعندما كان الحكم التركي ـ المصري أو الاستعمار الأوروبي هو التهديد الأساسي ، كان الأريتريون يسعون الى التحالف (وفي بعض الحالات الى اللجوء) مع جيرانهم الجنوبيين . وعندما كان التوسع الأثيوبي هو التهديد كان السعي للعون و/أو التحالف

في مكان آخر . وفي الحالة الأخيرة كان هذا ما حدث بعد أن أصبح الاحتلال الأثيوبي المدعوم من أميركا أمراً واقعاً في الخمسينات .

ان لكل نوع من التبعية ثمناً،وجزئياً فانه نتيجة للدروس التاريخية التي تعلمها الشعب الأريتري ، جعلت الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا الاعتماد على النفس حجر الزاوية في سياستها الاجتماعية والاقتصادية . واصدقاء الثورة الأريترية يعجبون ويبتهجون لمعجزة الاعتماد على النفس التي تشكل المشاغل السرية في الساحل نموذجاً لها . كما أنهم يرثون ايضاً ، كما نفعل كلنا ، للاستخدام الكثيف للأسلحة السوفياتية في دعم جيش غاز . والعالم كله ينظر مشدوهاً بينما يبدأ هذا المشهد الجديد لداوود وغوليات عامه الثاني . والعالم التقدمي في حاجة لابداء اهتمام جدي ، والرد بالأسلوب المناسب ، بالحرب في اريتريا لأن دولة اشتراكية استخدمت وللمرة الأولى في تاريخها رجالاً ومعدات ، فضلاً عن سمعتها ، في مواجهة ثورة ايدتها ذات يوم باعتبارها قضية عادلة .

المراجع

(١) انظر
e.g. J.S. Trimingham*Islam in Ethiopia*, (Oxford University Press: London, 1952; G. K. N Trevaskis, *Eritrea: a Colony in Transition,, 1941 1952* (Greenwood Press, Westport Connecticut, 1975): E. Ullendorf, *The Ethiopians* (Oxford University Press, London, 1973).

(٢) انظر J. s. Trimingham.*op. cit.* pp. 49-50.

(٣) تعبيرأبيسينيا يستخدم هنا لوصف حكام يمثلون مملكة امهرة التي ازدهرت اولاً في مرتفعات شوا ولاحقاً (بعد احمد غراني في مطلع القرن السادس عشر) في غوندار .

(٤) لتفاصيل النضال ضد حكم امهره انظر :
Almeida, *Some Records of Ethiopia. 1593-1646*, Series 2, Vol 107 (Haklyut Society), pp. 182-184.

(٥) حول علاقات مينيليك مع ايطاليا انظر : Carlo Rossetti,*Storia Diplomatica De-ll'Ethiopia* (Torina, 1910)

(٦) حول الاثار الاجتماعية والسياسية لهذه الأعمال انظر :
In Defence of the Eritrean Revolution, association of Eritrean Students in North America (New Yord. 1978), pp. 40-41.

(٧) انظر trevaskis *op.cit.*, p. 33. ؛ اضطر الطالب المحلي الى غناء اغانٍ حول مجد ايطاليا والى الشعور بالخجل حول تاريخه .هو. فاعتمد على التقليد الشفوي الذي نقله الكبار في قومه كي يحصل على احساس من الاعتزاز بتاريخه . الصفحة ٣٣ .

(٨) حوالى ٦٠ ألف اريتري ارسلوا الى ليبيا وحدها . انظر *In Defense of the Eritrean Revolution,* p. 41.

(٩) المادة ٣٣ من المعاهدة . انظر ايضاً الفقرة ٣ من الملحق ٢

(١٠) انظر القرار *A* IV 289 ، ٢٨٩ أ (٤)

(١١) بيان مكتوب قدمه الى بعثة استقصاء شكلت للتحقيق مع حكومة الامبراطور هيلاسيلاسي العام ١٩٧٤ .

(١٢) كاغنيو - كان اسم الكتيبة التي ارسلت للقتال في كوريا . كما انه كان ايضاً الاسم الحربي لراس ماكونين والد هيلاسيلاسي .

(١٣) انظر .Articles 1 and 55 of the *Charter*

(١٤) التقرير الدولي عن السوق (اثيوبيا - موجز - كانون الثاني (يناير) ١٩٧٧) نقلت عنه ليندا هايدن في مقالة .the Eritrean Struggle for Independence, *monthly Review* july-August 1978, p. 15

(١٥) مفوض الأمم المتحدة في اريتريا - التقرير النهائي ، الفصل الثاني ص ٢٠١ .

(١٦) وصف هذه العلاقة بالمعنى الدستوري البروفسور البريطاني في القانون الدستوري ايفور جنينغز في كتابه . *Approach to Independence* ، (Oxford University Press. London. 1956)

(١٧) مستهل مقدمة قرار الأمم المتحدة ، كما نسب اعلاه .

(١٨) ولدى اب هو استاذ سابق للغة التيغرانية ولا يضاهيه الا القليل سواء في الخطابة او الكتابة كانت هناك ايضاً اذاعات بالعربية قام بها آخرون .

(١٩) كانت للمؤلف علاقة مع حركة التحرير الاريترية في اديس ابابا .

(٢٠) تريفاسكيس . مصدر سابق .

(٢١) « الخليفة التاريخية للحرب الاهلية » بيان اصدرته الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا في ٤ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٢ . انظر « التحرير » المجلد ٢ العدد ٤ نيسان / ايار (ابريل / مايو) ١٩٧٣ .

القسم الثاني

طبيعة النضال التحرري

إن الانتصارات الواسعة لحركة التحرير الاريترية مكنت من الانتقال من حرب العصابات الى المواجهة المفتوحة والاستيلاء على معظم المدن . الا أن القوات الاثيوبية استطاعت كسر الطوق الذي كان مفروضاً على أسمره في نهاية العام ١٩٧٨ واستعادة عدة مدن . وقد ساعد على ذلك العون العسكري السوفياتي .

وتقرير كونيل المنشور ادناه ، والذي قدم الى الندوة ، هو تقييم شاهد عيان للمعارك الأساسية في تلك الفترة ولعودة الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا مجدداً الى تكتيكات العصابات . ويشكل ذلك الفصل الخامس من التقرير .

وفي فترة مطلع العام ١٩٧٩ ، ردّت الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا على الهجوم المتواصل ضدها ، وتجدر الاشارة الى ان الاثيوبيين برغم سلاحهم الثقيل ودعمهم من قبل السوفيات لم يكونوا قادرين على الدخول الى القواعد الأساسية للجبهة الشعبية . وما بعد ذلك هو رأي الجبهة بانها بالرغم من توقعها مدّاً وجزراً في المعركة فان نضالها سيستمر بالتأكيد .

السرد الثاني (الفصل السادس) يقدم تصوراً مختلفاً ، وهو حول المدن التي استولى عليها الاثيوبيون وعن الاضطهاد الذي جرى فيها . (المحررون) .

جيرارد شاليان

نضال العصابات

أظهرت الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا ، مع الايام ، قدرة على تأدية مهمتين تعبويتين حاسمتين بالنسبة لنمو أية حركة تحرر وطنية فاعلة : استطاعت بناء تنظيم قوي بقي متلاحماً ، كما أظهرت قدرة على توليد كادرات . وهذا النجاح في التعبئة يمثل انجازاً عظيماً .

وفي الواقع ، فقد انفقت أعوام على التعبئة في كل من المناطق الاسلامية والمسيحية . وحدث هذا العمل التحضيري الصلب بين العام ١٩٧٤ والعام ١٩٧٨ في اريتريا . وفوق ذلك ، فان تعبئة الشعب في كل من هذه المناطق لم تكن بقوة اطلاق الشعارات ، كما هي الحال في بعض البلدان الأخرى ، وانما بتغيير ظروف الحياة بشكل كامل .

الانجازات التنظيمية للجبهة الشعبية لتحرير اريتريا

كانت انتخابات المنظمات الجماهيرية في القرى ، منظمات النساء ، والشباب ومجموعات أخرى جزءاً رئيسياً من التعبئة وقد نجحت الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا ، في الواقع ، في تعبئة النساء بشكل خاص ، وجرى التشديد بصفة خاصة على اشتراك النساء في النضال . وفي صفوف الجبهة توجد نسبة كبيرة من النساء ـ ربما ٢٥٪ ـ وهي انجاز رائع في مثل تلك المجتمعات المحافظة جداً .

وقد تضمنت التعبئة مجموعات أخرى ، مثل الفتيان بين الـ ١٥ والـ ١٨ عاماً من العمر الذين نُظِّموا هم أيضاً . كما انشئت ميليشيا تضم كلاً من الرجال والنساء في المناطق المحررة . وأقيمت اطر شبيهه [بأطر] الدولة على مستوى القرية وفي الأقاليم

المحررة ، لتولي ادارة المدارس للكبار وكذلك للصغار ، اضافة الى العيادات الصحية والتسهيلات الأخرى . وتعمل هذه الأجهزة أيضاً مع البدو الرحّل لمكافحة مرض المواشي ، كما تقوم بتشغيل المخازن الشعبية حيث يأتي الناس ويشترون البضائع التي تفي باحتياجاتهم الأساسية بأسعار السوق . والتعاونيات تلبي حوالى ٦٠٪ من الطعام والحاجات الأخرى للمقاتلين .

وتحاول الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا ان تكون على اكتفاء ذاتي بقدر المستطاع . فمن المهم نفسياً عدم الاعتماد على مساعدة خارجية .

لقد تم ايضاً تطوير شبكة اتصالات فعالة جداً تعتبر ورش الشغل فيها فريدة في افريقيا . فهي تقوم باصلاح الشاحنات والاشغال المعدنية والنجارة والتوصيل ، والمنسوجات ، وتصليح اجهزة الراديو . والعمل اليدوي الماهر هو أساس كل هذه العمليات . وورش الشغل بدورها متحركة ايضاً .

من حرب العصابات الى الحرب الثورية

من بين منجزات الحركة ، أخيراً وليس آخراً ، انها حققت الى جانب بناء حركة تبقى مفتوحة عرقياً وليست لها نزعة دينية ، انتصاراً عسكرياً ملحوظاً في العام ١٩٧٧ والعام ١٩٧٨ . وفي الحقيقة فان انجازاتها العسكرية فريدة في افريقيا . والنضال المسلح له جذور عميقة بين السكان ، تضرب بعيداً حتى الريف . وعلى عكس معظم الحركات في افريقيا فليس لها قواعد خارج البلاد . وكان هناك تصور شعبي خاطىء في انها كانت وما تزال حرب عصابات بينما أخذت في الواقع شكل حرب ثورية .

يمكن وصف الفترة بين ١٩٧٥ و ١٩٧٧ ، وبشكل سليم ، بأنها فترة « حرب العصابات » . ولكن ذلك في الواقع توقف في العام ١٩٧٧ . وبين ١٩٧٧ و ١٩٧٨ تحولت الى « حرب ثورية » . هذا يعني أن الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا كانت في موقع الهجوم ، ولم تعد ببساطة مشتبكة في غارات على طريقة « اضرب واهرب » . وهويؤدي الى المرحلة الثالثة من « حرب الشعب » كما حددها كلاسيكياً ماوتسي تونغ في الصين وفونغوين جياب في فيتنام* . لقد وصلت حركات قليلة جدا الى هذه المرحلة

(*) هذه المراحل الثلاث توصف كلاسيكياً بأنها أ) مرحلة الدفاع الاستراتيجي التي تتميز بالحرب المتحركة واستراتيجية التراجع لاطالة خطوط مواصلات المعتدي مع بعض ضربات العصابات باسلوب اضرب واهرب ؛ب)مرحلة التحضير للهجوم المضاد حيث تصبح حرب العصابات واسعة الانتشار مع

الهجومية . والاكثر قرباً منها ، في افريقيا ، كان الجيش الشعبي لاستقلال غينيا بيساو وجزر الرأس الأخضر (PAIGC)بقيادة اميلكار كابرال في غينيا بيساو . ولكنها ، برغم نجاحها في انتزاع الكثير من اراضي الريف من السيطرة البرتغالية ، لم تكن تلك الحركة قادرة بسبب عوامل ديموغرافية أساساً على أخذ المدن . وفي هذا المجال فان النضال بقيادة الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا لم يكن ليجارى في افريقيا وأميركا اللاتينية وآسيا وذلك في ما عدا نضالات الشعب الصيني وشعوب الهند الصينية .

لقد شكّل الاستيلاء على كيرين ـ دون ذكر المدن والبلدات الأخرى ـ انتصاراً عظيماً . وعسكرياً تمكن مقارنته وبشكل ايجابي مع الحملة البريطانية لطرد الايطاليين من مرتفعات اريتريا واثيوبيا في الحرب العالمية الثانية . في نهاية ١٩٧٧ وبداية ١٩٧٨ وصلت قوات الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا الى ذروة هجومها . والطرق الرئيسية جميعها في البلاد كانت آنذاك تحت سيطرة الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا ، وكذلك المدن الرئيسية كلها في السهل وفي المرتفعات ما عدا اسمرة التي كانت محاصرة ومصوّع التي كانت تحت طوق هجومي . وكان تحت سيطرتها ايضاً معظم الريف ما عدا اقليمي دنكاليا وبرقه . وقد رافقت هذه الهجمات تعبئة جماهيرية واسعة كنا قد اشرنا اليها في وقت سابق .

المرحلة الراهنة

هذا الوضع تغير ، طبعاً ، بصورة دراماتيكية نتيجة لاشتراك الاتحاد السوفياتي وكوبا الى جانب نظام منغيستو في اثيوبيا . فبرامج التدريب الكوبية وتوفير مواد حربية ثقيلة للغاية اضافة الى الدعم العسكري من الاتحاد السوفياتي ، كل ذلك ساعد منغيستو على البقاء واستعادة العافية . وفي تشرين الاول وتشرين الثاني (اوكتوبر ونوفمبر) من العام ١٩٧٨ تغير ميزان القوى الاجمالي في اريتريا . فقد اجبرت الجبهةالشعبية لتحرير اريتريا على التخلي عن الهجوم وعن المدن والطرق الرئيسية . وعادت مرة ثانية الى حرب العصابات التي تشكل الآن منطقياً اسلوب القتال .

« هل تستطيع الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا ، في الواقع ، مواصلة القتال ؟ » هذا

ضربات ضد نقاط ضعف العدو وتعبئة الشعب ؛جـ)مرحلة الحرب الثورية القائمة على الهجوم المضاد حيث تقوم تكتيكات العصابات فقط على دعم هجمات المواقع ضد نقاط العدو القوية .

ما يسأله الجميع . انهم يرجعون الى المناطق الجبلية والى اساليب حرب العصابات الكلاسيكية .وباستعمالهم تلك الأساليب فانهم يستطيعون ان يبقوا ما دام السودان مفتوحاً لهم امدادياً . والحرب يمكن اذن ان تستمر لسنوات وسنوات والى أن يحدث تغير آخر في ميزان القوى . ومن الملحوظ انهم ما زالوا قادرين على المحافظة على مدينة نكفا في أيديهم بعد شهور عدة من الحصار الأثيوبي .

نظرات على النضال التحرري الاريتري

هناك تأرجح الى اليسار والى اليمين قبل الانطلاق نحو اوضاع معينة من فرضية ايديولوجية ثابتة . والموقف الأريتري ، يسبب ارتباكاً كبيراً . في الأمس ، عندما كان العالم يبدو بسيطاً ومستقيماً ، كان مما يدعو للاطمئنان أن نرى الولايات المتحدة تدعم الامبراطور هيلاسيلاسي في اثيوبيا الذي كان بدوره يقاتل ضد حركة تحرر مدعومة من قبل البلدان « التقدمية » أما اليوم فاننا نجد مثالاً عكسياً : نظاماً في اثيوبيا يدعي انه ماركسي ـ لينيني يقمع حركات التحرر في اريتريا والأوغادين ويسلك مسلكاً امبريالياً .

وفي الواقع فان مستويات ومراحل عدة ينبغي ادراكها للوصول الى التعاطي مع الموقف الجديد . في احد المستويات يجب فهم ان اثيوبيا وسعت امبراطوريتها في القرن التاسع عشر في عهد مينيليك الثاني . وكما في اريتريا ، فان شعب اوغادين يعارض استمرار الهيمنة الاثيوبية .

وعلى مستوى آخر ، جيو ـ سياسي وجيو ـ إستراتيجي ، فان قلب المشكلة هو السيطرة على البحر الأحمر . والاتحاد السوفياتي يرعى ، بالتأكيد ، طموحات جيو ـ سياسية وجيو ـ استراتيجية . وهو ، في المقابل ، يدّعي ان البحر الأحمر ربما يصبح « بحيرة » سعودية وعربية لو أن جبهة التحرير الأريترية (التي تتلقى مساعدة من تلك البلدان) فضلاً عن الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا ، كانت في المقدمة في أريتريا مستقلة . وكان ذلك موضع نقد من الاتحاد السوفياتي منذ أن حوّل دعمه من الصومال الى اثيوبيا التي لا تملك « صلة » بالعرب . واثيوبيا نفسها تريد ، بدورها ، ممراً الى البحر يمكن الوصول اليه فقط عن طريق التشبث باريتريا . وفي الحقيقة فان اثيوبيا ستكون ذات أهمية استراتيجية ضئيلة بالنسبة للاتحاد السوفياتي اذا كانت من دون اتصال بالبحر . وبايجاز فليس هناك مبرر ايديولوجي للموقف وانما مصلحة استراتيجيات جغرافية حكومية .

ويبقى مبدأ واحد في كل حال . فمهما احدثت دول تسمي نفسها « اشتراكية » من تغييرات في السياسة ، سيبقى الحق في تقرير المصير والحق في الحرية .وعلى هذه الفرضية نجد ان دعاوى الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا مشروعة بكاملها .

دان كونيل

الموقف المتغير في أريتريا

في عامه الثامن عشر يعتبر نضال اريتريا العنيد من أجل التحرر الوطني اطول ـ والى حد بعيد أوسع ـ نزاع مسلح في تاريخ افريقيا شبه الصحراوية . انه بين الأكثر تعقيداً سياسياً والأقل تغطية من قبل الإعلام . ومداه يتجاوز الحرب الكثيرة الدعاية في اوغادين والتي كانت في الصفحات الأولى من الصحف العام ١٩٧٧ .

لماذا هذا الاهتمام الضئيل بأريتريا من قبل الإعلام والعالم عموماً ؟ . فالنضال هناك يورط الاتحاد السوفياتي في حرب برية رئيسية لا تبدو نهايتها منظورة . واستراتيجياً ، فالمنطقة هي احدى اهم المناطق على مفترق طرق اوروبا ، افريقيا وآسيا مع ميناءي مصوّع وعصب الحيويين على البحر الأحمر . وأحد أسباب فقدان الاهتمام ربما يكون ان الجبهة الشعبية لتحرير اريتيريا ، بالرغم من التورط السوفياتي وعلى غير شاكلة النظام الصومالي ، لم تتحول الى مكان آخر طلباً للدعم .

لقد تكبد الأريتريون نكسات عسكرية خطيرة في الأشهر الأخيرة مما دفع العديد من المعلقين الغربيين الى الانضمام الى الدعائيين السوفيات والاثيوبيين في اعلان ان الحرب الطويلة والمرة قد انتهت . إلا أن ذلك بعيد عن الواقع .

فإثر عودة اثيوبيا لاحتلال المدن الرئيسية كلها التي كانت تسيطر عليها الجبهة الشعبية لتحرير أريتريا ، نقل الأريتريون تكتيكاتهم من الحصار التقليدي والحرب الهجومية الى العمليات المفاجئة بأسلوب العصابات ضد طرق الامداد الحكومية الاثيوبية التي أصبحت الآن طويلة ، وضد المواقع العسكرية الصغيرة والمتعددة ، ومع الوجود السوفياتي المتزايد بسرعة في أريتريا الى جانب « الدرغ » العسكري الحاكم في اثيوبيا ، فإن من المتوقع الآن بالنسبة للحرب هو الاستمرار من دون حسم للمستقبل المنظور في

محاكاة نموذج شبيه بالحرب الفيتنامية في أواخر الستينات .

الأبعاد الدولية

إذا كانت الرغبة الواضحة لدى الاتحاد السوفياتي في الالتزام بمثل هذه المسألة التي لا يحسد عليها تبدو كصدمة ، فإن المفاجيء أكثر ، ربما ، هو أن الثوريين الاريتريين يرفضون بمثابرة وباصرار الردّ على ذلك بالجري الى ضيافة القوى المعادية للسوفيات التي ترغب في مساعدتهم . انهم بدلاً من ذلك يتمسكون بعناد بهويتهم التاريخية كحركة معادية للامبريالية ويقاتلون من دون عون اذا وجدوا ذلك ضرورياً .

إن خمس زيارات الى اريتريا خلال الأعوام الثلاثة الماضية ، بما فيها جولة لمدة شهر في المناطق التي تسيطر عليها الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا جاءت في وقت واحد مع الجولة الأخيرة من القتال ، تدعوني الى الاعتقاد بأن التنبؤات الأريترية بالنصر النهائي ، حتى لو كان غالياً ، هي تنبؤات مبرّرة . ان مثل هذا النصر ستكون له آثار بعيدة المدى - هزّ الوفاق السوفياتي - الأميركي باقتطاع قدرتها على السيطرة على حركات وبلدان العالم الثالث - وتنظر اليه القوى الأساسية جميعها في العالم بالتالي بقلق .

لقد خشيت الولايات المتحدة والبلدان العربية في المنطقة ، طويلاً ، بروز اريتريا مستقلة ذات اتجاه ماركسي . ولم تقلل من هذه المخاوف طبعاً هيمنة الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا اليسارية على الحركة الاريترية المقسّمة . وقد أصرّ قادة الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا ، تكراراً ، على انه لن تكون هناك مساومة سياسية مع القوى اليمينية التواقة الى كسب نفوذ في اريتريا ، ولا يوجد دليل على أي تردد في الخط السياسي للجبهة في الثورة الوطنية الديموقراطية عبر حرب الشعب الطويلة .

وفي الوقت نفسه ، فإن رفض الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا الدائب للمساومة مع أي من الاتحاد السوفياتي أو « الدرغ » حول مسألة حق اريتريا في تقرير المصير بالكامل ، وكذلك حول المسائل السياسية الأساسية الأخرى ، قد دعا العديد من بلدان الكتلة الشرقية للوقوف ضد الأريتريين بالرغم من تصريحات الدعم السابقة . وفيما ندّدت الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا بصوت عال بالأعمال السوفياتية الداعمة لـ « الدرغ » في اريتريا ، فإنها لم تصل الى الشجب الشامل لـ « الامبريالية الاشتراكية » ، وهو ما يبدو أنه جعل الصين تنكفىء عن تقديم دعمها .

وهكذا ، فإنهم في عزلتهم في المجال الدولي يضطر الأريتريون للاعتماد على

براعتهم ومواردهم الداخلية لمواصلة الحرب . ولكن ذلك ليس شيئاً جديداً . انه في الواقع القوة الأساسية للجبهة الشعبية لتحرير اريتريا .

لقد أصبحت اريتريا ، التي كانت في السابق مستعمرة ايطالية، كرة قدم سياسية في الأمم المتحدة في نهاية الحرب العالمية الثانية عندما كانت بريطانيا ، فرنسا ، والولايات المتحدة حريصة على ابقائها في « المعسكر » الغربي . هذا التحرك كان موضع معارضة من الكتلة الشرقية وخاصة من الاتحاد السوفياتي . ولعل التصريح الذي ألقاه السفير السوفياتي فيشينسكي في العام ١٩٥٥ يستحق الذكر :

« إن النظام الاستعماري يمرّ في أزمة دقيقة . ولهذا ، واعتباراً لمصير اريتريا ـ احدى المستعمرات الايطالية السابقة ـ يجب على الأمم المتحدة ان تتخذ قراراً يرضي توق الشعب الأريتري للاستقلال والتحرر من الاضطهاد القومي ان الجمعية العامة لا تستطيع ان تجيز صفقة بين القوى الاستعمارية على حساب شعب اريتريا . وفي هذه الظروف فإن الحل العادل الوحيد . . . هو منح الاستقلال » .

خلال الأعوام الخمسة عشر الأولى من النضال ، بداية بقيادة جبهة التحرير الاريترية ولاحقاً الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا وجبهة التحرير الاريترية . اربكت حرب العصابات بقسوة سيطرة اثيوبيا على الأرض وقوبلت بتزايد باستراتيجية مضادة لحرب العصابات مدعومة من قبل الولايات المتحدة واسرائيل ، اشتملت على « القرى الصغيرة الاستراتيجية » بالأسلوب الفيتنامي والقصف الريفي العشوائي والاضطهاد المديني مقابل قواعد عسكرية في اريتريا .

وخلال الأعوام الثلاثة من ١٩٧٤ الى ١٩٧٧ سيطر الاريتريون ، عبر الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا اساساً ، على مجمل الريف البالغ ٤٢ ألف ميل مربع والمدن والبلدات كلها ، ما عدا خمس منها ، فيما هزموا ثلاثة هجومات مضادة اثيوبية متوالية . وفي فترة ما بعد فيتنام كانت الولايات المتحدة تخشى التورط في حرب اكبر ، وفي منتصف العام ١٩٧٧ بدا كما لو أن نصراً اريترياً أصبح وشيكاً .

الدور السوفياتي

انقلبت المعادلات الآن . فالولايات المتحدة واسرائيل خارج اثيوبيا الى الحد الذي توقفت المساعدة العسكرية فيه بالرغم من أنه ما تزال هناك روابط اقتصادية مهمة بينما

دخلت السوق الأوروبية المشتركة والاتحاد السوفياتي وكوبا . وعمليا فهي حرب جديدة ـ حربٌ تحرر وطني ثانية .

لقد لعب المقاتلون السوفيات دوراً أساسياً في التخطيط والتنفيذ على أرض المعركة في حملة اثيوبيا العسكرية الأخيرة والتي استمرت سبعة شهور في اريتريا ، ولكن يبدو أن كوبا قد امتنعت عن التورط المباشر . وقد قاد جنرالان سوفياتيان العملية بمجملها بينما تولى ضباط من رتبة أدنى مسؤولية وحدات الجبهة حتى مستوى الكتيبة . وكان في خلال الأسابيع الأخيرة من القتال ما بين ١٥٥ و٢٥٠ ضابطاً روسياً يعملون على كل جبهة وكانت النتيجة تغيراً دراماتيكياً في التطبيق التكتيكي وزيادة ملحوظة في فعالية الأسلحة الثقيلة وفّرا لأثيوبيا أول انتصاراتها في أريتريا منذ سنوات وبدّلا جوهرياً من طبيعة الحرب .

وقد زوّدت عمليات متقدمة لجمع المعلومات عن طريق طائرات هليكوبتر وطائرات « ميغ » نفاثة يقودها طيارون سوفيات اضافة الى صور من الأقمار الصناعية ، المخططين السوفيات بوسائل تنظيم الحملة . وكان الجنرال بتروف ، الذي قاد الحملة الاثيوبية الناجحة المدعومة من السوفيات ضد القوات الصومالية في اوغادين في وقت سابق من هذا العام ، القائد الأعلى للقوات البرية الأثيوبية في الحملة الأريترية بينما كان جنرال سوفياتي آخر في أمرة السلاح الجوي .

وقام ١١ ضابطاً سوفياتياً من رتبة مقدم بقيادة وحدات الجبهة عندما فتحت الحملة ضد الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا على خمس جبهات معاً وفي منتصف تشرين الثاني (نوفمبر) العام ١٩٧٨ ، بينما قاد ضباط أدنى رتبة الوحدات المقاتلة الأصغر . وتسمّي تقارير استخبارات الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا ، استناداً لمصادر استخبارات داخل الجيش الاثيوبي واتصالات لاسلكية أمكن التقاطها ، المقدم الكسي الكسندروف قائداً للقوات الاثيوبية على الجبهة الغربية والمقدم فاسيلي قائداً للجبهة الشرقية والمقدم ادوارد قائداً للجبهة الشمالية .

وأحدهم ، المقدم ادوارد ، أصيب بجراح قاتلة في معركة في مدينة عيلابرعد في نهاية تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨ وتوفي لاحقاً في اديس ابابا . وقد أكدت لي تقارير الاستخبارات الأميركية ذلك في الخرطوم كما شاهد عدد من مقاتلي [الجبهة] في الخطوط الأمامية جثثاً للروس ، في ، وحول دبابات سوفياتية دمرت في قتال عيلابرعد . وأحدهم أبلغني أنه تفحص جثة رجل أبيض في دبابة « ت ـ ٥٤ » محترقة ووجد في جيوبه

انبوب معجون كولجيت للأسنان وثلاث علب سكائر نيالا وعدة قطع كعك صغيرة .

الطبيعة العسكرية للحرب « الجديدة »

لقد غيّر الوجود السوفياتي الجديد طبيعة الحرب بتصعيدها الى مستوى اعلى من التعقيد التكتيكي عبر ادخال كميات كبيرة من العربات المدرعة ومدفعية ثقيلة . ودعم جوي ، وتم تنسيقها كلياً للمرة الأولى ضد الفدائيين ذوي التسليح الخفيف. وعلى العكس تماماً من الهجمات الاثيوبية السابقة التي اتسمت [باستخدام] تكتيك الموجات البشرية من ميليشيا الفلاحين الكبيرة ، وبقصف جوي ومدفعي عشوائي ، فإن المعارك الأخيرة شهدت مناورات تكتيكية معقدة على جبهات متعددة يسبقها قصف مركز وكثيف على نقاط ضعف مختارة بعناية في دفاعات الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا . وتتركز التكتيكات السوفياتية الجديدة على شن هجمات سريعة بقوات من المدرعات ذاتية الحركة ومن المشاة اكثر شبهاً بـ « الحرب الخاطفة » النازية منها بتكتيك الموجات البشرية لروسيا الستالينية والحملات الاثيوبية السابقة في اريتريا .

وقد بدأ القتال الأريتري الأخير في منتصف تشرين الثاني ١٩٧٨ بعد توقف لمدة شهرين جاء عقب سلسلة من المحاولات الاثيوبية الفاشلة للوصول الى كيرين . وشكلت مئات من العربات المدرعة والدبابات السوفياتية التي كانت بقيادة الروس في بعض الأحيان ، رأس حربة الهجمات ضد مواقع الجبهة الشعبية من قبل اكثر من ١٥٠ ألف جندي اثيوبي بقيادة سوفياتية على خمس جبهات في وقت واحد . وبرغم اعداد قوات المشاة فإنها لعبت دوراً ثانوياً بالنسبة للقاذفات المقاتلة من طراز « ميغ » والمدفعية الثقيلة ، وراجمات الصواريخ التي انصبت بعنف ، عن مسافات بعيدة على الثوار ذوي التسليح الخفيف لفتح ممرات ضيقة أمام الاندفاع المركز للعربات المدرعة .

وبينما كانت الاذاعة الاثيوبية تعلن تحقيق انتصارات مذهلة ، كانت الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا تسحب لواء بعد آخر الى المناطق الجبلية الاستراتيجية الوعرة حول كيرين حيث اقامت موقعاً لها مستفيدة من التضاريس المؤاتية . كما نقلت امدادات الذخيرة الى هذه المنطقة أيضاً .

وقد تغير الموقف عندما شن الاثيوبيون هجوماً تطويقياً مفاجئاً من ساحل البحر الأحمر . واضطرت الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا الى ان تخلي مواقعها الخلفية لصدّ هذا الهجوم وقد نجحت في ذلك . وبالتهديد الجديد لمنطقة قاعدتها الخلفية وخطوط

امداداتها الأساسية ، اضطرت الجبهة الشعبية مجدداً للانسحاب من اجل تعزيز نفسها وللتخلي عن كيرين ولكن ليس قبل الاشتباك مع القوات الاثيوبية الأساسية هناك في معركة مثيرة ونهائية . لم أكن هناك ولكنني سمعت عنها . وفي العديد من المقابلات المتفرقة مع الثوار وقادة الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا الذين اشتركوا في معركة عيلابرعد التي استمرت يومين ظهرت الصورة الآتية :

معركة كيرين

مع شعاع الضوء الأول تقدمت ٩٠ دبابة من طراز « ت ـ ٥٤ و«ب . ت . ر ـ ٦٠ » في الوادي الضيق على طريق الاسفلت التي تشطر مزارع الحمضيات الخصبة وانتشرت على امتداد طولها كاملاً .

وقبل أن تصل قوة المشاة المكونة من ٣٥ ألف رجل الى طرف الوادي ، انتصب الثوار من مخابئهم بين اعشاب « البوغينفيلية » (المجنونة) على جانبي الطريق لمواجهة الدبابات في اشتباك بالأيدي استخدمت فيها قذائف صاروخية وقنابل يدوية ذات قبضات خشبية على الطراز الصيني مصنوعة محلياً . وقد دارت الدبابات، بعد أن أخذت بالمفاجأة ، على نفسها وانتشرت بصورة فوضوية بين اشجار البرتقال بينما كان المشاة يتدفقون خلفها . وقد أخليت ما بين ٢٥ و٣٠ دبابة عند نهاية الطابور انعزلت عن الأخريات ، إلا أن الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا اضطرت لاحقاً الى احراقها كلها في ما عدا سبع منها لأنه لم يكن هناك من مخرج لها .

وفي خلال الساعات الـ ٤٨ التالية تراوح القتال صعوداً وهبوطاً في التلال المجاورة بينما كان الاثيوبيون يتقدمون الى كيرين باكراً في اليوم الثاني ولكن ليجري دفعهم مرة أخرى الى الخلف .

وقد أبلغني ، في وقت لاحق ، مقاتل جاء في اليوم الثاني :

« عندما وصلنا عيلابرعد كانت مليئة بالدبابات وجثث الموتى والشاحنات من طرفها ، الى طرفها الآخر. الأعشاب الجافة كلها كانت محترقة عن آخرها بينما كانت صفوف من الاشجار ممددة على الأرض بسبب الدبابات ، ولم تكن الطائرات لتتوقف أبداً عن التحليق ، وكانت تلقي انواعاً مختلفة من القنابل بما فيها النابالم ، وفي بعض الأحيان كان الوادي يمتلىء بالدخان لدرجة تتعذر معها الرؤية .

« على الطريق خلفنا استطعت ان أحصي ٢٥ دبابة و٧ شاحنات روسية في الاسر

وخمسٍ أخرى محترقة تقريباً . لقد لاحقناهم من التلال جميعاً الى الوادي ثم طوقناهم .

« لقد سمعناهم لاسلكياً يقولون ان لا مخرج لديهم وانهم لا يعرفون ماذا يفعلون . وبعد ذلك هبطت طائرتا هليكوبتر بضباط روس ، وحاولوا فوراً بدء هجوم مضاد جديد ولكن أمكن ضرب المحاولة ودفعنا بهم الى الوراء . وعندها حل الغروب وانتهت المعركة » .

تحت ستار الظلام تفرق مقاتلو الجبهة الشعبية بهدوء ليحاولوا مجدداً تضييق رقعة القتال الى جبهتين بدلاً من ثلاث ـ احداها شمال كيرين والثانية قرب ساحل البحر الأحمر . وفي الاسبوع التالي نشبت معارك لأربعة أيام متوالية وقاتلت فيها الجبهة قتال المنتصرين لتنهي الحملة الى مأزق جديد .

وينبغي التأكيد على أن الهجوم الاثيوبي كان ناجحاً بصورة جزئية فقط إذ أنه برغم استيلاء القوات الغازية على المدن الكبيرة فإنها فشلت في الوصول الى المدن الثلاث الأصغر ، **افعبت** ، **نقفه** ، **وقدوة** أو فـي التوغل في منطقـة قواعد الثوار هناك . وكانت تلك اهداف المرحلة التالية من الهجوم الذي كانت اثيوبيا تعدّ له والذي سيبدأ لاحقاً في العام ١٩٧٩ .

والأهم من ذلك ، في منظور الحرب كنضال سياسي ، ان « الدرغ » فشل بشكل ذريع في كسب أي دعم شعبي اريتري في تقدمه الغسكري . وقد سبقت العودة لاحتلال المدن الكبيرة هجرة جماعية للمدنيين الى الريف الذي بقي بكامله تقريباً تحت سيطرة الثوار .

وفي الواقع فإن أيّاً من المدن لم تؤخذ بالقوة العسكرية . وعلى العكس فإن الجبهة الشعبية لتحرير أريتريا كانت تقاتل خارج المدن ثم تنسحب بعد أن يتم اخلاؤ ها تماماً وتراجع وحداتها العسكرية الكبيرة كان يتم بصورة منتظمة لتقليص منطقة القواعد الثابتة الى ثلث الحجم الذي كانت عليه قبل ذلك بسبعة شهور . واليوم فإن القاعدة المحررة تماماً للجبهة تقع في جبال الساحل القاحلة ، ويحدها شرقاً البحر الأحمر وشمالاً السودان بينما تدافع عنها من الغرب والجنوب وحدات بحجم ألوية في الخنادق .

قوة الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا اليوم

في سلسلة المعارك الرئيسية التي استمرت ثلاثة أسابيع ، أخيراً ، استولت الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا على اكثر من ٢٥ دبابة سوفياتية من طراز « ت ـ ٥٤ » وسيارة

مدرعة من طراز « ب . ت . ر ـ ٦٠ » لترفع بذلك عدد العربات المدرعة التي تملكها الى اكثر من ٨٠ . وهذا أكثر مما كانت تملكه اثيوبيا نفسها في ظل نظام هيلاسيلاسي المدعوم اميركياً واسرائيلياً قبل أربعة أعوام فقط، وهو يعطي الجبهة قوة أفضل تسليحاً من معظم الدول الافريقية القائمة حالياً .

لقد بدت خسائر الثوار على أرض المعركة عالية نسبياً في ظل قصف شديد بمدفعية بعيدة المدى يديرها السوفيات وراجمات الصواريخ ، وطائرات ميغ نفاثة تستخدم قنابل نابالم وقنابل عنقودية مضادة للأشخاص ، ولكن عمليات اخلاء المدنيين أدت الى تقديم آلاف من المتطوعين الجدد تكفي لابقاء قوة الجبهة من المشاة ما بين ٢٥ ألف و٣٠ ألف رجل وامرأة .

إلا أن الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا ما تزال تفتقر الآن الى القوة الاجمالية لإلحاق الهزيمة بالجيش الاثيوبي في مواجهات ميدانية مفتوحة ومتعددة . انها تفتقد مصادر التموين الخارجي بالسلاح ولا تملك الدفاع الفعال ضد المدفعية والصواريخ والطيران ، كما أنها لا تملك القوات البرية الكافية بالمقارنة مع الاثيوبيين .

نتيجة لذلك ، بدأت الجبهة انتقالاً سريعاً الى تكتيكات حرب العصابات المتحركة التي ميزت سنوات الحرب الأولى والقائمة على تفكيك وحدات بحجم الألوية الى سرايا وكتائب يجري استخدامها في مناطق غوارية غير محكمة التحديد على امتداد الريف الاريتري .

كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩

ماري داينز

« الارهاب الأحمر » الاثيوبي

لقد امتد « الارهاب الأحمر » الاثيوبي ، وهو نظام السيطرة بالتخويف والقمع من قبل الدرغ ، الى المدن المحتلة من اريتريا حيث ذبح مئات الاشخاص . إلا أنه وعلى العكس من « الارهاب الأحمر » في اثيوبيا حيث ذبح الضحايا في العام ١٩٧٧ في الشوارع ، فإن عمليات القتل تجري هنا سراً .

لقد نظمت عمليات الاعتقال والاعدام من قبل الـ « كبيله » ـ لجان المناطق ـ التي تعمل بالأسلوب نفسه المتبع في اثيوبيا .

وعندما عاد الاثيوبيون لاحتلال المدن الرئيسية في اريتريا في تشرين الثاني وكانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٨ أعلنوا نيتهم العمل عبر المنظمات الجماهيرية التي انشأتها الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا ، عن طريق تنصيب قادة يثقون بهم وغالباً من الموظفين السابقين لدى الامبراطور هيلاسيلاسي .

ولأن هؤلاء الجدد قوبلوا بمعارضة شديدة فإن الاثيوبيين عمدوا الى حل المجموعات السابقة للجبهة الشعبية وأقاموا الـ « كبيله » كأداة للسيطرة الاجتماعية والسياسية .

وفي اسمرا، بشكل خاص ، لعبت الـ « كبيله » دوراً قيادياً وخاصة في اعتقال واعدام الشبان الذين ثار شكّ حول معارضتهم للدرغ أو حاولوا مغادرة المدينة . وقد اختفى عدة مئات منهم بعد أن أخذوا من الشوارع . ولم يجرؤ أقاربهم حتى على السؤال عن أماكن وجودهم .

وأدت هذه الممارسات ، اضافة الى سلوك القوات الاثيوبية في مهاجمة واغتصاب النساء وسرقة الممتلكات والحيوانات من أجل الطعام ، الى هجرة جماعية للشبان من

اسمره وخاصة الفتيات بين ١٤ و٢٥ عاماً من العمر . ومعظمهم عمد الى رشوة او خداع حراس الأمن الاثيوبيين ثم التسلل الى الريف للانضمام الى الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا .

أما أنباء الاعدامات فلم تكن تخرج الى الناس الا عبر سجناء آخرين . والعديدون من الذين اعتقلوا ،مثل الشبان الـ ٥٠ الذين اعتقلوا في كيرين في أيار (مايو) ، لم يسمع عنهم بعد ذلك .

إن هناك معسكر اعتقال للسجناء السياسيين في ادي كوالا ، قرب منديفرا ، التي أصبحت مشهورة بسبب وحشيتها . هنا شنق العديد من السجناء بالاسلاك ، وفي نيسان جرى عرض ثلاثة سجناء أمام زملائهم ثم ضربوا حتى الموت بالرفوش .

ويكثف « الدرغ » الآن هذه الموجة الجديدة من « الارهاب الأحمر » بالابتزاز ، والمزيد من الاعتقال والقتل ، واختطاف المزارعين للخدمة في الميليشيا الاثيوبية .

عمليات احتيال كثيرة استخدمت من قبل السلطات لابتزاز المال . وفي كيرين ، مثلاً ، أعلنت السلطات مؤخراً ان السكر الذي يكاد يكون نادراً هناك سيعرض للبيع في الساعة السادسة من صباح يوم معين . وعلى الرغم من حظر التجول المفروض من السادسة مساء الى السادسة صباحاً فقد تجمع عدد كبير من المزارعين في منطقة السوق قبل وقت قصير من السادسة صباحاً ليضمنوا حصولهم على حصتهم . وقد اعتقلوا جميعاً بسرعة لمخالفتهم حظر التجول ولم يفرج عنهم إلا بعد دفع غرامات مالية باهظة .

وجنوبي تلك المنطقة ، في المرتفعات ، كان المزارعون تقليدياً يزرعون الأرض في وادي نهر فلفل ، إلا أنهم لم يعودوا قادرين على بلوغ المنطقة باعتبار ان محاصيلهم أحرقت ولأنهم هم أنفسهم يتعرضون لغارات الطائرات الاثيوبية ، ولذلك فهم الآن يفتقرون الى الطعام والمال .

في نيسان أعلنت الـ « كيبله » في مدينة تساغار احتفالاً الزامياً لمساعدة المزارعين الجياع في مقاطعة وولو في اثيوبيا . وفي هذا الاحتفال عرض عدد من البضائع في المزاد العلني للبيع الالزامي ، تضمنت البضائع قطعاً من القماش عليها شعارات مطبوعة مثل « اثيوبيا أو الموت » . وقد اعتقل كل من رفض التعاون .

وفرضت غرامات ايضاً على عدد كبير من التهم مثل عدم حضور اجتماعات الـ «كيبله» . وأخيراً بدأت السلطات الاثيوبية في ممارسة التوقيف اعتباراً من الساعة الخامسة

والنصف مساء لـ « مخالفة » حظر التجول الذي يبدأ الساعة السادسة . ولا يفرج عن المعتقلين الا بعد دفع غرامات .

في كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩ طوقت مجموعة من المزارعين كانوا يرعون مواشيهم في ضواحي قرية ميرهانو قرب اسمرا ، من قبل حراس الـ « كيبله » المسلحين ونقل ١٥ منهم للخدمة في الميليشيا الاثيوبية . ولم تعرف أماكن وجودهم .

وتعمل الـ « كيبله » أيضاً في جمع الضرائب . وقد أعلن « الدرغ » ان على كل فرد ان يدفع ضرائب عن اربعة أعوام سابقة ، وان عمليات جمع المال بدأت فعلاً ، وفي العديد من الحالات تعتبر المبالغ المطلوبة فوق قدرة المزارعين على الدفع ، ولكن العجز عن ذلك يعتبر هنا انه يعبر عن « ثورة مضادة » . ولذلك فإن العديدين يستدينون من القلة التي تملك المال .

وقد اعتقلت الـ « كيبله » اشخاصاً عديدين لسماعهم محطة اذاعة الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا « صوت الجماهير الاريترية » التي تسمع على امتداد اريتريا وفي اقليم تيغراي الاثيوبي . والاعتقالات واسعة بشكل خاص في تيغراي ، حيث يحاول « الدرغ » اخماد الجبهة الشعبية لتحرير تيغراي بواسطة ٣٠ ألف جندي ودبابات وقصف كثيف واعتقالات جماعية للشبان كما في اريتريا . وهذا النزاع ، الذي يحاول « الدرغ » يائساً اخفاء المعلومات عنه ، يمرّ الآن في عامه الرابع :

ولم يتلق الأريتريون شيئاً من المعونات الغذائية التي قدمت الى اثيوبيا . وفي اسمرا ، في الخريف الماضي ، تم توزيع الأطعمة المقررة للفقراء بواسطة الـ « كيبله » وذهب الكثير منها الى اصدقاء وأقارب قادتها او الى السوق السوداء . وبعضها اكتشف في مخازن الجيش الاثيوبي في ديسمهاري التي استولى عليها الأريتريون في أيار (مايو) .

ومثل الـ « كيبله » فإن الجيش الاثيوبي مثار خشية في اريتريا بسبب عنفه وسلوكه الذي لا يمكن التنبؤ به . وقد فرّ العديد من سكان المدن الى الريف ، أو لجأوا الى السودان ، أو انضموا الى الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا في الجبال .

والرّحّل يتعرضون لمخاطر خاصة من الاثيوبيين فهم في اقليم الساحل عرضة للقصف مع حيواناتهم عندما تشاهدهم الطائرات الاثيوبية التي تحلق يومياً فوق المنطقة . ولذلك فهم يتنقلون في الليل عندما يكون ذلك ممكناً . ومثل سكان المدن ، ذهب بعضهم الى السودان وينضم عدد متزايد منهم الى الجبهة الشعبية .

أما المدنيون في اريتريا فما زالوا يلعبون دوراً حيوياً في حرب العصابات لطرد الاثيوبيين من أرضهم . وسلطة الجيش الاثيوبي محصورة بالمدن التي احتلها وأقام مواقع فيها بحيث أنه لا يغامر في الذهاب الى الريف الا في قوافل . وتعاني قواته من مشكلة متزايدة في الحصول على تموين في المدن ، خارج اسمرا ، بسبب سيطرة الجبهة الشعبية التي ما تزال تملك وحدات عدة تقاتل في المرتفعات وفي الجنوب على الطرق . وعلى سبيل المثال فإن الطريق من مصوّع الى اسمرا ما تزال تحت السيطرة الاريترية .

كما ان تحركات القوات والقوافل من المدن تصل ، عبر المدنيين ، الى وحدات الجبهة الشعبية التي تعمد الى زرع الالغام أو نصب كمائن للقوافل . وفي الشهور الأخيرة خسر الاثيوبيون مئات الشاحنات والعربات ، وآلاف الاطنان من الذخيرة والامدادات الأخرى ، والعديدين من الجنود نتيجة لنشاطات الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا .

(نقلاً عن *«Observer, Foreign News Service»* ٤ تموز (يوليو) ١٩٧٩)

لارس بونديستام

التورط الخارجي في اثيوبيا وأريتريا

مقدمة

في العام ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥ كان لثلاثة احداث ، بدت انها غير مترابطة ، تأثير كبير على التطورات السياسية في القارة : الاجتياح المغربي للصحراء الغربية ، الحرب الأهلية في انغولا ، واعلان « الاشتراكية الاثيوبية » . وما كان يربطها هو أطراف ثالثة : البوليزاريو والحركة الشعبية لتحرير انغولا والطغمة العسكرية الاثيوبية ، تلقى دعم بلدان مثل تنزانيا ، الجزائر ، ليبيا ، اليمن الجنوبية ، الاتحاد السوفياتي ، اوروبا الشرقية وكوبا . وعلى الجانب الآخر كان المرء يجد زائير ، موريتانيا ، المغرب ، مصر ، السودان والسعودية تدعمها الدول الغربية وخاصة الولايات المتحدة وفرنسا . والانقسامات داخل منظمة الوحدة الافريقية وجامعة الدول العربية تعكس التناقضات بين المعسكرين .

إن الصراعات المعقدة في القرن الافريقي استدعت اهتماماً دولياً متزايداً . والفراغ الذي نتج عن الانسحاب الاميركي البطيء والمتردد والجزئي من اثيوبيا ملأه الاتحاد السوفياتي واوروبا الشرقية وكوبا* . في بداية العام ١٩٧٧ ، غزت قوات الاتحاد الديموقراطي الاثيوبي (اليميني) غوندار الغربية . وقد جرى تضخيم خطر الدخول ، بشكل مقصود ، من قبل كل من المجلس الاداري العسكري المؤقت (أو الدرغ) وسنده الجديد ، الاتحاد السوفياتي ، الذي وصفه بأنه « غزو امبريالي » . ونتيجة لذلك نقلت فرقة هرار الثالثة الى غوندار بينما تركت أوغادين مفتوحة بشكل أو بآخر امام

* جعلت موسكو قاعدة لها تقديم مساعدات من السلاح حيثما يرفض الغرب تقديمه مثل دعم غوون في حرب نيجيريا ـ بيافرا الاهلية .

الجيش الصومالي . وعندما غرقت الدبابات والمدفعية في الوحل حول ميتيما وهوميرا في غوندار ، بدأ ارسال الأسلحة السوفياتية جواً الى اثيوبيا على نطاق متزايد دائماً . وهكذا تورطت الكتلة السوفياتية في مشكلة ضخمة ، إذ كانت تقف على قدم في الصومال وعلى قدم أخرى في اثيوبيا . وفي ما بعد جرى طرد الاتحاد السوفياتي وكوبا من الصومال بينما قاما بتعزيز قبضتيهما على اثيوبيا ، وعبر المستشارون العسكريون السوفيات في مقديشيو الحدود للانضمام الى « الدرغ » .

وكما رأى « الدرغ » انه « يخوض حرباً ضد الامبرياليين على ثلاث جبهات » فإنه أصبح معتمداً كلية على العون العسكري السوفياتي . ورسمياً ، فقد ساعد الاتحاد السوفياتي اثيوبيا على أسس ايديولوجية ، وكان يفسّر اية معارضة « للدرغ » بأنها تعبير سياسي عن الامبريالية الغربية والثورة المضادة . ومن منظور الكرملين هذا ، فإن خسارة اريتريا ستكون كارثة للثورة الاثيوبية وبالتالي للوجود السوفياتي في القرن الافريقي . وتلك الاهتمامات من موسكو كلفت الشعبين الأريتري والاثيوبي خسائر بشرية ومادية بالغة .

إن المدافعين عن التوغل السوفياتي في الشؤون الداخلية الاثيوبية يشيرون الى موقف الاتحاد السوفياتي وكوبا السليم في دعمهما الحركة الشعبية لتحرير انغولا بينما يشكل تدخلهما في القرن مظهراً للتضارب في السياسة الخارجية السوفياتية . والمظهر الآخر لمثل هذا التضارب هو الموقف السوفياتي من الصحراء الغربية . لماذا لا يقدم الاتحاد السوفياتي دعمه الكامل للبوليزاريو ؟ هل بسبب الاهتمام السوفياتي بالفوسفات المغربي ؟ وبصرف النظر عن أية ارتباطات ممكنة بين اهتمامات الاتحاد السوفياتي والشعب الانغولي ، فإن التناقض في اثيوبيا هو بين « الدرغ » المدعوم من السوفيات والشعوب الاثيوبية ، ولهذه الأخيرة ما تشترك به مع تحرر الشعوب الافريقية أكثر مما يمكن ان يكون « للدرغ » في أي يوم . وهذا الأمر يتطلب بعض الشرح .

فالواقع ان الخط الرسمي للاشتراكية في اثيوبيا يقوّضه « الدرغ » نفسه . ولا يتنفذ في اثيوبيا أي من خصائص النموذج الاشتراكي للانتاج ، على الأقل في قطاعات الاقتصاد التي يمكن السيطرة عليها مركزياً . وتأميم المؤسسات المالية والصناعات الكبيرة أدى عملياً فقط الى نقل الملكية من القطاع الخاص الى الدولة . وسيطرة العاملين على الانتاج غير قائمة كما كان الأمر سابقاً . فائض العمل في امرة « الدرغ » بينما فائض القيمة يستخدم بطريقة مدمرة ضد الشعب بدلاً من استثماره في حياة أفضل

للاثيوبيين . وفكرة الديموقراطية والحزبية الحرة قمعت بتصفية « الدرغ » بعنف للأحزاب اليسارية مثل حزب الشعب الاثيوبي الثوري . والثغرة بين اهداف نضال الشعب الاثيوبي في العام ١٩٧٤ والسياسات الفوقية اليوم واسعة كما هي بين الاشتراكية والديكتاتورية العسكرية . وتلك وقائع مهمة وحاسمة في فهم الفرق ، مثلاً ، بين انغولا واثيوبيا وفي كشف تبرير الدعم السوفياتي « للدرغ » .

ومن أجل حكم أفضل على التبعية الدولية الجديدة لاثيوبيا ، فإنني ابدأ باستعراض سريع للمصالح والاستراتيجية الأميركية التي تختلف في مجالات عدة عن المصالح والاستراتيجية السوفياتية . فالولايات المتحدة ، بسبب خبرة أطول في اتصالاتها مع العالم الثالث وبعد دروس فيتنام ، أكثر حذقاً من الاتحاد السوفياتي في الحصول على المنفعة . كذلك فإن السياسة السوفياتية القاسية في اثيوبيا هي تجربة جديدة للاثيوبيين . وتجري مناقشة هذه السياسة بالرجوع خاصة الى الموقف السوفياتي الجديد من المسألة الأريترية . كما يناقش أيضاً الموقف الجديد لكوبا التي يبدو أنها تتبع حليفها الأكبر . والسؤ ال الذي يتكرر غالباً ، وهو ما اذا كان الجنود السوفيات والكوبيون يقاتلون فعلاً في اريتريا ، يناقش باختصار ، لكنني أريد هنا أن أؤكد انه لا فرق من وجهة نظر ايديولوجية بين اشتراكهم بفعالية في الحرب والبنادق في أيديهم ،أو خدمتهم « فقط » كمصدر للاسلحة ومستشارين عسكريين وميكانيكيين ومنظمين لوجيستيكيين .

إن الوجود العسكري للكتلة الشرقية في اثيوبيا يتداخل مع نشاطاتها غير العسكرية هناك . ويؤدي اسلوب « الدرغ » الجامد في معالجة المسألة الأريترية (ومسائل القوميات في اثيوبيا عموماً) الى تضحيات كبيرة من كل من الشعب الأريتري والشعوب الاثيوبية ، كما يحدث أيضاً بالنسبة للمساعدة المدنية السوفياتية لاثيوبيا . ولهذا فإن تبعية اثيوبيا الاقتصادية المتنامية للكتلة السوفياتية هي مظهر مباشر لتبعيتها العسكرية التي ستستمر ما دام « الدرغ » يواصل سياسته في المحافظة على [وحدة] البلاد بمساعدة البنادق ، والدبابات ، والمدفعية والمقاتلات من طراز « ميغ » . ومن هنا فإن جزءاً أساسياً من هذا المقال عبارة عن فصل حول التعاون بين الكتلة السوفياتية واثيوبيا . وفي النهاية ، فإنني سأحاول اثبات ان الاتحاد السوفياتي سيواجه حتماً في يوم ما المصير نفسه الذي واجهه في السودان ومصر والصومال ، أي ان التجربة الاثيوبية مع صيغة الكرملين عن الماركسية لن تستمر طويلاً .

الامبريالية الأميركية في اثيوبيا حتى العام ١٩٧٤

يمكن تقسيم الاستراتيجية الامبريالية الأميركية في الاستغلال الاقتصادي لطاقات اثيوبيا البشرية والمادية الى عدد من المراحل :

١ ـ استهدفت المساعدة العسكرية الأميركية ، التي بدأت في مطلع الخمسينات ، تحقيق الأمن في البلاد عن طريق ربط القوة العسكرية الاثيوبية النامية بالأيديولوجية الغربية من أجل « ابقاء الشيوعية بعيداً » كما قال مساعد وزير خارجية اميركي سابق للشؤون الافريقية[١] .

٢ ـ بدأ في مطلع الستينات البرنامج شبه العسكري الذي يحمل اسم « بعثة وضع الخرائط » التابعة لوكالة التنمية الدولية للولايات المتحدة (USAID) . وقد أصدر خرائط لاثيوبيا كلها اعتماداً على صور جوية أعطت الولايات المتحدة الأميركية معرفة مفيدة بطوبوغرافية وجغرافية البلاد .

٣ ـ ارفقت عملية وضع الخرائط في الوقت ذاته بعملية جمع معلومات على الأرض ، وكانت الأداتان الرئيسيتان في ذلك « خدمة اجتثاث الملاريا » (MALARIA ERADICATION SERVICE) التابعة لوكالة الولايات المتحدة للتنمية الدولية (USAID) وفيالق السلام[٢] .

٤ ـ كان الأمن وجمع الحقائق عن أوجه الحياة جميعها في اثيوبيا شرطين ضروريين لاستثمارات محتملة ، آمنة ومربحة ، للولايات المتحدة . أما الشروط الأخرى ، مثل تحسين البناء التحتي (الجسور والمطارات أساساً) ، والمزيد من الاثيوبيين المهرة (من خلال النفوذ الايديولوجي الأميركي في جامعة هيلاسيلاسي الأول وكلية اليمايا الزراعية) ، وسياسة الاستثمار الحكومية المؤاتية ، فقد نفذت الى حدّ ما عبر وكالة الولايات المتحدة للتنمية الدولية (USAID) وتغلغل الأفراد الاميركيين في الوزارات الحساسة وخاصة لجنة التخطيط (حيث كان أحد المستشارين الأميركيين على الأقل على صلة مباشرة بوكالة المخابرات المركزية الأميركية) . كما انشئت مؤسسات تمويل اميركية مختلفة مثل المصارف وشركات التأمين .

٥ ـ كانت هناك أيضاً دراسات مهمة عدة حول فرص الاستثمار بما فيها مخططات مشاريع تنمية تجريبية . وقامت شركات ومعاهد أميركية مثل معهد ستانفورد للأبحاث بعمليات استطلاع للاستثمار من أجل « تحديد تلك المشروعات والمناطق والسلع

والأسواق التي يمكن تطويرها بسهولة والتي من شأنها أن تنتج أكبر زيادة في العائدات على المدى القصير » .

٦ ـ أخيراً ، فإن التحضير للاستثمارات الأميركية المهمة بدأ على نطاق واسع في مطلع السبعينات . وقد انشىء مركز لتشجيع الاستثمار والتصدير برأسمال اميركي ، كما أبدت شركات أميركية عدة اهتمامها بالاستثمار في اثيوبيا . وعندها حلّ العام ١٩٧٤ برزت اريتريا في هذه الصورة في عدد من الطرق. اولاً، خطر التوسع العربي (وخاصة المعادي لاسرائيل) في منطقة البحر الأحمر وضرورة مراقبته . ثانياً ، انه بالكاد أن تفيد اثيوبيا مقفلة على البحر المصالح الامبريالية الأميركية ، وان ممراً حراً الى البحر يعتبر ذا أهمية بالغة . ثالثاً ، ان الاستثمار الأميركي الضخم في محطة كاغنيو للاتصالات يستدعي سيطرة اثيوبية على البحر . رابعاً ، انأريتريا،التي كانت قد وصلت الى مرحلة رأسمالية اكثر تقدماً بكثير من اثيوبيا ، تشكل ببنائها التحتي وصناعتها وقوة العمل الماهرة نسبياً لديها ، ملاذاً للرأسمال الأميركي . وهذه العوامل تفسّر تصويت الولايات المتحدة الى جانب اتحاد اريتريا مع اثيوبيا في الأمم المتحدة العام ١٩٥٠ ، ودعمها العسكري وغير العسكري لحكومة الامبراطور ضد النضال الأريتري من أجل تقرير المصير . والمصالح السوفياتية اللاحقة في اثيوبيا تتماثل ولكن الى مدى محدود فقط مع المصالح الأميركية . بل الأكثر من ذلك أن الاستراتيجية الأميركية المتقدمة كانت تختلف نوعياً عن الدخول الفظ للدولة العظمى الثانية الى المسرح الأريتري .

الاتحاد السوفياتي وأريتريا

عندما نوقش مستقبل اريتريا في الأمم المتحدة في العام ١٩٥٠ أعلن المندوب السوفياتي ان رغبة الولايات المتحدة في اقامة اتحاد بين اريتريا واثيوبيا تعكس مصالح القوى الاستعمارية بقيادة الولايات المتحدة :

« كيف يمكن الحديث عن تسوية اذا كانت قد تمت من دون موافقة الشعب المعني ، أي من دون اشتراك الشعب الاريتري ؟ . . تحت هذه الظروف فإن الحل الأكثر انصافاً لمشكلة مستقبل آريتريا هو ضمان استقلالها » .

وبالرغم من تزايد الوعي الوطني والسياسي بين الشعوب الأريترية ورفضها المتنامي لأي شكل من التعاون السياسى مع اثيوبيا ، فقد تغير الموقف السوفياتي الآن في الاتجاه

المضاد : « ان الحكم الذاتي الاقليمي هو الشكل الاكثر تقدمية لتقرير المصير والأكثر قبولاً »(٣) . ولكن ذلك غير كاف ، فالدعم العسكري السوفياتي الضخم لعدوان اثيوبيا في اريتريا لا يشير الى الحكم الذاتي الاقليمي فقط وانما في الواقع الى الضم الكامل . والتناقضات العدائية النامية بين الطبقة العاملة في اريتريا وفي اثيوبيا . والتي ساهم فيها هذا العدوان بصورة مصطنعة ، لا علاقة لها بالمبادىء اللينينية الخاصة بتقرير المصيرالوطني التي يدعي الكرملين رعايتها . وتفاقم هذه التناقضات ينبع من المصالح الاستراتيجية السوفياتية في القرن الافريقي .

وفي ما يتعلق بهذه المصالح أعلنت وزارة الشؤون الخارجية السوفياتية في ٣ شباط ١٩٧٨ ما يأتي :

« إن القرن الافريقي ، أساسياً ، ذو أهمية عسكرية ، سياسية واقتصادية . وأهمية المنطقة تعود أساساً لموقعها حيث تلتقي قارتا افريقيا وآسيا . هناك موانىء جيدة عدة في الخليج الفارسي وفي المحيط الهندي . وأكثر من ذلك ، فهناك طرق بحرية تربط البلدان المنتجة للنفط بأميركا وأوروبا »(٤)

ولقد أدى المحيط الهندي ودوله الساحلية الى سباق عسكري في المنطقة بين الشرق والغرب. فالولايات المتحدة تملك محطة لرصد الأقمار الصناعية في جزيرة ماهي ، وقاعدة اتصالات في دييغوغارسيا ، كما أنها تملك حق استخدام قاعدة السلاح الجوي الملكي [البريطاني] في جزيرة مصيرة (عمان) ومحطة كاغنيو في اسمره التي كانت لهم . والعسكرية الأميركية ، الى ذلك ، متورطة في دول مثل السعودية وايران(٥) وغيرها . أما الاتحاد السوفياتي فيأمل في منع الغرب من ممارسة حرة للنفوذ في المنطقة ، وهذا ما يفسر موانئه في اليمن الديموقراطي وغيره ، وفي بربرة (الصومال ، وقد أغلقت في أيلول (سبتمبر) ١٩٧٧) .

والقوة التي تسيطر على البحر الأحمر تسيطر ايضاً على الطريق المختصرة الثمينة بين اوروبا وآسيا . وقد حذر زعيم اثيوبيا الكولونيل منغيستو هيلاميريام من « ان الولايات المتحدة تحاول اقامة حلف بين الدول الرجعية ـ السودان ، مصر ، والسعودية ـ في المنطقة » . وهذه التهديدات ربما تلقي بعض الضوء على الوجود السوفياتي (الموازي) في المنطقة ومصالحه في اثيوبيا واريتريا . وقد لمس ذلك أحد المعلقين عندما قال :

« إن امكانية هذا التحالف ستكون مرعبة لأنه سيضمّ حوالى ثلثي مجموع أراضي العالم العربي ، نصف سكانه و٤٠٪ من احتياطيّه النفطي الثابت . إنما الأهم من ذلك

هو أن الجهود العسكرية والاقتصادية الأميركية المتزايدة بوضوح في السودان ، وفي مصر وفي السعودية قد تساعد هذه البلدان على فرض هيمنتها على البحر الأحمر »[٦] .

في العام ١٩٧٢ ، أعادت صحيفة « الاهرام » المصرية تسمية البحر الأحمر باسم البحر العربي « باعتبار ان الدول التي تسيطر عليه كلها عربية » . وكان من الطبيعي أن يثير ذلك مشاعر عدائية في اثيوبيا التي أسقطت من لائحة الدول الساحلية . ومنذ ذلك الحين حلت الولايات المتحدة مكان الاتحاد السوفياتي في اثنتين من أهم دول البحر الأحمر ، السودان ومصر ، ولم تبق من صلة للروس بالبحر الأحمر ، في ما عدا اليمن الجنوبية ، سوى صلة اريتريا .

هذا يعني أن اريتريا أصبحت أرض لقاء للمصالح السوفياتية والاثيوبية . فمن مصلحة السوفيات دعم حكومة تسعى الى حلول عسكرية لمختلف النزاعات ، بحيث ستبقى اثيوبيا معتمدة على مواصلة تزويدها بالأسلحة والتكنولوجيا الحربية السوفياتية . كما تقدم اثيوبيا ايضاً ارض اختبار ممتازة للأسلحة والتكتيكات العسكرية السوفياتية . ومن هنا الدعم السوفياتي القوي لمنغيستو في أواخر ١٩٧٦ وبداية ١٩٧٧ عندما هدد مواقعه تيفري بانتي الذي كان يمثل خطاً اكثر ليونة تجاه اريتريا . لقد كان سفراء الاتحاد السوفياتي ، المانيا الشرقية وكوبا اول من قدم التهنئة لمنغيستو على نجاحه في اعدام تيفري والمجموعة التي كانت تؤيده في شباط (فبراير) ١٩٧٧ .

كوبا واريتريا

يمكن ملاحظة ثلاثة خطوط في السياسة الكوبية بعد العام ١٩٧٠ : خط براغماتي يسعى لأفضل التحالفات الممكنة من أجل تحسين اقتصاده الداخلي ، خط فيدل كاسترو الثوري في دعم العداء للامبريالية في بلدان مختارة ، وخط عسكري يمثله اندفاع راؤ ول كاسترو في المساعدة العسكرية لـ « تصدير الثورة الكوبية » . كان الجيش الكوبي ، في خلال الستينات ، يتولى نشاطات مدنية كبيرة ، ولكنه بعد تقوية الادارة المدنية أعفي من هذه الواجبات ، مما عزّز موقع راؤ ول كاسترو . وأدى النجاح في انغولا ، التي كانت أكبر طموحات كوبا في الخارج حتى ذلك الوقت الى زيادة تقوية خط الشقيقين فيدل وراؤ ول على حساب من يطلق عليهم اسم البراغماتيين .

وهذا ، في كل حال ، يشرح جزئياً فقط الامكانية المادية للعمل الكوبي في العالم ، ولكن لا يشرح كيف يتم تمويله ولا ايديولوجيته ولا لماذا تلزم كوبا نفسها فعلياً الى جانب

اثيوبيا . لن ادعي انني اعطي أجوبة على هذه الأسئلة ولكنني سأقدم بعض الملاحظات .

إن انتقاد تشي غيفارا (في الندوة الاقتصادية الأفرو - آسيوية في الجزائر العام ١٩٦٤) للبلدان الاشتراكية التي « تستغل البلدان المتخلفة عبر تبادل غير متكافىء لا يقل عما تفعله البلدان الرأسمالية » لم يتكرر ابداً بعد العام ١٩٦٧ . وفي الواقع فقد لوحظ تغير في السياسة الخارجية الكوبية بعد وفاة تشي غيفارا ، من دعم حركات المعارضة الثورية الى دعم الحكومات التقدمية القائمة فعلاً . وربما يفسّر ذلك ، الى حد ما ، تحول التأييد من جبهة تحرير اريتريا ايام هيلاسيلاسي الى الطغمة العسكرية في اديس ابابا بعد ١٩٧٥ . ولكن هذا الانتقال الفاضح يجري تبريره حتى الآن بتعابير سياسية(٧) . إلّا أن الوجود الكوبي في اثيوبيا ربما لم يتقرر أساساً في هافانا وانما حكمته رغبات الاتحاد السوفياتي .

إن اعتماد كوبا على الاتحاد السوفياتي يعني انه كان عليها أن توائم سياستها الخارجية مع سياسة شقيقها الأكبر . ويدل على ذلك التعاون بينهما في افريقيا حيث أنه من أصل احد عشر بلداً تتواجد فيها عناصر مدنية أو عسكرية روسية نجد أن كوبا حاضرة في عشرة منها . وهذا ليس مجرد مصادفة . فالعناصر السوفياتية والكوبية تتعاون في اثيوبيا ، ان لم يكن بشكل كامل على المستوى الايديولوجي فعلى الأقل عسكرياً ضد اعداء « الدرغ » . وبعد وقت قصير من تواجد الاتحاد السوفياتي في اثيوبيا ، ابدى فيدل كاسترو آراء سلبية حول حركات التحرير الأريترية في مقابلة مع مجلة افريك - آزي (١٦ أيار (مايو) ١٩٧٧) . ومنذ العام ١٩٦٨ ، عندما وصف فيدل كاسترو النضال الأريتري بأنه « ثورة تقدمية » ، انبثقت الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا كحركة اكثر جذرية من جبهة التحرير الأريترية ، ولكن كاسترو يدعوهما الآن بـ « الانفصاليين في الجزء الشمالي من البلاد الذين يحصلون الآن أيضاً على مساعدة من البلدان الرجعية في المنطقة »(٨) ، ويقول أيضاً « إن امبريالية اليانكي تسعى لاثارة علامات استفهام حول حق اثيوبيا في الدفاع عن وحدة أراضيها ووحدتها ضد الانفصاليين الاريتريين »(٩) . فهل يكون كاسترو وفياً لأيديولوجيته عندما يشير الى ان طبيعة كل من الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا وجبهة تحرير اريتريا و « وحدة أراضي » « ووحدة » اثيوبيا تتوقف على طبيعة الحكومة المعينة في اديس ابابا ؟

في كل حال فإن احتمال ان تكون كوبا في اثيوبيا نيابة عن الاتحاد السوفياتي لا

يستدعي بالضرورة بموافقة كوبية كاملة على السياسة السوفياتية وسياسة « الدرغ » ، فقد ظهر الى العلن تناقض محتمل في المواقف الكوبية والاثيوبية في أيار (مايو) ١٩٧٨ عندما غادر اديس ابابا بصورة مؤقتة كل من سفيري كوبا واليمن الجنوبية في اثيوبيا . وكان البلدان يساعدان على عودة نيجيد غوبيزي من منفاه في باريس (حيث كان يقيم منذ انشقاق « الدرغ » - ميسون في آب ١٩٧٧) الى اديس ابابا من أجل تأسيس حزب شيوعي والمساهمة في ايجاد حل سياسي في اريتريا* .

القتال او النصيحة حول كيفية القتال

بدأ العون العسكري السوفياتي لاثيوبيا في مطلع ١٩٧٧ وكان يتألف من خمسة عناصر : امدادات اسلحة ، ارشاد عسكري ، صيانة ، تدريب ، وقتال على الخطوط الامامية . وكل من هذه العناصر ضروري للقيام بالحرب . وكل منها لا فائدة له من دون الآخر . ولهذا فإن اشتراكاً فعالاً في أي منها يعني ايضاً اشتراكاً فعالاً في الحروب ضد الشعوب الاثيوبية والاريترية المختلفة .

عندما انسحبت الولايات المتحدة الأميركية جزئياً من اثيوبيا في شباط (فبراير) ١٩٧٧ بعد اعدام تيفري بانتي (بسبب انتهاك « حقوق الانسان » كما زعم وزير الخارجية الأميركي سايروس فانس) حل الاتحاد السوفياتي محلها فوراً . وقد اشتملت اول ارسالية اسلحة سوفياتية مئات الألوف من قطع السلاح الخفيفة : بنادق كلاشينكوف اوتوماتيكية ، مدافع رشاشة ، صواريخ مضادة للدبابات وقاذفات قنابل . وهذه الاسلحة استخدمتها ميليشيا الفلاحين السريعة التدريب . أولاً ضد جبهة تحرير الصومال الغربي ، والاتحاد الديموقراطي الاثيوبي ، ولاحقاً في اريتريا .

في آذار (مارس) ١٩٧٧ وعد الاتحاد السوفياتي بتزويد « الدرغ » بمقاتلات ميغ ، ودبابات حديثة ، وقنابل موجهة ، ومدفعية بعيدة المدى بما قيمته حوالى ٤٠٠ مليون دولار أميركي . كان لدى اثيوبيا احتياطي من العملات الأجنبية لا يقل عن ٣٠٠ مليون دولار وقد تلقت دعماً من ليبيا مما أمكنها البحث لشراء الأسلحة . في الشهر التالي أغلق « الدرغ » مكتب المعلومات الأميركي ، ووحدة الابحاث البحرية ، ومحطة كاغنيو والمجموعة الاستشارية للمساعدة العسكرية وقد انهار التحالف بين اثيوبيا والولايات المتحدة بحيث فقدت اثيوبيا امدادات اسلحة أميركية مقررة سابقاً بما قيمته ١٠٠ مليون

---

* « ميسون » هو التعبير الأمهري للحركة الاشتراكية لعموم اثيوبيا وكان نيجيد احد قادتها الكبار .

دولار،وبعد شهر من ذلك سافر منغيستو الى موسكو للتأكيد على المساعدة العسكرية السوفياتية ، وفي ١٩٧٨ قام الاتحاد السوفياتي والمانيا الشرقية بتزويد اثيوبيا من الأسلحة بما قيمته أكثر من مليار دولار أميركي .

ونتيجة للامدادات الضخمة للأسلحة، كانت العناصر البشرية السوفياتية ، والالمانية الشرقية ، والكوبية اسياد التكنولوجيا الحربية في اثيوبيا وهم الذين رعوا الاستراتيجية العسكرية في اوغادين . وقد انشئت لجنة دفاع خاصة في وزارة الدفاع في اديس ابابا ، تألفت من ضباط سوفيات وكوبيين واثيوبيين . وبقيت هذه اللجنة قائمة بعد تراجع الجيش الصومالي وهي تدير الآن الحرب في اريتريا (ربما من دون مشاركة كوبية) . كما يتمركز خبراء عسكريون اجانب في مواقع القتال في هرر واسمره على التوالي .

كما تطلبت صيانة ومعالجة الاسلحة الجديدة مجموعة كبيرة من الخبراء الاجانب ، من الاتحاد السوفياتي ولكن أساساً من « بلدان ثالثة » مثل كوبا واليمن الجنوبية . ويعني ذلك ضمنياً مشاركة فعالة أيضاً في جبهات القتال . وهناك اماكن معينة مثل قاعدة دبري زيت الجوية وسيغاميدا (معسكر الميليشيا غرب العاصمة) يحتشد فيها روس وكوبيون لمهمة تصليح الأسلحة وتدريب الجنود النظاميين وميليشيا الفلاحين . كما جرى تدريب عسكريين اثيوبيين ايضاً في الاتحاد السوفياتي ومن ضمنهم حوالى ٤٠ طياراً تعلموا هناك قيادة المقاتلات من طراز ميغ .

في مطلع ١٩٧٧ ادّعى الصومال ان ما بين خمسة آلاف وتسعة آلاف جندي أجنبي « من بلد غير افريقي » (ربما من كوبا) أرسلوا الى اثيوبيا لضرب المقاومة في الجنوب الشرقي وفي الشمال . ولم يتأكد هذا الادعاء أبداً ولكن مجلة « غرانما » الكوبية اعترفت لاحقاً باشتراك كوبي نشيط في حرب اوغادين منذ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٨ فصاعداً . وفي الشهر التالي سرت شائعات عن وجود خمسة آلاف جندي كوبي في اثيوبيا ، وهو الرقم الذي رفعته المخابرات الأميركية في وقت لاحق الى حوالى ١٧ ألفاً برغم ان المصادر الأميركية ليست بالمصادر الموثوقة جداً عندما يتعلق الأمر بأعمال عسكرية معادية لأميركا .

وحتى منتصف ١٩٧٨ لم تكن جبهة التحرير الاريترية قد اعترفت رسمياً بوجود سوفياتي أو كوبي في اريتريا (في ما عدا تأكيد الجبهة ان طيارين سوفيات اشتركوا في

الهجوم الاثيوبي على مصوّع في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٧) ، ولكن مايكل دافي مراسل «الاسوشيتدبرس» قال ما يلي بعد زيارة للمنطقة في أيار (مايو) ١٩٧٨ :

« إن مسألة الوجود السوفياتي ـ الكوبي هي مسألة ساخنة بالنسبة لجبهة التحرير الأريترية التي كانت تعتمد على مساعدة الكتلة السوفياتية في منتصف الستينات . وفي اتصالاتنا مع « قواعد » جبهة التحرير الأريترية في الجبهة كنا نسمع يومياً عن مقتل مئات الكوبيين وأسر الكثيرين في القتال قرب اسمره .وقيل ان الكوبيين كانوا يشغلون الدبابات والمدفعية والمعدات المعقدة الأخرى المقدمة من الاتحاد السوفياتي . ولكن الأعلى رتبة في سلم السلطة في جبهة التحرير الأريترية كان الأكثر ابتعاداً عن الحديث حول الوجود الكوبي ـ السوفياتي . . . فقد أبلغنا الأمين العام للجبهة تسفاي ولدى مايكل بأنه لا دليل هناك على وجود كوبيين ينشطون في القتال وبأن جبهة التحرير الأريترية ما تزال تنظر اليهم باعتبارهم « أصدقاء استراتيجيين » لها[١٠] . إلا أن الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا ، من ناحية اخرى ، كانت أكثر وضوحاً :

« . . . شنت القوات الاثيوبية المعتدية ، المحاصرة في اسمره ، هجوماً واسعاً من اسمره يوم ١٤ آذار (مارس) ١٩٧٨ . كانت القوة الاثيوبية مؤلفة من ١٠ آلاف جندي مدعومة بـ ٢٠ دبابة وغطاء جوي كثيف ومدفعية ثقيلة . وقد تحرك الجنود الكوبيون والاثيوبيون على جبهة بعرض ٣٦ كيلومتراً . . . وفي محاولتهم الفاشلة لاطالة امد استعمار اريتريا نقل المعتدون الاثيوبيون كميات ضخمة من الأسلحة والقوات الى اسمره بطريق الجو . وفي الاسبوعين الأخيرين وحدهما وصل من الكوبيين ١٥٠٠ جندي مما رفع عدد الجنود الكوبيين في اسمره الى ٣٥٠٠ »[١١] .

كان لهيئة الاذاعة البريطانية مراسل في مصوّع أكد في كانون الثاني (يناير) ١٩٧٨ الاتهامات القائلة بأن البحرية السوفياتية قصفت الميناء . كما أن مصادر مستقلة اخرى تحدثت ايضاً عن وجود قوات أجنبية مقاتلة في اريتريا . وبرغم أنه لا يمكن القول ان منغيستو موثوق بشكل خاص ، فإن مما يجدر ذكره انه تحدث في خطاب له في هرر يوم ١٦ ايار (مايو) ١٩٧٨ عن الكوبيين فقال انهم « يعيشون معنا ، يموتون معنا ويقاتلون معنا » كما تحدث عن « دماء تسيل كل ساعة على أرض المعركة » ، مشيراً الى جنود من الكتلة الشرقية ساعدوا القوات الاثيوبية في اريتريا . ولكن كلاً من كوبا واليمن الجنوبية تعرضتا لاضطراب واضح بسبب دورهما الجديد في اريتريا . لقد خشيتا ارسال أي من قواتهما الى الجبهة الشمالية ، وفي حزيران (يونيو) ١٩٧٨ بدا أن كوبا رفضت تقديم أي دعم عسكري للهجوم الذي كان قد بدأ في اريتريا[١٢] . ولكن ، ويجب تكرار هذا

دائماً ، فإن كوبا تساعد على استمرار الحرب في اريتريا ما دامت قواتها في اثيوبيا وتساعد على بقاء « الدرغ » وعلى اراحة القوات الاثيوبية في الجبهات الأخرى (خاصة في اوغادين) .

والكتلة السوفياتية لم تكن مصدر السلاح الوحيد لاثيوبيا . ففي شباط ١٩٧٨ كشفت مصادر حكومية في واشنطن النقاب عن ان إسرائيل زودت النظام الاثيوبي بقنابل موجهة وقنابل نابالم (مما قد يفسّر الشائعات عن زيارة منغيستو ومايكل ايمرو لاسرائيل في تموز ١٩٧٧) . وبعد وقت قصير من ذلك أكد وزير الخارجيَة الاسرائيلي موشي دايان مساعدة بلده العسكرية لاثيوبيا . ويومها طالب سياسي معارض في الكنيست وعضو مهم في لجنة الخارجية والدفاع الاسرائيلية ، هو يوسي ساريد ، باستقالة دايان لأنه « سبّب ضرراً يتعذر اصلاحه لأمن اسرائيل » . ولانقاذ ماء الوجه ، كان على « الدرغ » طرد الاسرائيليين من اثيوبيا .

السياسة في التعاون بين الاتحاد السوفياتي والعالم الثالث

هناك أوجه شبه سطحية بين الاتحاد السوفياتي العام ١٩١٧ واثيوبيا العام ١٩٧٤ . ففي شباط ١٩١٧ أسقطت الطبقة البورجوازية الطبقة الارستقراطية وتلاها في تشرين الأول تحول في ميزان القوى لمصلحة البروليتاريا . وبالمثل ، في اثيوبيا ، كانت نتيجة النضال الطبقي الذي يزيد عمره على عشر سنوات بين الارستقراطية والبورجوازية الوطنية الحديثة نسبياً انتصار الأخيرة في النهاية ممثلة باندلكاشيوميكونين . (لم يسقط الامبراطور رسمياً حتى ايلول مع أنه في الواقع فقد السلطة بسقوط حكومته في شباط) . وقد استمر نضال الطبقة العاملة الاثيوبية على امتداد العام ١٩٧٤ ، وفي وقت متأخر من ذلك العام استولت على السلطة باعلان « الاشتراكية الاثيوبية » وفقاً لنموذج « الدرغ » . وعلى الأقل نستطيع ان نتفق على أن كلتا الثورتين « خلقتا موقفاً تحسنت فيه كثيراً فرص تحرر الطبقة العاملة المدينية بالرغم من ان التطورات اللاحقة لم تأخذ طريقاً مستقيماً »(١٣) .

ولا يسعى « الدرغ » الى الحصول على دعم من بين البروليتاريا المدينية فقط وانما من بين فلاحي اثيوبيا الوسطى والجنوبية ايضاً ، إنما في النظرية الماركسية السوفياتية ، يقوم قطاع الفلاحين في ثورة اجتماعية ، يجعل طبيعتها أساساً بورجوازية صغيرة وربما يحرفها بالتالي عن مسلكها الاشتراكي . قد نفهم هنا وجود اهتمام سوفياتي بتوجيه الثورة الاثيوبية في « الاتجاه الصحيح » ولكن هذا الاهتمام هو ذو طبيعة براغماتية اكثر مما هو

ذو طبيعة ايديولوجية (الحجج الايديولوجية تضاف في العادة لاحقاً) . ومن الأمور الدالة ، أيضاً ، انه بينما يذهب الدعم الصيني لاثيوبيا أساساً الى تحسينات على نطاق صغير في الريف (الزراعة والصحة) فإن الجزء المدني من التعاون السوفياتي مع اثيوبيا يتركز كله في الصناعة والزراعة التجارية .

لقد كان الاتحاد السوفياتي ، وما يزال ، دولة متعددة القوميات تماماً كما هو الأمر بالنسبة لاثيوبيا . وفي اثيوبيا يوجد صدى لتفسير ستالين الخاص للينينية و « حله » للمسألة القومية . فقد تدخل الجيش الأحمر في أراض وصفت بأنها تعود للفلك السوفياتي عندما دخل جورجيا في مطلع العشرينات من هذا القرن بناء لأوامر ستالين وهو ما لم يحبذه أي من لينين أو تروتسكي . ولا يوجد لينين في اثيوبيا اليوم (بالرغم من أن البعض يحاول ادعاء ذلك) ، بل نسبة كبيرة فقط من الايديولوجية السوفياتية التقليدية (للعشرينات وكذلك للعام ١٩٥٦ والعام ١٩٦٨ . . .) « والدرغ » البراغماتي . كان يقال دائماً ان الجيش الأحمر يتدخل ضمن مبدأ دعم الانتفاضات الشيوعية التي تقوم فعلاً . وفي اثيوبيا ، من جهة أخرى ، وبعد كل التنديد بالشعوب الأريترية سواء بالدعاية أو بالقنابل ، فإن تدخل جيش « الدرغ » يصعب كثيراً تبريره من منطلق ثوري ، لأن عنصر النضال الطبقي هش جداً في الواقع ، في حرب تجري بالدبابات والمدفعية ومن الجو . بعد العام ١٩١٧ اتفق القادة السوفيات على ان ثورتهم ليست للتصدير . واليوم ايضاً ، فإننا عندما نمعن النظر النقدي بالصداقة المفاجئة بين النظامين السوفياتي والاثيوبي لا نملك الا ان نتساءل عن « الدافع الثوري » للمساعدة السوفياتية .

منذ منتصف الخمسينات أيد الاتحاد السوفياتي ثورات في عدد من البلدان لم تكن حكوماتها دائماً ، بالمقابل لتشيد بالنيات الشرقية . وعموماً فبعد الاحداث في الكونغو العام ١٩٦١ (سقوط لومومبا) ، الجزائر ١٩٦٥ (بن بللا) ، اندونيسيا ١٩٦٥ (سوكارنو) ، غانا ١٩٦٦ (نكروما) ومالي ١٩٦٨ (كيتا) ، فقد القادة السوفيات معظم تفاؤلهم السابق (فقده أيضا المؤيدون المحتملون للاتحاد السوفياتي بعد تشيكوسلوفاكيا العام ١٩٦٨) . وفي موسكو جرى التخلي عن بند « الديموقراطيات الثورية » وبرز « الطريق اللارأسمالي للتطور » الذي فاق طوله احلام خروشوف . والأهم من ذلك فلم يكن الاتحاد السوفياتي يملك الموارد الكافية لمساعدة كل تلك البلدان التي ادعت عداءها للامبريالية ، ولذلك أصبح اتصاله

الثنائي يعتمد على الاختيار . وبين البلدان التي اختيرت كانت هناك بلدان ذات أهمية بالنسبة للمصالح الاستراتيجية السوفياتية وسياسة الأمن .

إن المبادىء الأساسية للعون السوفياتي للبلدان النامية لم تتغير في العقدين الأخيرين من الزمن ولكن الأولويات تغيرت . وبينما جرى التشديد على النواحي السياسية بصورة رسمية حتى منتصف الستينات فإن الاعتبارات الاقتصادية العملية قد سيطرت إذ ذاك اكثر فأكثر . ولذلك لم يختف الدعم السوفياتي لتحرير بلدان من السيطرة الامبريالية نهائياً (مثلاً دعم انغولا ، موزامبيق وحركات التحرير في افريقيا الجنوبية) ، ولكن المكاسب الاقتصادية المجردة التي يستطيع كل من المتلقي والمزوِّد تحقيقها من التعاون الثنائي الخاص تلقى تركيزاً خاصاً الآن .

وكما كان الأمر قبل سقوط خروشوف في العام ١٩٦٤ ، ما زال الاتحاد السوفياتي يبدي ثقة كبيرة بالقطاع العام في البلدان النامية ، الذي قوي بتأميم الملكية الخاصة الأجنبية والمحلية ، بالتصنيع وبتوسيع الروابط الاقتصادية مع الكتلة الشرقية . ونتيجة لذلك ازدادت تجارة « الشرق ـ الجنوب » بسرعة خلال العقدين الماضيين من الزمن بالرغم من انها ما زالت ضئيلة بالمقارنة مع تجارة « الغرب ـ الجنوب » ، ويتوجه العون السوفياتي اساساً الى تلك البلدان التي تنشىء صناعة مملوكة من الدولة .

والقادة السوفيات صريحون نسبياً في صياغتهم لأهداف التعاون السوفياتي مع العالم الثالث[١٤] :

ـ تعزيز النمو الاقتصادي في البلد المعني .
ـ المساهمة في انتاج تلك السلع الرخيصة الكلفة أو الوفيرة نسبياً في البلدان النامية وتصديرها الى الاتحاد السوفياتي .

ـ اقامة تعاون اقتصادي مديد و « تقسيم اشتراكي للعمل » يكون مخططاً بين الكتلة السوفياتية والبلدان النامية .

ولهذا ، فإن قانون المصلحة النسبية هو الأساس الأيديولوجي للتعاون بين الاتحاد السوفياتي والعالم الثالث ، أو كما قال رئيس الوزراء الكسي كوسيغين : « انه يجب التشديد على أهمية التقسيم المستقر للعمل بين البلدان الاشتراكية والبلدان النامية » . وعندما نتفحص هذا التعاون علينا أن نتفق مع القادة السوفيات على أن « التجارة وليس العون » أصبح مبدأهم المرشد . ولكننا ربما نشك في ما اذا كان هذا التقسيم للعمل

سيعود بالفائدة مطلقاً على الشركاء الضعفاء . وفي هذا كتب اندريه غوندر فرانك يقول :

« . . . في ما يتعلق بالتناسب في العوامل وتركيب السلع في تجارة الشرق ـ الغرب والشرق ـ الجنوب تعتبر البلدان النامية بالنسبة للبلدان الاشتراكية مماثلة لوضع هذه الأخيرة بالنسبة للبلدان الرأسمالية المتطورة (أو العكس بالعكس) . وفي كلمات أخرى تحتل البلدان الاشتراكية موقعاً وسيطاً ـ يتشابه في هذا المجال ، بالبلدان التابعة للامبريالية الأكثر تطوراً مثل البرازيل ـ في التقسيم الدولي للعمل ، فهي تستورد صناعات تكنولوجية متقدمة من البلدان الصناعية الرأسمالية وتدفع لها مواد خاماً مما يؤدي الى عجز تجاري متزايد ، وتصدر صناعات أدنى تقدماً الى البلدان النامية التي تتمتع معها بفائض تجاري تستخدم جزءاً منه لتخفيف عجزها التجاري مع البلدان الامبريالية ، وشبيه ايضاً بالبلدان الرأسمالية التابعة للامبريالية »(١٥) .

والمبدأ الموجه في تثبيت الأسعار بين الاتحاد السوفياتي والعالم الثالث هو سعر السوق العالمية السائد لأية سلعة . ولذلك فإن مكاسب التجارة ليست موزعة بالتساوي بينهما .

« . . . بالنسبة لمجموعة البلدان الأخيرة فإنها تتلقى لبضائعها اسعاراً لا تكاد تزيد عما تتلقاه من الغرب ، بينما يستطيع الاتحاد السوفياتي أن يحصل على أسعار أعلى بشكل ملحوظ من العالم الثالث مما يمكن أن يحصل عليه من الغرب »(١٦) .

وأكثر من ذلك ،

« . . . فالاتحاد السوفياتي يحافظ على سعر مصطنع عال للروبل ، ليس في مقابل العملات القابلة للتحويل ، وإنما في مواجهة عملات العالم الثالث غير القابلة للتحويل »(١٧) .

ويضرب تحليل اندريه غوندرفرانك في قلب النموذج السوفياتي لـ « الاشتراكية والأممية البروليتارية » :

« إن ما تظهره التجربة هو أن البلدان الاشتراكية لأوروبا الشرقية تمارس العمل في التجارة الدولية بفرض اتفاق قاسٍ كأية دولة اخرى . . . وفي البلدان الرأسمالية النامية لا تعزز علاقات الشرق ـ الجنوب الاقتصادية مصالح الطبقات المنتجة المستغلّة ـ بالتمييز عن الطبقات المالكة ـ بأكثر مما تفعل علاقات الغرب ـ الجنوب الرأسمالية »(١٨) .

ومما قيل هنا ، ينبغي ان يكون واضحاً أن الاتحاد السوفياتي يحتل موقعاً في الاقتصاد

العالمي يختلف نوعياً عن الموقع الذي تحتله البلدان الرأسمالية المتقدمة . ويمكن التساؤ ل عما اذا كان أي من الصور الأساسية الخمس التي وضعها لينين للامبريالية تنطبق على علاقات « الشرق ـ الجنوب » (خلق احتكارات ، خلق رأسمال تمويلي، تصدير رأس المال ، اقامة مؤسسات رأسمالية احتكارية دولية ، وتقسيم جغرافي للعالم كله بين القوى الرأسمالية الأكبر) . ان الامبريالية هي شكل واحد من أشكال استغلال البلدان النامية . وقوى الرأسمال الاحتكاري في الغرب غير موجودة في الاقتصاد المخطط للشرق، كما ان آثارها لا تظهر في التراكم الكبير للرأسمال . ولذلك فإن الاتحاد السوفياتي لا يبحث عن اسواق اخرى للتخلص من انتاج فائض أو رأسمال فائض ، وإنما يستهدف تغطية الطلب الداخلي على سلع معينة . والصادرات هي وسيلة لجعل الواردات من هذه السلع ممكنة . وفي مقاربة مع تاريخ الامبريالية كمرحلة للتوسع الرأسمالي يبدو واضحاً ان عبارة « الامبريالية الاشتراكية » ناقصة .

تجربة التعاون الاثيوبي مع الكتلة السوفياتية

لقد دعم الاتحاد السوفياتي في العام ١٩٧٦ « برنامج الثورة الوطنية الديموقراطية » في اثيوبيا ، وقامت وفود بزيارتها تعبيراً عن التقدير لواضعيه . وقد جرى توقيع اتفاقات ثقافية متعددة ، كما أعطيت منح دراسية للطلاب الاثيوبيين (٤٠٠ الى الاتحاد السوفياتي و٣٠٠ في اوروبا الشرقية ، ولكن نفقات معظم هؤلاء الطلاب دفعتها الحكومة الاثيوبية ، وبعض الطلاب في موسكو الذين اعترضوا على « الدرغ » اعيدوا الى اديس ابابا ليلقوا العقاب) . كما وقعت اتفاقية تجارية مع المانيا الشرقية واتفاقية تعاون مع تشيكوسلوفاكيا . وعندما قام منغيستو بزيارته الرسمية الى الاتحاد السوفياتي في ايار (مايو) العام ١٩٧٧ تم الوصول الى العديد من الاتفاقات الثنائية للتجارة والتعاون وأضيفت منذ ذلك التاريخ اتفاقات أخرى لاحقاً .

في تشرين الأول (نوفمبر)٩٧٧ توجه وفد اثيوبي الى المانيا الشرقية للتفاوض حول بنود التعاون بين البلدين ، إلا أنه حيثما برز خلاف بين المصالح الألمانية الشرقية والاثيوبية كانت للمضيفين اليد العليا وأملوا شروطهم . وقد انقسم الاثيوبيون الى فريقين : أحدهما يدعم المصالح الاثيوبية حتى لو أدى ذلك الى رفض الماني شرقي وانهيار محتمل للمفاوضات ، والثاني يرضخ للشروط الألمانية الشرقية القاسية ويناصر الاخوة الاشتراكية بأي ثمن على الاقتصاد الاثيوبي . ولا حاجة للقول ان الفريق الثاني هو الذي

عاد منتصراً ، وأن تدهور الاقتصاد الاثيوبي الضعيف أصلاً قد يكون في النهاية هوثمن هذه التبعية الأثيوبية .

إننا نعرف ان الاتحاد السوفياتي واوروبا الشرقية يشتريان سلعاً أولية رخيصة من بلدان نامية ويبيعان السلع نفسها أو أنواع مماثلة من السلع الى بلدان أخرى وبأسعار أعلى . وفي مقابل الأسلحة التقنية العسكرية المستوردة من المانيا الشرقية ، فإن اثيوبيا ملزمة ببيع معظم محصولها التصديري الهام [أي] البن ، طيلة الأعوام العشرة المقبلة وبسعر ثابت . وبعد تصنيعه في المانيا الشرقية يعاد تصدير البن الى المانيا الغربية وغيرها .

لقد وقع الاتحاد السوفياتي واثيوبيا عقوداً عدة للمساعدة الثنائية تحدّد شروط العون المقدم من الاتحاد السوفياتي الى مختلف الشركات الحكومية والسلطات الاثيوبية . والعقود كلها تبدو متشابهة الى حد أو آخر . أحدها وقع في نهاية العام ١٩٧٧ بين شركة حكومية اثيوبية معينة (أشير اليها ادناه باسم ESC) وشركة Vsesojuznoje Exportno-Importnoe Objedinenije seklhozpromenport: Ovchinnikovskaja nab, moscow 113324 (وقد أشير اليها باسم VE'I) . وينص هذا العقد على ما يأتي :

- ستقدم VEI مساعدة فنية في تسيير عدد من المنشآت .
- ستدفع ESC رواتب خبراء الـ VEI بمعدل ٧٥٠ - ١٠٠٠ روبل للشخص شهرياً (حوالى ١٤٠٠ - ١٨٠٠ دولار أميركي) لمدة عامين ، وكذلك جميع الضرائب التي قد تترتب على الخبراء وعلى مترجم واحد (راتب الأخير تدفعه الحكومة السوفياتية) .
- ستدفع ESC جميع نفقات السفر جواً للخبراء وعائلاتهم ، موسكو - اديس ابابا والعودة اضافة الى أجور نقل الامتعة الإضافية .
- ستدفع ESC اجازة ٣٦ يوماً ، اجازة مرضية وحتى شهرين في العام مع بدلات السفر الاضافي الى موسكو ومنها (بالشروط نفسها المذكورة سابقاً) .
- ستدفع ESC نفقات التأمين على خبراء VEI لدى شركة التأمين السوفياتية Gosstrakh .
- ستزود ESC خبراء VEI والمترجم بمكاتب كاملة التجهيز ووسائل نقل ومساكن كاملة التأثيث أو فنادق درجة اولى ، مع وسائل الراحة الحديثة كلها بما فيها البرادات ومكيفات الهواء في مكان العمل الدائم وخلال رحلات العمل كذلك .

- ستوفر ESC لخبراء VEI والمترجم وعائلاتهم الدواء والعون الطبي والاستشفاء مجاناً .

- ستدفع ESC كافة نفقات السفر للخبراء والمترجم وعائلاتهم بين اديس ابابا وموقع العمل بالطائرة أو بالسيارة أو بالقطار درجة أولى .

- جميع المدفوعات تحول من قبل ESC بالروبل عبر « **بنك التجارة الخارجية في الاتحاد السوفياتي** » .

إن نفقات هذه العملية تقدر بما لا يقل عن نصف مليون دولار أميركي . أما الرواتب فتدفع الى الحكومة السوفياتية ويعود قسم منها [فقط] الى خبراء VEI . وعملياً ، فهذا يعني أن الحكومة السوفياتية كسمسار مساعدة تحصل على أرباح صافية من بيع الخبرة السوفياتية الى اثيوبيا . ولكن ما حدث هو أن العملية كلها أصبحت غالية بالنسبة الى ESC ، لأنه تبين لدى وصول خبراء VEI انهم لا يجيدون اللغة الانكليزية بما يكفي (وفقاً ومن هنا المترجم الذي كان عليه ان يخدم في وقت واحد حوالي ١٢ من رفاقه) ، وانهم لم يكونوا مؤهلين فنياً للعمل (خاصة بالنسبة للآلات الأميركية أو الأوروبية الغربية) ، وأنهم لم يكونوا على معرفة بالبيئة التي تقوم فيها المصانع ولا بالشروط أو العمليات الفعلية للانتاج .

الخلاصة

في خلال الحقبة الأميركية في اثيوبيا عانت غالبية السكان معاناة شديدة ، والعديدون ماتوا نتيجة لاستغلالهم اقتصادياً . والمجاعات المختلفة ، التي تجاهلتها الحكومة الامبراطورية المدعومة من قبل أميركا ، أدت الى موت مئات الآلاف من الناس بالاضافة الى نسبة وفيات « طبيعية » عالية جداً . واليوم استطاع الفلاحون الفقراء في جنوب ووسط اثيوبيا ، عموماً ، تحسين مستوياتهم المادية ، ولكن الوفيات نتيجة للمجاعة لم تختف* كما أضيف الى احصاءات الموتى مئات الألوف من الضحايا السياسيين . وهؤلاء الضحايا يمكن تقسيمهم الى ٣ فئات : اعداء « الدرغ » مشاركين نشيطين في ثورة « الدرغ » (بارادتهم أو من دون ارادتهم) ، والفريق الثالث غير النشيط .

* حسب تقارير اللجنة الدولية للصليب الأحمر للعام ١٩٧٩ ، يواجه مليون و٨٠٠ ألف نسمة المجاعة مجدداً في منطقتي وولو وتيغراي وحدهما (المحررون) .

وتتألف الفئة الأولى من المقاتلين ومؤيدي حركات التحرر الوطنية ، خاصة في اوغادين ، اريتريا، غوندار وتيغراي ، ومن اعضاء ومؤيدي مجموعات المعارضة النشيطة ، وخاصة حزب الشعب الثوري الاثيوبي EPRP . وباختصار فإن الارهاب الأحمر ضد هؤلاء يتألف من غارات جوية ، وهجمات بالقنابل ، ومجازر وعمليات قتل جماعية من دون تمييز ، وازالة القرى والجماعات والسجناء السياسيين . وهجمات « الدرغ » الكثيفة هذه ضد اعدائه ما كانت لتكون ممكنة من دون الدعم العسكري السوفياتي .

الفئة الثانية تتألف من أولئك الجنود والفلاحين الذين أجبروا أو أغروا بالقتال في مناطق لم يكونوا فيها قبلاً ، وضد ناس لم يسمعوا بهم قبلاً ، وباسم قضية لم يفهموها أبداً . وتعبئة حوالى مائتي ألف من هؤلاء الذين قتل أو تعطل العديد منهم ، لم تكن ممكنة أيضاً من دون الدعم المعنوي الخارجي والتدريب أو من دون الامدادات الكبيرة من الأسلحة السوفياتية التي سلحوا بها .

وتعبئة الموارد البشرية [المالية] والرأسمالية لأغراض عسكرية أثرت سلباً على الفئة الثالثة ، أي أولئك الناس الذين لم يقفوا بنشاط الى أي جانب في النزاعات المسلحة . وأحد الأمثلة يكمن في الآثار التي تركها على الانتاج الزراعي تجنيد قوة العمل الزراعية في الميليشيا . والمثل الثاني هو المجاعة في العام ١٩٧٨ والتي كان يمكن منعها في مراحلها الأولى لو أن الوسائل كانت متوفرة . وبالرغم من واقع أن هذه المجاعة كانت متوقعة وأن « الدرغ » كان يدرك ذلك منذ اواخر العام ١٩٧٧ فإن معظم الموارد ـ حتى بعض عربات بعثة الانقاذ واعادة التأهيل ـ صودرت لاستخدامها ضد « اعداء الثورة »(١٩) . واليوم ، تقوم بعثة الانقاذ واعادة التأهيل بتعبئة مواردها لانقاذ السكان الجائعين ولكنه كان يمكن تجنب الكثير من المعاناة . وبثمن ادنى بكثير ، قبل عام كامل . وهذه الآثار الجانبية للعمليات العسكرية لم تعتبر جزءاً من « المنافع النسبية » في اتفاقات التعاون السوفياتية ـ الاثيوبية .

بعد أن قوبلت الولايات المتحدة بالصدّ في نيسان (ابريل) ١٩٧٧ امتنعت عن التصويت عندما اثيرت مسألة تقديم قرضين لاثيوبيا من قبل البنك الدولي . ولكن فقدان حقوق الانسان ووجود الشرق بقوة في اثيوبيا لم يمنعا القوى الامبريالية من ضمان موطىء قدم لها في البلاد : اقرار قروض من البنك الدولي بقيمة مائة مليون دولار . وفي العام ١٩٧٦ قررت السوق الأوروبية المشتركة مساعدة اثيوبيا بمبلغ ١٥٠ مليون دولار

للفترة من ١٩٧٦ الى ١٩٨٠ ، وفي عامي ١٩٧٧ و١٩٧٨ قدمت مساعدة من المانيا الغربية والسويد كما بقي ظاهراً الارتباط بالشؤ ون الاثيوبية . وفي تعميم نصف سري من « الدرغ » في آب (اغسطس) ١٩٧٧ منعت منذ ذلك اليوم كتابة كلمة « الامبريالية الأميركية » أو « الصهيونية » في أية صحيفة . أي بدأ يختفي اللون الأحمر من شعار « الدرغ » المعادي للامبريالية .

لا يمكن الحكم على دولة عظمى على أساس سياسات دولة [عظمى] أخرى ، ولكن يجب عقد بعض المقارنات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. فالمساعدة الغربية لاثيوبيا غطت ، بما في ذلك الأغذية والمساعدات الطارئة ، حقلاً أوسع من المساعدة السوفياتية والأوروبية الشرقية . وحتى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٧ ، على الأقل ، فإن المساعدة الخارجية الوحيدة ذات الطبيعة الانسانية جاءت من الولايات المتحدة وأوروبا الغربية . ومعظم سكان المدن عانوا أو اقتربوا من الاعدامات السياسية (اصدقاء وأقارب) وباتوا يفضلون « الحقوق الانسانية » لكارتر - كيفما كانت - على اسلحة بريجنيف .

لقد استبدل المحاضرون الأميركيون في الجامعة بمحاضرين روس . والفردية الأميركية استبدلت بالماركسية السوفياتية (التي لا تختلف نظرياتها الاقتصادية كثيراً عن نظريات الرأسمالية الأميركية التي جرى تعليمها سابقاً) . والمناقشات المفتوحة في المحاضرات ممنوعة الآن ، كما أن معظم الاساتذة السوفيات لا يتكلمون لغة انكليزية مفهومة ولا يقبل أحد منهم أي اتصال من الطلاب بعد ساعات الدراسة . وكما لم يكن المحاضرون الأميركيون مقبولين بشكل خاص من الطلاب فإن خلفاءهم ليسوا اكثر شعبية منهم .

فالخبراء الأجانب الجدد يعزلون أنفسهم عن الحياة الاثيوبية اكثر مما كان يفعل الغربيون . وحواجز اللغة تلعب أيضاً دورها كحواجز للتفاهم بين الاثيوبيين والأجانب وخاصة الروس . ومعلومات هؤلاء الأخيرين عن التطورات السياسية اليومية محدودة الى الحد الأدنى . وينطبق ذلك الى حد ما على الأرجح على السفارات الشرقية ودوائر الاستخبارات ايضاً التي تعتمد في معلوماتها على دعاية « الدرغ » الرسمية وبعض الضباط الاثيوبيين . وبينما يقيم الكوبيون في انغـولا اتصالات مباشرة مع السكان العاديين (بالاسبانية والبرتغالية) فإنهم في اثيوبيا يواجهون صعوبات كبيرة ليس في محاولة فهم التطورات والشخصية الحقيقية للطغمة العسكرية الحاكمة فقط وإنما في

طاقتهم كموظفين مدنيين ايضاً - معظم الكوبيين المدنيين يعملون في حقل الطب - (ولكن، ولأن الكوبيين يتعلمون الانكليزية تدريجياً فإن الحواجز بينهم وبين الاثيوبيين قد تختفي ، مما قد يغير أيضاً على المدى البعيد مواقف الكوبيين من « الدرغ » ومن أعدائه) . والحياة الاجتماعية الجامدة للأجانب ، موقعهم كغرباء ، وعزلتهم تشكل كلها احباطاً لهم وربما تفسّر عدداً من الحوادث الغريبة التي تورط فيها بعضهم (وفي بعضها شحنة من التمييز العنصري) ولقيت معارضة قوية من الرأي العام الاثيوبي .

والدعم العسكري الشرقي « للدرغ » غير المقبول شعبياً ، وشروط التعاون غير المؤاتية بين الكتلة السوفياتية واثيوبيا ، وغربة الأجانب الجدد عن الحياة الاجتماعية الاثيوبية . . . هذه العوامل كلها أدت الى تقوية الحواجز بين السوفيات ، خاصة ، والطبقات البيروقراطية والبورجوازية الصغيرة والعاملة في اثيوبيا . والنفور الاجتماعي كانت له آثار سياسية حتى على الدوائر العسكرية الاثيوبية .

إذا أثبت منغيستو انه محق عندما قال ان « حرب اريتريا قد تستمر لأجيال » فإن الاثيوبيين قد يضطرون للعيش تحت الهيمنة السوفياتية لبعض الوقت . ولكن إذا تم الاعتراف بحق اريتريا في تقرير المصير وأصبح ذلك حقيقة فإن الاتحاد السوفياتي سيطرد من اثيوبيا باعتبار أن مهمته المدنية لا تلقى أي دعم من أي طبقة اجتماعية في البلاد. والدائرة المغلقة من الاعتماد المتبادل بين « الدرغ » والاتحاد السوفياتي يمكن تحطيمها عن طريق قلب النظام الأول . وسيشكل نضال اريتري موحد وطويل جزءاً حاسماً في هذا العمل ، كما كان الأمر في قلب نظام هيلاسيلاسي في العام ١٩٧٤ .

المراجع

(١) Mennen Williams, *United States Policy in Africa,* (Special Report, Williams College), March 18, 1965, p. 4.

(٢) من أجل مزيد من الاطّلاع هنا نموذج من المنظمات :

AFL- CIO,, Aid for International Medicine, American Leprosy Missions, the American Lutheran Church, Christian Brothers, Church World Service, Eastern Mennonite Board of Missions and Charities, The Ford Foundation, Lutheran World Relief, Medical Missionaries of Mary, Medical Mission Sisters, Missionary Aviation Fellowship, The Orthodox Presbyterian Church, The Pathfinder Fund, Public Administration Service, Public Welfare Foundation, Rockefeller Foundation, Sudan Interior Mission, United Church Board for World Ministries, United Presbyterian Church in the

USA, USAID, US *Information Service, World Neighbours.*

(٣) *New Times,* no. 32, 1977.

(٤) *Keesings,* p. 28992.

(٥) بسبب التغير الأخير في ايران سيخف الوجود العسكري الأميركي هناك .

(٦) Madan Sauidie, in *Africa,* no. 68, April 1977, p. 53.

(٧)لتصريح كوبي مبني على سوء فهم اثيوبيا في الوقت الحاضر وسوء فهم رئيسها منغيستو الذي عين نفسه ، انظر :

Raul Valdés Vivo, *Ethiopia, the Unknown Revolution,* (Ciudad de la Habana 1978).

(٨) خطاب لفيدل كاسترو ١٤ آذار (مارس) ١٩٧٨ .

(٩) خطاب لفيدل كاسترو ٧ أيار (مايو) ١٩٧٨ .

(١٠) *Dagens Nyheter,* 13 May 1978, Translated from Swedish.

(١١) بيان عسكري للجبهة الشعبية لتحرير اريتريا ١٧ آذار (مارس) ١٩٧٨ .

(١٢) *Observer,* 11 June 1978

(١٣) W. F. Wertheim, *Evolution and Revolution,* (Penguin, 1974), p. 165.

(١٤) K. Eklund, *Sovjetunionen och u-landerna* , SIDA, Stockholm, May 1977, p. 32.

(١٥) Andre Gunder Frank, Long Live Transideological Enterprise, Socialist Economies in Capitalist International Division of Labour, *Economic and Political Weekly,* (India) vol, 12, no. 6-8, p. 305.

(١٦) N. K. Chandra, USSR and Third World: Unequal Distribution of Gains' *ibid* p. 367.

(١٧) *Ibid* p. 373.

(١٨) Gunder Frank, *op. cit.,* pp. 319 and 325.

(١٩) L. Bondestam, *Expected Famine in Ethiopia.* (RRC, Addis Ababa, October 1977), حيث أظهرت انه « يوجد خطر حتمي في حصول مجاعة في اثيوبيا وربما بنفس حجم المجاعة التي حصلت في ١٩٧٣ » .

القسم الثالث

الثورة الاجتماعية

فرنسوا هوتار

الثورة الاجتماعية في اريتريا

مقدمة

من المهم توضيح الأبعاد الاجتماعية للثورة الاريترية ، لأن مشاركة الشعب والتحول العميق في بناء المتجمع اللذين تما في المناطق المحررة تحت سيطرة الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا يشكلان وجهاً بارزاً لهذا النضال التحرري .

فاستراتيجية التحرر هذه كانت قيادية في الظواهر السياسية والاجتماعية ـ الاقتصادية التي تعتبر جديدة في تاريخ افريقيا الحديث . وفي هذا المجال فان الخطر السياسي للجبهة الشعبية لتحرير اريتريا ـ والذي أصبح بالتأكيد السمة السائدة للنضال التحرري الاريتري ككل ـ والخبرات المكتسبة في تطبيقه في السبعينات الى جانب خبرات حركات التحرر المنتصرة في المستعمرات البرتغالية السابقة، وكذلك النضال المستمر في افريقيا الجنوبية (ناميبيا ، زيمبابوي وجنوب افريقيا) تشكل تركة غنية في مسيرة القارة نحو التحرر الوطني والاجتماعي .

ومن أجل القاء نظرة عميقة في داخل الثورة الاجتماعية القائمة في المجتمع الأريتري ، نجد من الضروري أن نبدأ في القسم الأول بتحليل اجتماعي لأريتريا في فترة ما قبل الثورة . وفي القسم الثاني سنتفحص آثار النضال التحرري على البناء الاجتماعي وعلى علاقات الانتاج في المجتمع الاريتري . والقسم الأكبر من هذه الورقة سيتركز على سياسات وممارسات الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا. الا أننا سنشير الى تجارب وسياسات الجبهة الأخرى وسنقوم في الختام بتحليل شمولي للجبهات الأريترية ومشاريعها السياسية والاجتماعية.

١ ـ المجتمع الأريتري قبل بداية النضال التحرري

لقد تشكل المجتمع الأريتري بفعل تاريخه الداخلي والتدخلات الخارجية على السواء،اذ انه تعرض لنماذج مختلفة من الاستعمار. وبعد قرن تقريباً من قدوم اول استعمار اوروبي حديث في القارة ، الاستعمار الايطالي، يتشكل المجتمع الأريتري اليوم من طبقات اجتماعية متعددة ، بينما تتألف الغالبية الساحقة من السكان من فلاحين يعتمدون على انتاج مورد رزقهم في اطار زراعة وبداوة بدائيتين . وقد أدى دخول الرأسمالية الى البلاد في سياق المرحلة الاستعمارية الى نشوء مجموعات اجتماعية جديدة في المناطق المدينية وأبرز الخلافات الاجتماعية في المجتمع الريفي التقليدي باتجاه طبقات اجتماعية محددة بصورة اكثر وضوحاً.

أ ـ المجتمع التقليدي

كان المجتمع التقليدي يتألف من مزارعين مستوطنين ورعويين رحّل أو شبه رحّل . وهذان القسمان من نمط الحياة يتبعان بطريقة ما التقسيم الجغرافي للبلد الى هضاب وأراض منخفضة (منخفضات) : الزراعة المتوطنة في الأراضي المرتفعةوالبداوةفي الأراضي المنخفضة (المنخفضات) .

١ ـ المجتمع الزراعي التقليدي

كان المزارعون المستوطنون، وما يزالون، منتظمين في تجمعات قروية مؤلفة من اعداد متفاوتة من العائلات الكبيرة. ومعظم العائلات ، التي تشكل السكان الأصليين، تعرف باسم الـ «رستيغنا»(*Restegna*) بينما يعرف الذين هاجروا الى القرية لاحقاً باسم الـ «ماكالاي آيليت»(*Makalai ailet*) النظام السائد لملكية الأرض هو الـ «ديسا» -(*Diesa*)- ملكيةمشاع أو قرى. ولكل عضو في التجمع القروي الحقوق نفسها في استخدام الأرض. وأرض الـ «ديسا»(*Diesa*) مقسمة الى ثلاث فئات وفقاً لخصوبتها . توزع أراض من كل نوع بين الـ«غابار»(*Ghabars*) (أفراد القرية) كل سبع سنوات.

الى جانب الـ «ديسا»(*Diesa*) توجد هناك أيضاً«ميرييت ريستي»(*Meriet risti*) ـ ملكيةالعائلة .وهنايتمتع افراد العائلة الواسعةفقطبحقوق استخدام ارض«ميرييت ريستي» (*Meriet risti*) التي لا يمكن بيعها من دون موافقة افراد العائلة كلهم . ومثل هذه الحالات نادرة جداً. وفي بعض انحاء اريتريا الريفية تقوم ايضاً الـ «ميرييت ووركي»(*meriet worki*) اي الملكية الخاصة للارض .

في معظم قرى المرتفعات الاريترية يمكن العثور على الأنظمة الثلاثة لملكية الأرض .انما الـ «ديسا» (*Diesa*) هي السائدة الى حد بعيد. تم استغلال الأرض بصورة افرادية بينما ادوات العمل كلها مملوكة ملكية خاصة. وباعتبار ان مرتفعات اريتريا الريفية ذات كثافة سكانية [عالية] نسبياً، فان الأراضي الزراعية مقسمة الى قطع صغيرة جداً، وليست موجودة اطلاقاً تقنيات الزراعية الحديثة ـ الري والتسميد الخ . .

معظم المزارعين المستوطنين في الهضاب من المسيحيين. والكنيسة القبطية في الواقع هي المالكة لكمية كبيرة من الأرض في هذا الجزء من البلاد .

وفي ما يتعلق بالسلطة السياسية، فان الـ «رستيغنا» (*Restegna*) فقط هم الذين يسيرون شؤون القرية . اسرة القرية، في الواقع، يديرها مجلس من المسنين يمثل عائلات الـ «ريستيغنا» (*Restegna*) التي هي عموماً من أغنى المزارعين في القرية.

٢ ـ المجتمع الرحّلي التقليدي

توجد المجتمعات الرحّلية وشبه الرحّلية في اريتريا بين القوميات المتعددة التي تسكن الأراضي المنخفضة من البلاد ، وللغرابة فان النظام الاجتماعي ـ السياسي الأقطاعي هو السائد في هذه المجتمعات.

وعلى سبيل المثال، فان مجتمع بني عامر الذي هو رحّل الى حد كبير ، في الأراضي المنخفضة القريبة قد انقسم تماماً الى طبقتين اجتماعيتين متميزتين: ارستقراطية حاكمة وطبقة اقنان. ونبلاء بني عامر يسمّون أنفسهم «نابتاب» (*Nabtab*) الذين يعترفون ، بدروهم، بسيادة رئيس أعلى يسمى بالـ «ديغلال» (*Diglal*). أما الاقنان الذين يشكلون الغالبية الساحقة فيعرفون بـ «تيغريه» *Tigré*. وبرغم الصلات الثقافية والدينية المشتركة، فان انقسام بني عامر الى طبقتين ينبغي تفسيره اساساً بتاريخ معقد من الحروب والغزوات مع خضوع الـ «تيغريه» (*Tigré*) لاحقاً والتفوق الاجتماعي ـ الاقتصادي والسياسي لـ «نابتاب» (*Nabtab*) الذين خرجوا كـ «حماة» لسكان المجتمع من الاقنان.

وبرغم أن الاقنان كان لهم الحق بتملك المواشي، وكان تحديد اراضي الرعي التي تحتلها المجموعات المختلفة في المجتمع يتم فقط عن طريق العادة والاتفاق التقليدي الضمني ، فان الاقنان كانوا يرتبطون بالـ «نابتاب» (*Nabtab*) بسلسلة من القيود الاقطاعية: دفع الجزية، الهدايا الاجبارية المنتظمة والعمل بالسخرة. هذه المزايا الاقتصادية كانت تضمن للسيد الاقطاعي دخلاً فائضاً وغنى زائداً . واذا أضيفت،

امتيازات السيد الطبقية، الاجتماعية والسياسية (العار الاجتماعي الملتصق بالاقنان، استثناؤهم بشكل كامل من الحياة السياسية للمجتمع، حجز جميع الأعمال الوضعية للاقنان الخ..) فان هذه الامتيازات كانت في اساس الشخصية الاقطاعية لهذه المجتمعات.

وتجب هنا ملاحظة انه حتى قبل وبعد الاستعمار على اختلاف انواعه، كانت هذه المجتمعات محكومة بتناقض طبقي كامن أو علني بين الاسياد الاقنان مع سعي الأخيرين لتحرير أنفسهم من اغلالهم الاقطاعية.

ب ـ السيطرة الاستعمارية الايطالية وآثارها على المجتمع الاريتري

أقامت ايطاليا حكمها الاستعماري في اريتريا العام ١٨٨٩. وكانت اهدافها جعل اريتريا:

أ ـ مستعمرة استيطانية
ب ـ قاعدة لشن المزيد من الغزوات الاستعمارية في المنطقة
جـ ـ سوقاً لبضائعها المصنعة.

وهذه الأغراض أثرت الى حد كبير على سياسة ايطاليا في مستعمرتها الأولى.

١ ـ التصنيع والتمدين

كانت سياسة ايطاليا، في الفترة الأولى من حكمها الاستعماري ١٨٨٩ ـ ١٩٣٠، تقوم على العمل على تعزيز الاستيطان الجديد. فبنت عدداً من المدن وبعض مشاريع البناء التحتي: موانىء، وشبكة طرق وسكك حديدية تربط بين المدن وتقطع اقاليم البلاد المختلفة جميعها. خلال تلك الفترة كان التطوير الصناعي يلقى عدم تشجيع لأن الهدف كان جعل المستعمرة معتمدة تماماً على البضائع الايطالية المصنعة والاستهلاكية ولهذا احضرت ايطاليا رأسمالاً الى اريتريا من أجل البناء التحتي، لاغراض الاستيطان، ولأسباب عسكرية. وقد استدعى ذلك كله عمالة اجبارية ومأجورة، وبالتالي ظهور العلامات الاولى على نشوء طبقة عاملة اريترية متعددة القوميات.

اما الفترة الثانية من السياسة الاستعمارية الايطالية (١٩٣٠ ـ ١٩٤١) فقد تأثرت بشكل كبير جداً بخطط ايطاليا الفاشية للتوسع في المنطقة. وفيها جرى توسيع البناء التحتي القائم ونفذت مشروعات جديدة لها علاقة بالحرب، كما بدأت أشغال عامة

ضخمة وما يميز هذه الفترة هو النمو المذهل للصناعات الخفيفة والتمدين السريع للسكان . والسكان الاوروبيون الذين كانوا بالكاد يصلون الى خمسة آلاف نسمة قبل العام ١٩٣٠، ازدادوا الى ٥٠ ألفاً في العام ١٩٣٥ . وفي العام ١٩٤٠ كان حوالى ٢٠٪ من مجمل سكان اريتريا مدينيين فعلاً .

٢ ـ سياسة ايطاليا الريفية

رأى المستعمرون الايطاليون ان اريتريا ، بمناخها المعتدل، مكان نموذجي لبرامجهم الاستيطانية. وقد أدى توطين «الفائض» من سكانهم، بالضرورة ، الى تعديلات في النظام الاقتصادي والاجتماعي في المناطق الريفية .

ففي المرتفعات ، حيث نفذت الزراعة الاستيطانية ، صودرت تحت ذرائع شتى مساحات واسعة من اكثر الأراضي الزراعية خصباً. وسلمت هذه الأراضي ، ببساطة، الى المستوطنين الايطاليين من أجل اقامة مزارع تجارية عليها . كما قلصت الى حد كبير اراضي الرعي والحراثة. وقد وجد الفلاحون في الأراضي المنخفضة، والكثيفةالسكان، ان من الصعب عليهم تأمين مورد رزقهم . الأراضي الزراعية التي كانت مجزأة سابقاً أصبحت اصغر فاصغر. وفي ما يتعلق بأراضي الكنيسة فقد صادرت الحكومة الاستعمارية معظمها وحولتها الى اراضٍ ملكية .

لقد حطم الاستعماريون الايطاليون أيضاً التركيب الاجتماعي ـ السياسي للتجمعات القروية، وعينوا اتباعهم رؤساء للقرى ومسؤولين عن الأقاليم . وكان هؤلاء في معظمهم من عائلات الـ «ريستيغنا» *Restegna* . وقدوفّر ذلك لبعض الافراد والعائلات السلطة السياسية والادارية التي استخدمت بعد ذلك كاداة [لتحقيق] ثرواتهم الشخصية وامتلاكهم، من ثم ، ادوات الانتاج (الأرض) في داخل نظام «ديسا» *Diesa*(المشاعي)الملكية الأرض.

في الأراضي المنخفضة الاريترية. أصدرت الحكومة الاستعمارية قانوناً خاصاً بالأرض في العام ١٩٠٩، أعيد النظر فيه في العام ١٩٢٦، وأعلنت فيه السهول المنخفضة ـ الأراضي التي يقل ارتفاعها عن ٨٠٠ متر (اي اكثر من ٥٠٪ من البلاد «تيري ديمانيالي» *Terre demaniali* أو اراضي حكومية. بالاضافة الى ذلك صدرت مراسيم تعلن مناطق كاملة في البلاد كأراضي حكومية مخصصة للاستعمار. كما اعلنت ايضاً كمناطق حكومية اراضٍ على مجاري النهر واراضٍ خصبة أخرى.

وحيث كان يسود اسلوب الانتاج الاقطاعي ، كانت الاجراءات المتخذة كلها من قبل الحكومة الاستعمارية تهدف الى تعزيز استغلال الاقنان. ووجد هؤلاء الذين كانت ظروف حياتهم تتدهور في ذلك الوقت ، ان المستعمرين كانوا يدعمون الطبقات الاقطاعية علناً . اذ أن الايطاليين رأوا أن الأنظمة السياسية والاجتماعية الاقطاعية مناسبةً تماماً لاغراضهم.

٣ ـ نشوء الطبقات الاجتماعية

تحت السيطرة الاستعمارية الايطالية أصبحت ظروف حياة الفلاحين الأريتريين أكثر بؤساً مما كانت عليه في السابق . بتجريدهم من أرضهم، أجبر الفلاحون على التدفق على المراكز الاستعمارية من أجل تأمين المعيشة ببيع قوة العمل لديهم الى رأس المال الايطالي.

البروليتاريا: كانت الطبقة العاملة الاريترية ، المؤلفة من الكسبة العاملين في اشغال البناء التحتي والأشغال العامة، في الصناعات الخفيفة، في الخدمات التجارية وخدمات التوزيع ، وفي المزارع التجارية ، ذات قوميات متعدّدة وقد نما لديها شعور حاد بالهوية المشتركة في سياق استغلالها غير الانساني من قبل رأس المال الايطالي، فلم يكن للعمال ، في ظل الفاشية الايطالية، أي حق من الحقوق. وقد منع التشريع الاستعماري الفاشي تشكيل الاتحادات والنقابات العمالية. الاضطهاد الوحشي للطبقة العاملة، اضافة الى عائق لون البشرة الرسمي ، كان يعني رد فعل متقطع وغير مستمر للسياسات الفاشية .

الفلاحون : بتدهور انتاجه المعيشي، كان على الفلاح الأريتري اما الهجرة الى المدن أو قبول التجنيد من قبل الجيش الاستعماري للخدمة كطعم مدفع في حروب الغزو الايطالي ـ ٦٠ ألف اريتري قاتلوا في ليبيا وحدها .

وبمصادرة أرضه وخطر اجتثاثه من مجتمعه ، ، لم يكن رد فعل الفلاحِ الأريتري على الحكم الاستعماري سلبياً . وقد تميزت تلك الفترة بعدد من الانتفاضات الفلاحية ومناخ عام من التمرد جعل الحكومة الاستعمارية ملزمة بالتخلي عن عدد من مشاريعها الاستيطانية .

منذ نظام الـ «ديسا»*Diesa* لملكيـة الأرض لم تستوجب حقوق المستفيدين من الأرض المشاعية التواجد الجسدي ، فان كل أولئك الذين انتقلوا الى المدن او انضموا

للجيش الاستعماري قد احتفظوا بحقوقهم في الأرض. ونتيجة لذلك برزت ظاهرة «المستفيدين» الغائبين من الأرض. وهؤلاء اقاموا غالباً ترتيبات مع اقاربهم، أو آخرين، لحراثة أراضيهم نيابة عنهم. نتيجة لذلك بدأ عدد من المزارعين يزرعون قطع الأرض المخصصة لهم وتلك العائدة للافراد الغائبين من الـ «غابار» *Ghebars*. اصبحت هذه الممارسة اساس التمييز الاجتماعي والاقتصادي بين الفلاحين في اريتريا الريفية.

المثقفون: خلال الاحتلال الايطالي، لم تكن توجد عملياً اية خدمات اجتماعية لسكان البلد الأصليين. كانت الخدمات الطبية مقتصرة على مستعمرة المستوطن الايطالي. والتعليم كان محدوداً بشكل متعّمد. وهذا التعميم السري الذي أعطي لمديري المدارس الايطاليين من قبل مدير التعليم في اريتريا العام ١٩٣٨ [لا يحتاج الى تعقيب]:

«في نهاية السنة الرابعة، ينبغي للطالب الاريتري أن يتكلم لغتنا بصورة حسنة نسبياً. يجب عليه أن يعرف العمليات الحسابية الأربع في حدود عادية... وبالنسبة للتاريخ، فعليه أن يعرف فقط أسماء أولئك الذين جعلوا ايطاليا عظيمة».

ومع ذلك فقد درب حفنة من الأريتريين ليكونوا مترجمين وموظفين من مرتبة دنيا الخ... وقد شكل هؤلاء طبقة مثقفين صغيرة ونواة للبيروقراطية المقبلة ولطبقة البورجوازية الصغيرة في البلاد.

جـ - الادارة الاستعمارية البريطانية وتأثيرها على المجتمع الاريتري

نستطيع ان نتبين مرحلتين بارزتين في الحكم البريطاني لأريترايا. فقد احتل البريطانيون اريتريا في العام ١٩٤١، في وقت كانت الحرب العالمية الثانية فيه محتدمة. منذ ذلك التاريخ وحتى نهاية الحرب، لجأ البريطانيون ومن دون احداث اي تغيير في البنية الاجتماعية - الاقتصادية التي تركها الايطاليون الى استغلال كامل للتسهيلات العسكرية والمؤسسات الصناعية التي اقامتها الدولة المستعمرة السابقة، لأغراض الحرب. ومن أجل تموين قوات الحلفاء بالسلع الاستهلاكية، بدأ البريطانيون فوراً في استغلال قوة العمل الماهرة الوفيرة وموارد البلد. وفي فترة ثلاث سنوات [فقط] تمت اقامة اكثر من ٣٠٠ مصنع. ولذلك فان تلك الفترة من الحكم البريطاني كان يميزها الاستغلال الهائل للطبقة العاملة الاريترية وتراكم الأرباح الخارقة للاستعمار البريطاني ورأس المال الايطالي.

ولكن انتهاء الحرب في العام ١٩٤٥ أدى الى تغير كبير في السياسة الاقتصادية البريطانية في اريتريا. الا ان الازدهار الاضطراري توقف فجأة، وتم اقفال عدد من المصانع. ونحن نعرف انه في اثناء المناقشات حول التخلي عن اريتريا ، قدم البريطانيون مشروعهم لتقسيم اريتريا . واحدى نظرياتهم في دعم هذا المشروع كانت ان اريتريا مستقلة لن تكون قابلة للحياة اقتصادياً، ومن أجل تأكيد نظريتهم بدأوا في تدمير الاقتصاد الأريتري . وفي هذا الصدد جرى تفكيك عدد كبير من المباني والمصانع، ونقلت بعض المعدات الخاصة بالصناعة والبناء التحتي الى المستعمرات البريطانية الأخرى .

ماذا كانت آثار الحكم البريطاني اذن على الطبقات الاجتماعية الاريترية؟

الطبقة العاملة : خلال الفترة الأولى من الاستعمار البريطاني زاد حجم الطبقة العاملة بصورة كبيرة ـ وكان هناك مزيد من نزوح سكان الريف باتجاه مراكز المدن، ولكن ظروف هؤلاء الحياتية لم تتحسن أبداً بسبب الاستغلال المتسارع للعمال. والأسوأ من ذلك ، انه مع اقفال المصانع لاحقاً ووقف اشغال البناء التحتي واجهت الطبقة العاملة بطالة جماعية . لكن سكان اريتريا الذين تعودوا على حياة المدن لم يكونوا قادرين على العودة الى الريف. هكذا واجهت الطبقة العاملة، ببساطة، المجاعة. وبدأت الانتفاضة ضد الحكم الاستعماري البريطاني . وقد باشر العمال، بعد انتظامهم في نقابات عمالية على مستوى المصنع، خوض نضالات من اجل تحسين ظروف حياتهم البائسة. ولم يمرّ وقت طويل حتى بدأوا يلعبون دوراً نشيطاً في الحركة السياسية الكثيفة لتلك الفترة .

الفلاحون : بؤس الحياة في المدن كان يوازيه تدهور رئيسي في ظروف الحياة في الريف الأريتري. وكما اشرنا سابقاً ، كان البريطانيون قد تركوا الهيكل الاجتماعي ـ الاقتصادي الذي أقامه المستعمرون الايطاليون سليماً . والحقيقة أنهم واصلوا انتزاع المزيد من الأراضي الخصبة والشاسعة من ايدي الفلاحين واعطوها للمزارعين الرأسماليين الايطاليين . والاكثر من ذلك انهم رفعوا بشكل كبير الضرائب المفروضة على الفلاحين . ولأن الحياة في المدن كانت تتزايد صعوبة ، فقد بدأ العمال يعتمدون على الريف من أجل الحصول على العون الغذائي لاطعام عائلاتهم . ويجب ان نذكر هنا ان المحاربين القدامى في الجيش الاستعماري السابق كانوا قد عادوا الى القرى. لكن هذه العوامل كلها جعلت العيش في الريف صعبة وغير مضمونة .

في المرتفعات ، كان رد فعل الفلاحين الاريتريين ضد هذه الحالة قوياً . وقد نقموا بصورة خاصة على انتزاع أراضيهم منهم . فنظموا هجمات مسلحة على المزارع الايطالية وأحرقوها نهائياً ، وقد قتل العديد من المزارعين الرأسماليين الايطاليين وقطعت رؤوسهم .

وفي الأراضي المنخفضة من اريتريا والمناطق التي كان يتحكم بها الاقطاع ، وصل الصراع بين الاقنان والأسياد الاقطاعيين مرحلته القصوى . ولثماني سنوات (١٩٤٢ - ١٩٤٩) اجتاحت المناطق المنخفضة حركة قوية معادية للاقطاع . وقد ثار الاقنان الذين شكلوا اكثر من ٩٠٪ من السكان علناً ضد الاسياد الأقطاعيين ملاكي الارض ورفضوا دفع الضرائب والرسوم وطالبوا بالانعتاق الكامل من اسيادهم. وبرغم ان حركة الانعتاق الذاتي هذه كانت قوية جداً فلم يستطع الاقنان الفوز بحريتهم الكاملة . الا انه كان على الادارة الاستعمارية البريطانية ، ان تحسب حساباً لها . والأهم من ذلك ان هذه الحركة . هزت جدياً القاعدة الاقتصادية والسياسية لرؤساء الـ «شوماغلس» *Shumagles* والـ «نابتاب» *Nabtab* .

وفي مواجهة انتفاضات الفلاحين والفوران الاجتماعي على امتداد الريف الاريتري ، حاولت الادارة الاستعمارية تقوية الجهاز السياسي والاداري في الريف .

بورجوازية المدينة الصغيرة: مع التدهور العام للوضع الاجتماعي - الاقتصادي ، ساء ايضاً وضع البورجوازية الصغيرة في المدن ، ويجب تذكر انه عندما هاجم البريطانيون القوات الايطالية قدموا انفسهم كـ «محررين» للشعب الأريتري ونالوا بذلك دعمه القلبي والفعال. لكن الحقيقة اثبتت شيئاً آخر تماماً . فقد بقيت الآلة السياسية والادارية الفاشية. وكانت فئة المثقفين الأريتريين الناشئة التي برزت في ظل الاستعمار الأيطالي تتوقع تغييرات وتأمل بشغل المناصب التي يحتلها الايطاليون . لكن أملها خاب بالرغم من أن حجمها ازداد بشكل بارز نتيجة للفرص الزائدة للحصول على التعليم التي وفرها الحكم البريطاني . اضافة الى ذلك، فانه بعد نهاية الحرب العالمية الثانية تعرضت البورجوازية الصغيرة المدينية ايضاً الى بطالة جماعية . والعديدون الذين حاولوا تنظيم حياتهم ببدء أعمال صغيرة لم يعطوا اجازات لذلك . وبهذا انتهت البورجوازية المدينية الصغيرة الى حالة من الهياج الكامل، فنظمت تظاهرات ونشرت مقالات وقامت بنضالات أخرى ضد الاستعمار البريطاني.

وفي هذا الموقف الاجتماعي ـ الاقتصادي الحاد، رأت قطاعات المجتمع الأريتري كلها حلاً واحداً لمشاكلها: **الاستقلال**. في هذا الوقت كان التكامل الاقتصادي والسياسي قد تم ، وكان الاريتريون من مختلف القوميات والمجموعات العرقية والأديان يخوضون نضالاً مشتركاً على قاعدة استغلالهم واذلالهم المشترك. ومن أجل استكمال خطته لتقسيم اريتريا ، كان على الاستعمار البريطاني ان يلجأ الى وسائل أخرى . وهنا برز نظام هيلا سيلاسي الاقطاعي في الصورة. ولأن مصالحه اتفقت مع مصالح البريطانيين، فقد عمل كلاهما على ضرب النضال المشترك المعادي للاستعمار في اريتريا، قبل كل شيء عن طريق اثارة عداوات دينية وقومية وتناقضات ثانوية، ولكن مرئية، بين الشعب الأريتري.

د ـ نهاية الحكم البريطاني والنهوض السياسي في اريتريا

تتميز هذه الفترة بنشاط سياسي كثيف في البلاد . وفي القليل الذي كتب عن هذه الفترة ، كان يتم تحليل الحركات والأحزاب السياسية وفق معايير دينية أو قومية . انما المطلوب إلقاء نظرة عن كثب على الأسس الاجتماعية لبعض الأحزاب المتنافسة .

الحزب الاتحادي: نعرف اليوم ان الحزب الاتحادي الذي قيل انه حزب المسيحيين والمرتفعات في اريتريا ، هو اساساً صنيعة النظام الامبراطوري الاثيوبي . ومن أجل صنع رأي عام مؤيد للنظام الاثيوبي، وهو ما لم يكن موجوداً تلقائياً، تحوّل النظام الأثيوبي اولاً الى الكنيسة القبطية . لماذا ؟ كانت الكنيسة القبطية قد جرّدت من عقاراتها الواسعة من قبل الايطاليين ، كما انها قدمت في ظل الحكم البريطاني طلبات عدة لم يكن لها نصيب من النجاح لاستعادة هذه الأراضي. وهكذا فانه عندما وعد النظام الأثيوبي باعادة الأرض إذا كان للبلدين أن يتوحدا أصبحت الكنيسة فوراً تؤيد مثل هذا الاتحاد. وعندما تأكد من دعم الكنيسة ،تحول نظام هيلا سيلاسي بعد ذلك الى الشرائح العليا للبورجوازية الصغيرة. وقد أغريت هذه الفئات الاجتماعية، التي شكلت المثقفين الاريتريين الصغار في ظل الاستعمار الايطالي ، والتي أحبطت آمالها وطموحاتها، كما رأينا سابقاً ، من قبل البريطانيين، بالدخول الى هذا الحزب عن طريق وعود بوظائف وموقع في الاتحاد. وقد أصبح هؤلاء منظمي وقادة الحزب الاتحادي.

نودّ ان نشدد ايضاً على ان الحزب الاتحادي وجد قاعدة أخرى من قواعده الأساسية في الطبقات الاقطاعية وخاصة في ملاكي الأراضي في المناطق المنخفضة الغربية لأريتريا

المسلمة . لقد رأينا الى أي مدى شكلت حركة الاقنان القوية من اجل الحرية تهديداً لتلك المصالح ، ولم يكن مفاجئاً بالتالي ان يرى هؤلاء الاقطاعيون في نظام اثيوبيا الاقطاعي حامياً وفياً لهم .

وهكذا مثل الحزب الاتحادي مصلحة لتلك الطبقات الثلاث . وقامت دعوتها للوحدة مع اثيوبيا على عوامل تاريخية وقومية لم تكن تستر الا بصعوبة دوافعها الطبقية الحقيقية . والاّ فمن الصعب تفسير لماذا أصبح العديد من الاتحاديين وقادة الحزب ، من البورجوازية الصغيرة العليا، مدافعين اشداء عن الوضع الاتحادي عندما تحققت مصالحهم في ظله، وقاتلوا بعد ذلك ضد مشاريع النظام الاثيوبي الخاصة بالضم الكامل . وبالمثل ايضاً، فانه كيف يمكن ، اذا لم يكن لمصالح طبقية، تفسير حقيقة ان الارستوقراطية المسلمة كانت احدى القوى الاساسية في حزب تحث عليه الكنيسة القبطية؟ ان حزباً مثل هذا الحزب تحدّده المصالح التي يخدمها والفئات الاجتماعية التي تهيمن على المجتمع . ولا يعني هذا ان الحزب الاتحادي لم تكن له تبعية جماهيرية . فقد كان نفوذ الكنيسة بين فلاحي المرتفعات كبيراً وأصبح مهماً جداً في تشكيل رأي جماعي بينهم . كما ان الكنيسة لم تتردد في استخدام التهديد بالحرم الكنسي ضد المدافعين عن الاستقلال .

الرابطة الاسلامية والحزب الليبرالي التقدمي: هاتان المنظمتان كانتا المنظمتين الأساسيتين اللتين قاتلتا من أجل الاستقلال . وبالنسبة لقاعدتيهما الاجتماعيتين، فأننا نعرف ان الرابطة الاسلامية انبثقت من حركة الاقنان المعادية للاقطاع في المناطق المنخفضة. وكما ذكرنا سابقاً فدعوات الحركة للتحرر من القنانة ومن أجل الاستقلال الوطني لم تكونا منفصلتين احداهما عن الأخرى. أما الحزب فقد انشأه وقاده بورجوازي وطني يعود في أصله للاقنان ويتمتع بنفوذ كبير بينهم وبرغم ان الحزب الليبرالي التقدمي تمتع بدعم البروليتاريا المدينية فقد دخلت في عضويته ثم سيطرت عليه لاحقاً البورجوازية الصغيرة الدنيا ومثقفي المدن في المرتفعات .

وتجب الأشارة هنا الى أنه برغم ان هذين الحزبين عبرا عن تطلعات الجماهير، فقد كانت قيادتاهما في ايدي البورجوازية الصغيرة وحتى عناصر اقطاعية معينة . ويمكن ، لذلك ، فهم واقع ا: يكونا حازمين بما فيه الكفاية في مواقفهما وكانا عرضة للدخول في مساومات في لحظات حاسمة من النضال الاستقلالي.

هـ ـ المجتمع الأريتري في ظل الاستعمار الاثيوبي

« الاتحاد » مع اثيوبيا الذي فُرض على اريتريا عملياً بقرار من الأمم المتحدة كان يعني في الواقع انكار حقها في تقرير المصير . ولكن ماذا فعل النظام الأثيوبي عندما احتل اريتريا ؟ لقد اتضح بسرعة عدم التكافؤ في التعايش المفترض بين اريتريا الديموقراطية ذات الحكم الذاتي والنظام الأثيوبي الاوتوقراطي والبدائي .

فمن أجل تدمير الحياة السياسية في اريتريا لجأ النظام الاثيوبي الى شّل اقتصاد البلاد لقد انتزع منها أحد أهم مصادر العائدات ، أي حصة اريتريا من رسوم الجمارك. والعديد من المصانع عطل او أقفل او نقل ببساطة الى اثيوبيا . وذهب النظام الى حد تبني سياسة متعمدة بوقف المزيد من التنمية الصناعية للبلاد .

على المستوى السياسي، قام نظام هيلاسيلاسي ايضاً بقمع حرية الكلام، والصحافة، وتشكيل الجمعيات. زج بالصحافيين والمثقفين في السجون. وجردت الجمعية الأريترية من جميع السلطات التي كانت تتمتع بها. قوض النظام القضائي في البلاد، وانزل العلم الوطني الأريتري .

على الصعيد الثقافي ، حظرت اللغات الأريترية وفرضت الأمهرية، بالقوة، كلغة وحيدة ورسمية للبلاد . ولم يتورع النظام الاثيوبي حتى عن احراق الكتب المطبوعة باللغة التيغرينية .

وكان لهذه الأجراءت الهادفة الى تصفية الاستقلال الذاتي الاريتري، بصورة منتظمة، أثرها على مختلف الطبقات.

الطبقة العاملة : مع اجراءات النظام الأثيوبي لتهديم الاقتصاد وضم البلاد سياسياً، تميزت فترة الاتحاد الفيدرالي (١٩٥٢ ـ ١٩٦٢) باضعاف كامل للطبقة العاملة ولكن بنمو لم يسبق له مثيل لحركة العمال. في نهاية العام ١٩٥٢ انشأ العمال الاتحاد العام لنقابات العمل من أجل تمكينهم من مواصلة نضالهم السياسي. ولم يستطع النظام الاثيوبي تحمل انشاء مثل هذه المنظمة فبادر الى تحطيمها. وقد قام عملاء حكوميون باطلاق النار وجرح رئيس الاتحاد الذي كان هو نفسه مؤسس الحزب الليبرالي التقدمي . ثم نفي بعد ذلك الى خارج البلاد . أما العمال فقد حظر عليهم كما حظرت صحيفة الاتحاد . ونتيجة لذلك انتقلت الحركة الى العمل السري ، ونشرت في العام ١٩٥٧ بالتحالف مع الطلاب الاريتريين تحريضاً سياسياً واسعاً على امتداد البلاد .

وبلغ هذا العمل السياسي النشيط ذروته في الدعوة الى اضراب عام في العام ١٩٥٨ أدى الى شل الحياة في المدن الأريترية الرئيسية كلها لأيام عدة . في هذه التظاهرات الجماهيرية ، ندد العمال والطلاب وقطاعات السكان الأخرى بالنهب الاقتصادي الأثيوبي وطالبوا علناً باستقلال أريتريا . ورد النظام الأثيوبي بقوة ووحشية فقتل وجرح المئات وزج بآلاف المتظاهرين في السجن .

هذه الأجراءات القمعية أدت الى نكسة في تنظيم العمال استمرت سنوات عدة لاحقة ، كما ادت الى تسارع هجرة العمال الأريتريين الى البلدان الأخرى ، ورغم ان العمال الأريتريين لم يتوقفوا ابداً عن دعمهم للنضال من اجل الاستقلال، كأعضاء أو بجمع التبرعات ، فان حركتهم كانت في مرحلة جزر عندما بدأ النضال المسلح .

نهوض البورجوازية: لقد رأينا أية قطاعات من مجتمع المدن التي أيدت وضع أريتريا تحت الهيمنة الأثيوبية ولماذا . وبعد رسوخه في اريتريا ، نفذ النظام الاثيوبي الوعود التي اعطاها للبورجوازية الصغيرة العليا، كما منحها امتيازات اقتصادية وألقاباً. الا ان هذه البورجوازيةاضافت الفساد الى الامتيازات التي أعطاها الامبراطور، وبدأت تكدس ثروات شخصية ضخمة. وتقديراً لخدماتها وولائها، أعطيت البورجوازية الصغيرة العليا ملكية اراض : بنايات فيلات ، اراضٍ في المدن ، كانت سابقاً في ايدي السلطة الاستعمارية البريطانية.

كما حوّلت اليهم أيضاً بعض الأعمال التي كان يديرها الايطاليون سابقاً . وآخرون بدأوا ، بالثروة المالية التي جمعوها ، أعمالاً جديدة . وتدريجياً أصبح هؤلاء مالكي المصانع ، والمؤسسات التجارية ، وشركات التأمين والنقل . والطبقات نفسها احتلت المناصب الرفيعة في البيروقراطية ، والقوات العسكرية وقوات الشرطة التي كانت بدورها أرضاً خصبة لتعزيز سلطتهم الاقتصادية والمالية .

وبدخول الرأسمال الأجنبي الى البلاد ، انتهت هذه المجموعات العليا السابقة من البورجوازية الصغيرة الى أن تصبح طبقة بورجوازية صلبة وواضحة تماماً . وبالطبع فان نمو هذه البورجوازية لم يكن سهلاً وفي خط مستقيم . فالاتحاديون من البورجوازية الصغيرة العليا الذين أصبحوا مدافعين عن الفيدرالية ، اشتراهم النظام أو صفّاهم أو أجبرهم على ترك البلاد أو اضطرهم للابتعاد بأنفسهم عن النظام . وهؤلاء الأخيرون استبدلوا بآخرين أكثر ولاء وارتياحاً للمنافع الاقتصادية التي كانوا يأخذونها من النظام .

البورجوازية المدينية الصغيرة: ازداد حجم هذه الطبقة في خلال الفترة الأثيوبية. وتشكل هذه الطبقة، التي تقدر بحوالى ٢٠٪ من السكان، اهم مجموعات سكان المدن الأريترية. ومثل قطاعات أخرى، شعرت القطاعات الدنيا للبورجوازية الصغيرة بالاضطهاد السياسي والاقتصادي من قبل اثيوبيا الاقطاعية وكذلك بالاستغلال من قبل رأس المال الاجنبي.

وفي الخمسينات، قاتل الطلاب بقوة ضد امتهان الحقوق الوطنية والديموقراطية. وبعد المجزرة الدموية لعام ١٩٥٨، التي ذكرت سابقاً، لعب هؤلاء دوراً نشيطاً في المنظمة السرية المعروفة باسم «محبر شعاتي» *Mahber Showate* التي شكلت لاحقاً للتحضير للنضال المسلح. ومن تلك الفترة حتى السبعينات قام الطلاب الاريتريون في داخل وخارج البلاد بعمل دعائي وتحريضي للتعبئة والتنظيم من أجل الاستقلال. وكان الطلاب والمثقفون الثوريون بين اوائل من انضموا الى النضال المسلح.

المجتمع الريفي: كانت للنظام الامبراطوري الأثيوبي عواقبه الحتمية على الريف الأريتري: تعزيز الاقطاع حيث وجد، وامتداده الى مناطق أخرى، اضافة الى تدني مستوى المعيشة وافقار جماهير الفلاحين.

طبقة ملاك الأرض الاقطاعيين: لقد كافأ نظام هيلا سيلاسي ملّاك الأرض الاقطاعين على الدعم الذي اعطوه للحزب الأتحادي. فحصل رؤساء الـ «شوماقلي» *Shumagles* والـ «النابتاب» *Nabtab* في الأراضي المنخفضات، الذين باتوا الآن أكثر أماناً في مواقعهم وامتيازتهم، على القاب أرستوقراطية وكذلك على ملكيات. والعديدون منهم عينوا في مناصب رفيعة في بيروقراطية [الدولة]. اما في مرتفعات اريتريا، فقد كوفىء ولاء العناصر الاقطاعية بتعزيز سلطتها السياسية والادارية. وقد أصبح ذلك مصدراً مهماً لقوتها الاقتصادية، فمكنها من التلاعب بنظام الـ «ديسا» *Diesa* لملكية الأرض والسيطرة على النشاطات التجارية في الريف. واضافة الى ذلك بدأت هذه العناصر، بامتيازاتها الاقتصادية الجديدة وبسلطتها الادارية، التحرك الى المدن والامساك بمصالح الأعمال هناك. وهكذا شكل اقطاعيو المرتفعات انفسهم، عملياً، فريقاً اجتماعياً مميزاً. وبمصالحهم النامية في المراكز المدينية أصبح العديدون من ملاّك الأراضي، سواء في المرتفعات أو في المناطق المنخفضة، (المنخفضات)، ملاكين غائبين بصورة متزايدة.

٢ ـ تأثير التحرر على كيان المجتمع الاريتري

آ ـ الأبعاد القومية والاجتماعية للنضال التحرري

لاحظنا سابقاً ان الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا عرفت النضال التحرري بأنه عملية وطنية واجتماعية معاً . وهذا التشخيص نتيجة لنضالات سياسية كثيفة داخل حركة التحرر الأريترية . والمناقشات المرّة التي جرت داخل جبهة التحرير الاريترية في النصف الثاني من الستينات والتي توجت بولادة الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا في العام ١٩٧٠ تركزت حول شخصية ،واهداف القوى الدافعة للثورة (انظر الشهادات المختلفة في هذا الصدد في ثبت المراجع) . وعندما نحلّل هذا التحول نلاحظ ان النضال أصبح بولادة هذه الجبهة محدداً بوضوح كـ «وطني» و «ديموقراطي». وعناصر جبهة التحرير الاريترية الذين أصبحوا أخيراً في الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا وصلوا الى استنتاج ان الطريق الوحيد الى النصر هو النضال على جبهتين: العمل من اجل الاستقلال الوطني ، وايضاً العمل من أجل التحول العميق للمجتمع بالمعنى الديموقراطي. ووفق تحليل الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا فان هاتين المرحلتين للنضال الوطني متشابكتان جداً بحيث يستحيل فصل احداهما عن الأخرى . والتطلعات الشعبية للاستقلال لا يمكن تحقيقها، في مسار النضال التحرري ، حتى يتم تحويل الأجهزة الاستغلالية للمجتمع بحيث تخدم المصالح الأساسية لأكثرية الشعب . ورأت الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا من ناحية أخرى ، أنه لا طائل من التفكير بتلبية المطالب الأساسية للجماهير ، قوة الثورة الرئيسية، خارج اطار اريتريا مستقلة .

ان التمازج بين الاستقلال الوطني والتحرر الاجتماعي هو الموضوع الأساسي لهذه المحاضرة ونستطيع ان نرى هنا تشابهاً بين العملية التي حققها النضال التحرري وتلك التي تحققت في المستعمرات البرتغالية في المرحلة ذاتها من تاريخها . ان الطبيعة العنيدة، الوحشية والمتخلفة للدولة الاستعمارية، وعدم قدرة المستعمر على تطبيق أي حل استعماري جديد، وفشل تجارب البلدان الافريقية المستقلة حديثاً الى حدٍّ ما ، كل ذلك أقنع حركات التحرر في هذه البلدان بأنه من اجل تحقيق تقدم لابد للنضال التحرري أن يكون مرتكزاً بصلابة على الجماهير المستغلة (بفتح الغين) وان يخدم مصالحها؛ وبأنه لا يمكن ان يكون هناك استقلال سياسي من دون استقلال اقتصادي ؛ وبأن النضال الوطني (الاستقلال) والنضال الثوري (الاستقلال الاقتصادي والتحويل الاجتماعي للمجتمعات المختلفة) هما نضال واحد ويخاض في وقت واحد. ذلك كله تأكد في الحالة

الاريترية، باستثناء ضرورة التركيز على حجم هذه العوامل هنا وضرورة اضافة عوامل أخرى خاصة بالموقف الاريتري اليها .

ان هناك ثلاث حلقات من العوامل نـوّد ذكرها. اولاً ، واقع أن المصالح الامبريالية لم تكن وحدها اسباب النضال من أجل التحرر الوطني، ولكن هذه القوى نفسها تمادت في انكار حق اريتريا في تقرير المصير اما باشتراكها المباشر في قمع النضال او بعدائها الصريح له ، واما بلا مبالاتها او بمحاولاتها لاستغلاله . ثانياً ان العدو الذي واجه المناضلين الأريتريين كان ، نتيجة لطبيعته الاقطاعية والكاملة التبعية، أكثر تخلفاً ووحشية ولا يملك بتاتاً اي حظ في حل المشاكل الأريترية . ثالثاً ، تجب ملاحظة الاخطاء الفادحة والعيوب والفشل في السنوات الأولى من النضال المسلح . في هذه الفترة، وبرغم الدعم الشعبي، سيطرت على قيادة حركة التحرر عناصر اقطاعية سعت للحصول على الاستقلال بأقرب طريق وفي أقصر فترة من الزمن . الا أن التناقضات داخل جبهة التحرير الاريترية. اضافة الى الظروف السياسية والاجتماعية ـ الاقتصادية الاريترية ، وكذلك الموقف العالمي، لم تترك للنضال التحرري أي خيار سوى مواصلة استراتيجية حرب الشعب الطويلة باعتبارها الطريق الوحيد الى تقدم الثورة. كان هذا تحليل مؤسسي الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا وقد أقرّ كخط سياسي جديد للمنظمة .

ب ـ آراء الجبهة الشعبية في الطبقات الاجتماعية، مواقفها ودورها في الثورة

في انفصالها عن جبهة التحرير الاريترية، رأت الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا ان المهمة الاساسية للثورة الاريترية هي تحديد التناقض الاجتماعي القائم . وقد وجدت الجبهة الشعبية أن السبب الرئيسي للنكسات الخطيرة التي تعرض لها النضال التحرري في ظل قيادة جبهة التحرير الاريترية كان فقدان تحليل المجتمع الاريتري ، وتحديد طبقاته المختلفة ومواقفها تجاه الثورة .

ومن أجل فهم أفضل للتغيرات الهيكلية في المجتمع الذي تهدف اليه الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا، من الضروري القاء نظرة على الطريقة التي تحدّد فيها الحركة «اعداءها واصدقاءها» في النضال الجاري. وباختصار فان اعداء الثورة هم الاستعمار. الامبريالية والاقطاع. وعلى الجهة الأخرى فان القوى الدافعة هي الطبقة العاملة ، الفلاحون، البورجوازية الصغيرة في المدن والفئات الوطنية الاخرى. ولكن لنحاول

الدخول أكثر في التفاصيل ونرى الأشياء من وجهة نظر كل من الطبقات الاجتماعية التي تشكل على التوالي، اهداف النضال وقوى التغيير كما تعرّفها الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا .

١ ـ الاهداف الاجتماعية للثورة

الطبقة الاقطاعية : في تحليل حول المجتمع الأريتري الريفي في المرتفعات أجرته الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا ونشر في العام ١٩٧٥، تبنت الجبهة التحديد للطبقات الاجتماعية في الريف على أماكن ملكية وسائل الانتاج (الأرض) وادوات الزراعة . فهذه الطبقات لا تشترك في الانتاج وتستغل قوة العمل لدى المستأجرين . ومالك الأرض الاقطاعي هو الذي يملك أكثر من ثمانية «تسيمـدي» *Tsimdi* (مقياس للأرض ـ قطعة الأرض التي يستطيع زوج من الثيران أن يحرثها في يوم ظروف طبيعية) واكثر من أربعة أزواج من الثيران، وهو الذي يستخدم مستأجرين متعددين . والربا هو ممارسة شائعة للاقطاعيين. اذ انهم عن طريق تأجير الفلاحين الفقراء بفوائد مرتفعة جداً يحصلون على دخل ضخم . أما بالنسبة للاقطاعيين في المنخفضات في اريتريا فقد تحدثنا بصورة موجزة سابقاً عن استغلالهم للمستأجرين.

ألا أنه يجب تذكر احتكار هذه الطبقة للحياة الاقتصادية والتجارية في المناطق الريفية. ولقد رأينا سابقاً ان الطبقة الاقطاعية ارتبطت دائماً بالاستعمار الايطالي والبريطاني ، وعززها بشكل كبير النظام الاقطاعي الأثيوبي . ولذلك فمن الواضح أنه ليست لها مصلحة في نجاح النضال التحرري وانها بطبيعتها معادية لأية ثورة اجتماعية. وقد عرفت الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا هذه الطبقة بأنها هدف الثورة دون اي شك .

الشريحة العليا للبورجوازية : تناولنا سابقاً تشكيل هذه الطبقة ودورها في المجتمع الأريتري . واستناداً للجبهة الشعبية لتحرير اريتريا ، فان الشريحة العليا من البورجوازية تتألف من البورجوازية الكومبرادورية والرأسماليين البيروقراطيين. وكما هو الحال في جميع بلدان الاستعمار الجديد . تعمل هذه الشريحة كعميل لرأس المال الدولي وتسيْر تجارة الاستيراد ـ التصدير ، والمؤسسات المالية ، والمصالح الصناعية والزراعية. وقد عارضت هذه الشريحة دائماً، وبنشاط ، نضال اريتريا الاستقلالي. وباعتبارها حجر عثرة امام الثورة الاجتماعية ، فان الجبهة تناضل لاسقاطها .

البورجوازية الوطنية : هذه الطبقة صغيرة جداً في العدد وفي الوزن . ويكشف

تاريخ النضال ان أقلية من هذه الطبقة أعطت دعماً متردداً للحركة بينما الأغلبية بقيت محايدة . ونتيجة لذلك تأخذ الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا موقفاً حذراً تجاهها .

٢ ـ القوى المحركة للثورة

الطبقة العاملة: قلنا انه برغم السجل النضالي للطبقة العاملة الأريترية، خاصة في السنوات التي سبقت ضم البلاد، فان النضال المسلح بدأ في وقت كانت فيه حركة العمال قد اضعفت كثيراً. ونتيجة لذلك شرّد جزء كبير من هذه الطبقة لاحقاً على امتداد البلدان المجاورة . والمعروف أن جبهة التحرير الاريترية لم تقم بأي عمل لتنظيم الطبقة العاملة وتوفير القيادة لها . ومع ميلاد الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا، تم تحديد تحالف العمال والفلاحين بأنه «قاعدة الثورة الأريترية»، والطبقة العاملة التي كانت في أفضل ظروف موضوعية لتوليد وعي اجتماعي بأنها «طليعة الثورة » .

ما هو تحليل الجبهة الشعبية لهذه الطبقة ؟ بالمقارنة مع طبقة الفلاحين ، فان الطبقة العاملة الأريترية صغيرة جداً . أنها تتألف من بروليتاريا صناعية وزراعية. وفي داخل اريتريا ، فان القسم الأول يمثل صناعة السلع ، البناء، المواصلات والصناعات الخاصة بالخدمات . أما الآخرين فيعملون في الزراعات الكبيرة التي يديرها غالباً رأس المال الأجنبي. أما الأجور وظروف العمل في اريتريا فكانت متدنية كما في البلدان الأخرى التابعة اقتصادياً. وكطبقة، فان البروليتاريا كانت دائماً ، حتى لو أنها قليلة العدد، على علاقة اجتماعية من الاستغلال المباشر. وكما في معظم بلدان الاستعمار الجديد تعود غالبية العمال الاريتريين الى أصل فلاحي وتحافظ على روابط وثيقة مع الريف . واعتُبر ذلكَ عاملاً ايجابياً في صياغة تحالف العامل ـ الفلاح .

ترى الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا ان مفتاح النجاح للنضال الأريتري يكمن في «وحدة جميع الطبقات الوطنية على اساس تحالف العمال ـ الفلاحين وتحت قيادة الطبقة العاملة ». يمكن لذلك ان يكون مجرد شعار كما حدث في اماكن عدة . الا أنه، كان ذا مضامين محددة في السياسة الفعلية للجبهة الشعبية . وهذا هو سبب الجهد الذي بذل في تنظيم العمال كطبقة من أجل تمكينها من لعب دورها الحقيقي في الثورة. وسنتفحص ذلك في وقت لاحق .

الفلاحون : بالنسبة للجبهة الشعبية لتحرير اريتريا، يشكل الفلاحون (المزارعون، المستوطنون المقيمون، [البدو] الرحَّل، وشبه الرحَّل) القوة الأساسية للثورة . والى جانب كونهم غالبية السكان المطلقة فهم الطبقة المستغلة أكثر من غيرها.

ويعاني الفلاحون من حياة بائسة ، وهم نتيجة لذلك أكثر الحلفاء الموثوقين بالنسبة للطبقة العاملة .

فلاحو المرتفعات : يظهر التحليل المشار إليه سابقاً والذي أجرته الجبهة الشعبية لتحرير أريتريا في مجتمع المرتفعات الأريترية أن طبقة الفلاحين ليست كياناً متجانس التكوين . وفي تحديد هذه الطبقة (وفقاً لملكية الأرض وأدوات الزراعة وحيواناتها) نجد أنها تنقسم الى فلاحين فقراء متوسطين وأغنياء .

الفلاحون الفقراء : في ما يتعلق بالحجم يعتبر هؤلاء المجموعة الأكثر أهمية (حوالى ٦٠٪ من الفلاحين) . والأرض ، بالطبع ، هي مشكلتهم الأساسية . ولأن بين الفلاحين الفقراء ، من يملك قطعة صغيرة من الأرض والقليل من ادوات الزراعة وهناك من لا يملك تقريباً أية وسيلة انتاج في ما عدا قوة العمل لديه ، فانه يمكن تقسيم هؤلاء الى اربع فئات :

الفئة الأولى تتضمن الذين يملكون قوة العمل، ثوراً واحداً، وقطعة صغيرة من الأرض . ومن أجل تجنب استئجار ثيران من الاقطاعيين والفلاحين الأغنياء، وبالتالي خسارة جزء من الانتاج، فان هؤلاء يجرون غالباً ترتيبات يعيرون بموجبها ثيرانهم بعضهم الى البعض الآخر . وفي غياب ذلك، فليس لهم أي خيار آخر غير استئجار الثيران وهو ما يحدث كثيراً.

الفئة الثانية تتألف من اؤلئك الذين يملكون قوة عملهم، قطعة صغيرة من الأرض وبعض ادوات الزراعة. ولأنهم لا يملكون أية ثيران فانهم يستأجرونها من ملاكي الأرض والفلاحين الأغنياء.

وفي الفئة الثالثة ، نجد اؤلئك الذين يملكون فقط قطعة صغيرة من الأرض . وهؤلاء هم المسنون، والأيتام ، اضافة الى النساء الأرامل أو المطلقات. ولذلك ، فانهم ملزمون اضطرارياً لتأجير أرضهم الى من يستطيع زراعتها . واستناداً الى ما هو معمول به فان هؤلاء يتلقون ثلث أو نصف الانتاج الهزيل.

وفي الفئة الرابعة يوجد الناس الذين لا يملكون شيئاً سوى قوة عملهم : الشبان أو غير المتزوجين، و حديثو الزواج أو أؤلئك الذين يقيمون في القرية ولكنهم ليسوا افراداً أصليين في الجماعة . وهكذا، ولكي يؤمنوا مورد رزق يعمد هؤلاء اما الى استئجار أرض او الى بيع قوة عملهم الى الفلاحين الأغنياء أو الاقطاعيين .

وليس من الصعب رؤ ية ان حياة الفلاحين الفقراء هي بؤس مدقع . . فانتاجهم الزراعي لا يكفيهم لمدة عام ، وهم يقعون لذلك ضحية الربا واشكال استغلال أخرى ، ولتأمين مورد رزقهم، يبحثون عن اعمال لهم في المدن وفي المزارع في فترات معينة من العام. ولأنهم لا يملكون ما يخسرونه فانهم يشكلون قاعدة قوية للنضال التحرري . فالفلاحون الفقراء هم أول من يطالب باصلاح زراعي ويدافع عنه بعناد .

الفلاحون المتوسطون : بعد الفلاحين الفقراء، يعتبر هؤلاء عددياً الأهم (حوالى ٣٠٪ من الفلاحين) . والفلاح المتوسط هو من يملك ثمانية «تسميدي» *Tsimdi* من الأرض، زوجاً من الثيران والقليل من الحيوانات الأليفة. وهو يشترك في الأنتاج. وبعض الفلاحين الفقراء ، في الواقع، يستأجرون الأرض ويبيعون قوة عملهم ، ولذلك فهم يخضعون لاستغلال رسوم الارض والفائدة. وبشكل عام فان الفلاحين المتوسطين لا يستأجرون عمالاً زراعيين ، وبرغم أنهم غير ملزمين بالهجرة الى المراكز المدينية خلال مواسم الكساد فانهم لا يستطيعون توفير غير ما يقيم أودهم . وفي ما يتعلق بموقفهم من النضال الثوري، يرى الفلاحون المتوسطون ان مصالحهم ستكون مؤمنة أفضل بنجاح الثورة . فهم يشتركون في الثورة ، خصوصاً عندما تسجل الثورة نجاحات . وتعتقد الجبهة الشعبية لتحرير أريتريا ان الفلاحين المتوسّطين قوة مهمة، وأن على الثورة ان تسعى للحصول على تأييدهم بالقيام باثارة ضميرهم .

الفلاحون الأغنياء : يملك الفلاح الغني اكثر من ثمانية «تسميدي» *Tsimdi* من الأرض واكثر من زوجين من الثيران. كما يملك ادوات زراعية أفضل واكثر، ويزرع بنفسه الأرض الواسعة التي يملكها أو يستأجرها . إلا انه يستأجر، اضافةلذلك ، عمالاً زراعيين أو يؤجر جزءاً من أرضه او أدواته الى الفلاحين الفقراء . والفلاحون الأغنياء يفرضون المال بنسب فوائد عالية ، كما أنهم يسيطرون على ادارة شؤ ون الجماعة . وهذا يمكنهم من تكديس فائض يوفّر لهم بدوره الطاقة المادية لتحسين أرضهم . والفلاحون الأغنياء بشكل عام واستناداً الى تحليل الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا ، وطنيون ويمكن ان يكونوا وطنيين في موقفهم. لكن ثورة اجتماعية شاملة وتغيراً نهائياً في بناء المجتمع يهددان موضوعياً امتيازاتهم . ولهذا السبب لا يعتبر تأييدهم ثابتاً وتدرك الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا الحاجة الى انتهاج سياسة حذرة في التعامل مع الفلاحين الأغنياء .

رحّل الأراضي المنخفضة: أخيراً وليس آخراً هناك سكان اريتريا من الرحّل وشبه الرحّل. وكنا قد تحدثنا سابقاً عن جانب من تطورهم التاريخي واشرنا الى ظروفهم

الاجتماعية ـ الاقتصادية . والى جانب كون الرحّل ، من حيث الحجم . قطاعاً مهماً جداً من الجماهير الريفية فانهم ليسوا فقط بين اكثر هذه الجماهير معاناة من الاستغلال وانما هم ، اضافة الى ذلك المجموعة الأكثر اهمالاً في المجتمع الريفي الأريتري . أما بالنسبة للناس شبه الرحّل الرعويين ، فانهم يعانون من الأستغلال لأن عليهم استئجار الأرض من الاقطاعيين أو النظام الأثيوبي للرعي أو الزراعة . وإلى جانب أن ضرائب باهظة تفرض عليهم ، فان الملاكين يبتزون خدمات مختلفة منهم مثل العمل بالسخرة ودفع الجزية . وتعتبر الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا هؤلاء بأنهم قوة فاعلة جداً للثورة . والواقع أننا رأينا الدور الذي لعبوه في النضال من أجل الاستقلال . وهم الذين دعموا النضال المسلح من بدايته الأولى وقاسوا لذلك بشكل كبير من قمع النظام الأثيوبي .

البورجوازية المدينية الصغيرة : في التحليل الطبقي للجبهة الشعبية لتحرير أريتريا ، تشتمل البورجوازية الصغيرة المدينية على صغار التجار ، صغار المنتجين ، طبقة المثقفين (المثقفون ، المعلمون والطلاب) صغار المسؤولين الحكوميين ، موظفي المكاتب ، وضباط الجيش والشركات من الرتب الدنيا الخ . . . وتشكل القطاع الأوسع من سكان المدن . وباستثناء شريحة صغيرة ، هي اما محايدة أو متحالفة مع النظام الأثيوبي ، فان هذه الطبقة لعبت دوراً نشيطاً في النضالات الوطنية والديموقراطية . على أن الجبهة الشعبية ، اعتماداً منها على التجارب السابقة للنضال الأريتري ، لا تتوقف عن التذكير بمخاطر سيطرة هذه الطبقة على النضال وكذلك بمخاطر فقدان الوعي بالتوجهات السلبية التي تميز البورجوازية الصغيرة في سياق الثورة . وتعتقد الجبهة الشعبية انه برغم ان هذه الطبقة هي حليف موثوق للجماهير المقموعة فان الثورة لن تستطيع تحقيق اهدافها الحقيقية ما لم ترتكز بصلابة على تحالف العمال والفلاحين تحت قيادة الطبقة العاملة .

وهذا بالذات هو التحليل للمجتمع الأريتري الذي وضعته الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا من أجل اعداد التحولات الضرورية في بناء المجتمع . إلا ان المسائل التي بقيت للمعالجة هي ، ما إذا كان تطبيق الجبهة يتناسب مع نظريتها من جهة وما هي الوسائل التي تستخدم للوصول الى الهدف من جهة أخرى .

جـ ـ التغيرات في البناء الاجتماعي للمناطق المحررة

ربطت الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا ، منذ ولادتها ، نضال الشعب الأريتري من

أجل الاستقلال الوطني بصورة حميمة بنضاله من أجل التحرر الاجتماعي . ولذلك فقد كان هذا النضال من أجل اقامة مجتمع أريتري سيد واشتراكي . ومن أجل هذه الغاية ، تبنت الجبهة استراتيجية حرب الشعب الطويلة المعتمدة على الذات كأسلوب وحيد لتحقيق هذه الأهداف . وقد تطلب خوض هذه الحرب الشعبية الطويلة المعتمدة على الذات تغييرات عميقة في المجتمع الأريتري القائم . ويعني ذلك ، بالنسبة للجبهة الشعبية ، انه يجب تحقيق مهام متعددة على جبهات مختلفة ، وكان عليها بلوغ مشاركة جماعية وواعية للجماهير في النضال المستمر ، وبالتالي تنظيم هذه الجماهير ، وتسييسها وتسليحها وكان على الجبهة الشعبية ان تقود هذه الجماهير الى انهاء علاقات انتاج استغلالية وبالية ، لازالة القيود عن أي تطور للقوى المنتجة . كان عليها أن تشجع وتمهّد الأرض لانتزاع السلطة السياسية من قبل الطبقات المضطهدة التي تشكل القاعدة الاجتماعية للثورة . وباختصار فانه كان يجب خوض النضال الطبقي في وقت واحد مع النضال من أجل التحرر الوطني .

كيف شرعت الجبهة الشعبية لتجرير اريتريا في ذلك؟ لنلق نظرة على الاجراءات التي اتخذتها الجبهة في المناطق الريفية والمدن التي تخضع لسيطرتها .

استصلاح الأراضي والتحولات الإجتماعية في الريف

علينا ، أولاً ، أن نرى الظروف التي بدأت الجبهة الشعبية لتحرير أريتريا في ظلها ونفذت فيها عملها الثوري بين جماهير الفلاحين. فالسنوات الصعبة التي تلت نشوءها وانفجار الحرب الأهلية في العام ١٩٧٢ لم تسمح للجبهة بتنفيذ خطها السياسي بفعالية. ولهذا فلم يمكن بدء تعبئة الجماهير عموماً قبل نهاية العام ١٩٧٤. والتجارب التي سندرسها هنا تعود الى ذلك الوقت وقد جرت في ظروف عسكرية وسياسية بالغة الصعوبة. ومن أجل فهم البعد الحقيقي لأي تحول اجتماعي ينبغي النظر اليه ضمن اطاره . فاصلاح الأرض بذاته لا يستدعي بالضرورة ، مثلاً تحولاً عميقاً (بالمفهوم الاشتراكي) للإصلاح الزراعي في علاقات الانتاج او العلاقات الطبيعية في مجتمع معين. وهكذا فان فهم المضمون الحقيقي للاصلاح في المناطق المحرّرة من اريتريا يتطلب وضعه أولاً في الموقف الثوري العام الذي يسود في البلد . ويستدعي ثانياً تفحصاً عن كثب لآثاره المباشرة على الوضع الاجتماعي قيد البحث . ومن أجل الوصول الى الهدف الأخير، بصورة أفضل، سننظر الى دراستين لحالتين من اصلاح زراعي في مجموعتين قرويتين في المرتفعات : ازين» *(Azien)* و « مدري زين» *(Medri Zien)*

ازين : هي قرية نموذجية في السهل الأريتري، تقع على بعد كيلو مترات قليلة شمال اسمره. وهي قرية متوسطة الحجم تتوزع ملكية الأرض فيها حسب نظام «ديسا» (*Diesa*). ومثل معظم القرى في تلك المنطقة خضعت أزين (*Azien*) للعملية الاجتماعية التي وصفناها سابقاً، أي أن العناصر الاقطاعية التي استخدمت السلطة السياسية المعطاة لها من المستعمرين المتلاحقين قد منعت نظام «ديسا» (*Diesa*) من العمل. وكان توزيع الأرض، الذي ينبغي أن يحدث حسب هذا النظام مرة كل سبع سنوات، قد مرّ عليه زمن طويل. في العام ١٩٧٥، كانت قد مرت ثمان وثلاثون سنة على آخر عملية توزيع للأراضي. وبمرور السنوات جمع الاقطاعيون والفلاحون الأغنياء مساحة واسعة من الأرض وعمدوا بالأساليب التي شرحناها سابقاً، الى استغلال الفلاحين الفقراء. في الوقت الذي وصلت فيه قوات الجبهة الشعبية الى القرية كانت مساحات واسعة من الأرض قد أصبحت تدريجياً ملكية خاصة للاقطاعيين والفلاحين الأغنياء. وتحولت ملكية القرى الجماعية، تقريباً، الى ملكية خاصة واقعياً وهكذا ازداد عدد الفلاحين الفقراء والذين لا يملكون أرضاً وأصبحوا الأكثرية الساحقة من الفلاحين. وفي هذه السنوات الـ ٣٨ كانت جماهير الفلاحين في أزين (*Azien*) تطالب باستمرار بتطبيق نظام «ديسا» الا أن مطالبهم، على المستوى المحلي وجدت طريقاً مسدوداً لدى العناصر التي كانت تحتكر السلطة الاقتصادية والسياسية، وعلى مستوى أعلى، اعتبرت ببساطة غير قانونية ومرفوضة.

في الوقت الذي وضعت فيه الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا قدمها في ازين (*Azien*) حوالى نهاية العام ١٩٧٤، كان الفلاحون مستعدين لازالة الوضع القائم، مصدر بؤسهم. ولكنه لم يتم تطبيق اصلاح الأراضي الا بعد عام فقط. كيف شرعت الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا في اعادة تنظيم المناطق المحررة؟ بالنسبة للجبهة فان تحرير منطقة لا يعني طرد العدو من جزء ما من البلاد فحسب. فقبل البدء بعملية عسكرية، تقوم الجبهة بدراسة مفصّلة للظروف التاريخية، السياسية والاجتماعية ـ الاقتصادية للمنطقة وتعدّ التحضيرات الضرورية مسبقاً لتنظيم المنطقة المحررة لاحقاً. ولدى انتهاء المعركة، تحضر الجبهة الى المنطقة جميع الوحدات التي تعتني بالقطاعات المختلفة (التعليم، الصحة الخ . . .) جنباً الى جنب مع مقاتلي الجيش الشعبي الذين يتولون مهمة الدفاع عن المنطقة المحررة ضد اي هجوم معاد.

في ازين (*Azien*)، وتلبية لمطالب الفلاحين، عملت وحدات الدعاية المسلحة

على تحضير الأرض للتحول الشامل في الظروف الاجتماعية ـ الاقتصادية للقرية . وقامت هذه الكادرات من قسم التنظيم الجماهيري ، كخطوة تمهيدية، ليس فقط بدراسة الظروف الاجتماعية ـ الاقتصادية العامة للقرية وانما ايضاً الوضع الاجتماعي ـ الاقتصادي لكل اسرة فلاحية. وتشكل هذه الدراسات الأساس الذي تحدّد الجبهة من خلاله آلفلاحين الفقراء خاصة من أجل تنظيمهم في خلايا سرية*. وتعتقد الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا ان الفلاحين يستطيعون فقط عندما يكونوا منظمين أن يقودوا النضال الثوري الى الأمام . والجبهة على اقتناع بأن النضال من أجل التحول الاجتماعي ينبغي ان يكون فعل جماهير الفلاحين أنفسهم، وبأنه في عملية النضال الثوري الذي تخوضه جماهير الفلاحين المضطهدين بنفسها ومن أجلها فقط يمكن تحرير هؤلاء من العلاقات الإقطاعية كافة. فالثورة الحقيقية لا يمكن أبداً أن تعلن من فوق.

ولكن ، وقبل انشاء الخلايا المؤلفة من الفلاحين الفقراء والى حد ما من الفلاحين المتوسطين، دعت كادرات وحدات الدعاية الى سلسلة اجتماعات حضرها جميع افراد القرية ووفرت تربية سياسية شاملة تراوحت من تاريخ اريتريا الى اهداف الثورة الحالية. كما جرت اضافة الى ذلك اتصالات ومناقشات شخصية مع الفلاحين الفقراء والمتوسطين. وفي سياق هذه الاجتماعات والمناقشات تم تجنيد الفلاحين الاكثر تجاوباً في خلايا سرية يصل حجمها حتى ١٥ عضواً.

وفي هذه المرحلة من النضال الثوري كانت الطريقة الوحيدة لتحطيم النموذج الاقطاعي لعلاقات الانتاج الذي نشأ في التجمعات القروية في المرتفعات الاريترية هو العودة الى التطبيق الصارم لنظام «ديسا» *(Diesa)* الخاص بالملكية الجماعية للقرى. فهذا التقليد يضمن ، بشكل أو بآخر الاشتراكية في ملكية الأرض . وفي اطار هذا الهدف، كانت مسألة استخدام الأرض وملكيتها تبحث غالباً في مناقشات الخلايا السرية. ولأن ذلك هو ما حاولوا القيام به لعقود من الزمن ، فقد ايد اعضاء الخلايا بقوة بالغة اقتراح اعادة توزيع الأرض عندما طرح للنقاش.

الا أن الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا رأت قبل طرح هذه الاقتراحات في العلن ، انه يجب اتخاذ خطوات مسبقة لتغيير علاقات القوى في ادارة شؤون القرية وفي مجلس القرية الذي ينظم إعادة توزيع الأرض . وينبغي هنا التذكير بأنه برغم ان قادة مجالس

---

* سمة السرية هنا تستهدف تجنب مواجهات اجتماعية علنية في هذه المرحلة .

القرى ينتخبون مبدئياً بصورة ديموقراطية فقد جاؤ وا بمعظمهم في الواقع من عائلات « ريستيغنا »(*Restegna*)واستثنوا مثلاً عائلات « **ماكلاي عايلات** »(*Makelai ailet*). وبتطور التركيب الطبقي لقيادات المرتفعات الأريترية ، أصبحت مجالس القرى طبعاً حكراً للملاكين والفلاحين الأغنياء . فكان بيناً ان اي اعادة توزيع للأرض تفترض تغييراً مسبقاً في الطبيعة الطبقية لمجلس القرية . وهكذا ، ففي المناطق التي تسيطر عليها الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا كان العمل في اعادة توزيع الأرض يبدأ عادة مع تحريض الفلاحين المنظمين على اجراء انتخابات جديدة لقيادات مجالس القرى في اجتماعاتها الاسبوعية .

وينبغي هنا ملاحظة ان النساء اشتركت، لأول مرة في تاريخ اريتريا الريفية، في الحياة السياسية للتجمعات القروية (مجالس، انتخابات، اعادة توزيع أرض الخ. . .). كما نشأت ايضاً خلايا سرية للنساء لعب اعضاؤ ها دوراً مهماً في عملية التحول الاجتماعي في حياة القرية. وكانت التعبئة السياسية العامة للقرية الى جانب المشاركة النشيطة لأعضاء خلايا الفلاحين الفقراء وخلايا النساء تظهر تأثيراتها في نتائج الانتخابات الجديدة. وبات افراد القطاعات الفلاحية الذين كانوا ، اما لاسباب اقتصادية (الفقر ، أو عدم حيازة الأرض) أو لأسباب اجتماعية ـ تاريخية (السكان غير الأصليين مثل «**ماكلاي عايلات**» (*makelai ailet*) يبعدون حتى الآن من المراكز ذات المسؤ ولية في مجالس القرى ، يتولون سلطات سياسية وادارية. وتعتقد الجبهة الشعبية ان هذا التغير الجوهري في العلاقات الطبقية في التجمعات القروية هو شرط مسبق للتطبيق الملائم لاصلاح الأراضي الذي ارتكز في مرحلته الأولى على التوزيع المتساوي للأرض وفق نظام ملكية الأرض التقليدي .

وقد شهدت **ازين** (*Azien*) هذه العملية بالذات . وفي نهاية تشرين الثاني (نوفمبر)١٩٧٥ ، كانت هناك ست خلايا سرية مؤلفة من ٧٠ عضواً معظمهم من الفلاحين الفقراء والذين لا يملكون أرضاً. وبالعمل التحريضي والمشاركة النشيطة لهؤلاء ولكادرات الجبهة انتخب جهاز قيادي جديد، اكثريته من الفلاحين المنظمين ، لادارة شؤ ون القرية ، وفي وقت لاحق طرحت مسألة اعادة توزيع الأراضي في مناقشات عامة حضرها اكثر من ١٢٠٠ فلاح. وحصلت هذه المسألة على دعم الفلاحين الساحق من دون صعوبة تذكر . وقد انتخبت لجنة أخرى من ٩ أعضاء لوضع صيغة العمل ـ وهذا بعد ٣٨ عاماً ـ لاعادة توزيع الأرض . وفي تقرير قدمته اللجنة تبين أن ١٥٠٠ أسرة مؤ هلة للاستفادة من اعادة التوزيع في قرية متوسطة الحجم مثل ازين (*Azien*) يسكنها

أقل من خمسة آلاف انسان . وبعد استبعاد ٣٠٠ أسرة لأسباب مخلفة (الذين لم يزرعوا أرضهم طيلة السنوات الخمس الأخيرة ، والذين يخدمون في الجيش الأثيوبي ويقاتلون ضد الثورة الخ . . .) صدرت لائحة باسماء ١٢٠٠ مستفيد .

مدري زين *(Medri-Zein)* : النموذج الثاني للاصلاح الزراعي في قرية **مدري زين** يظهر عزم الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا الثابت على الوقوف الى جانب الجماهير في نضالها لتحطيم العلاقات الاقطاعية حتى في الظروف الصعبة. فقد كانت الكنيسةالقبطية دائماً مؤسسة اقطاعية في اريتريا الريفية ، كما لم يكن دير «**دبري سينا**» *(Debre-Sina)* ليستثنى من ذلك . فقد امتلكت الكنيسة كل أرض قرية **مدري زين** *(Medri-Zien)* المجاورة التي ضمت ٥٠٠ اسرة فلاحية . كان فلاحو هذه القرية يعملون لصالح الدير كمستأجرين ويحتفظون بثلث محصولهم. وقد طالب فلاحو **مدري زين** *(Medri- Zien)* طويلاً بملكية القرية لهذه الأرض بصورة جماعية، الا ان رئيس كهنة الدير رفض دائماً وادى ذلك الى نزاع دائم بين جماهير الفلاحين في **مدري زين** *(Medri -Zien)* والدير. في بعض الأوقات نشبت اشتباكات وكان الدير يلجأ الى الجيش الأثيوبي عندما تخرج هذه الأشتباكات من يده .

في هذا النضال دعمت الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا مطالب الفلاحين. وعندما زادت حدة الصراع شنت الجبهة حملة لصالح مطالب المستأجرين. وشكلت خلايا لإتحاد الفلاحين في **مدري زين** *(Medri-Zien)* كما اقيم مجلس للقرية. ولم يمض وقت طويل حتى عمّ هذا النضال الطبقي المنطقة كلها . وهكذا فكان الأمر الوحيد الذي استطاعت الكنيسة فعله هو اثارة شعور شعبي ضد الجبهة عن طريق اتهامها بأنها معادية للدين. ولكن التهمة لم تصمد. فقد اصرّ المستأجرون في **مدري زين** *(Medri-Zien)* ، بدعم من الجماهير الفلاحية في المنطقة وكذلك من الجبهة الشعبية، على مطالبهم بحيث أدى ذلك الى انقسام داخل الدير أسفر تدريجياً عن عزلة الكهنة الرئيسيين ، وقد اضطر الدير للرضوخ وباتت ارض **مدري زين** *(Medri Zien)* الآن تحت نظام «**ديسا**» *(Diesa)*.

● المهم في هذه الحالة، الى جانب تقديم مثل للنضال الثوري ضد مؤسسة اقطاعية متينة مثل الكنيسة القبطية، هو موقف جبهة التحرير الاريترية . فعندما شعر الكهنة الرئيسيون أنهم على وشك خسارة ملكيتهم الاقطاعية للأرض ناشدوا جبهة تحرير اريتريا مدّ يد المساعدة لهم في نضالهم ضد المستأجرين . وقد ذهبت جبهة التحرير

الاريترية في دعم الدير الى حد تهديدها المستأجرين بالسلاح لاعادة الأرض الى الدير . والواقع ان جبهة التحرير الاريترية لم تفعل الا القليل في اطار تحويل البناء الاجتماعي . وهي تقول انها تعارض تطبيق الاصلاح الزراعي في المرحلة الراهنة من النضال وأن ذلك يجب تأجيله الى ما بعد الاستقلال . كما أنها تعتبر سياسة الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا في هذا المجال «تطرفاً يسارياً» . وفي ما يتصل بعلاقات القوى في القرى التي تخضع لسيطرتها ، لا نجد عملياً أي تغيير . ففي هذه القرى انشأت جبهة التحرير الاريترية لجاناً من خمسة اشخاص لادراة شؤ ون المجموعة . واعضاء هذه اللجان هم في الغالب من بين المالكين والفلاحين الأغنياء .

وما ينبغي التأكيد عليه هو أنه بينما يرتكز الاصلاح الزراعي على نظام ملكية الأرض التقليدي ، فان الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا أعطت هذا النظام محتوى ديموقراطياً جديداً . كما أنها عدّلت قوانين النظام العرفي في نقاط عدة . فقد كانت الأسرة فقط ، في السابق ، هي التي تشارك في اعادة توزيع الأرض ، أما في النظام المعدّل فقد أصبح سكان القرية يحصلون على حصصهم من الأرض بصورة افرادية . ومكن ذلك غير المتزوجين والنساء من الحصول على أرض لهم ، ويمكن التذكير هنا أن هؤ لاء كانوا يشكلون نسبة مئوية مهمة من الفلاحين المحرومين من الأرض . لقد ذكرنا سابقاً ان افراد القرى الذين هاجروا الى المراكز المدينية احتفظوا بحقهم في استخدام الأرض ثم تركوا حصصهم من الأرض ، بعد ذلك ، ليزرعها الفلاحون الأغنياء والملاكون . أما في اعادة توزيع الأرض الجديدة ، فلم تخصص أي قطع أرض للغائبين من أفراد القرى ما لم يثبت ان هؤ لاء يعتمدون كلياً في حياتهم على ما تنتجه مزارعهم . لكن أجزاء من أرض القرية قد تركت ، رسمياً ، كاحتياط بحيث يستغلها بعض هؤ لاء الغائبين الذين يقررون العودة للعيش في القرية وزراعة أرضهم .

أن قرية «زاغر» *(Zager)* ، حيث نزعت ملكية ٩٠ قطعة أرض كانت تخص الغائبين من الملاكين ومعاونيهم وحوّلت الى القرية لزراعتها جماعياً ، تقدم مثلاً عن الاجراءات القاسية التي يستدعيها الاصلاح الزراعي في بعض الأوقات . فهذا النموذج لتوزيع الأرض يلغي قاعدة تراكم الأرض من قبل الفئة العليا من الفلاحين ، وكذلك الحرمان من الملكية واستغلال الفلاحين الفقراء . وهؤ لاء الفلاحون الذين يملكون الآن قطع أرض خاصة بهم سيكونون أقل اضطراراً لبيع قوة العمل لديهم . ومن ناحية أخرى فان الاقطاعيين والفلاحين الأغنياء سيخسرون عن طريق اعادة توزيع الأرض

اضافة الى خطر الربا بصورة صارمة جداً من قبل الجبهة والسيطرة على النشاطات التجارية في المناطق المحررة ، سيخسرون مصدر سلطتهم الاقتصادية والمالية الأساسي ولكن من أجل تحرير المستفيدين من الاصلاح الزراعي من الاستغلال ، كان ينبغي تزويدهم بمعدات الزراعة الضرورية والحيوانات الكافية التي كانت احدى الاسباب الرئيسية للتمييز الطبقي في اريتريا الريفية . والأكثر من ذلك ، فانه برغم آثار الاصلاح الزراعي في زيادة ديموقراطية الحياة الريفية ، بقيت الأراضي المخصصة للزراعة مجزأة بصورة واسعة . واساليب الزراعة ما زالت متخلفة كما أنه ما زال الانتاج متدنياً . ولهذا فان الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا كانت محقة في اعتقادها بأن الاصلاح الزراعي الراهن لا يمكن استكماله برغم كونه خطوة مبدئية جوهرية في اتجاه التحول العميق للمجتمع ، من دون بدء الزراعة الجماعية . ومن أجل هذه الغاية . شرعت الجبهة في برنامج تربوي واسع . ويقوم الجيش الشعبي بمساعدة الفلاحين في عملهم وكذلك في مساعدتهم على تبني اساليب حديثة للزراعة . وبعض المزارع التجارية الصغيرة المؤممة أديرت على هذا الأساس .

وهناك مظهر آخر للاصلاح الزراعي الذي نفذته الجبهة الشعبية ، هو تأميم المزارع والزراعات الممكننة الكبيرة والتي كانت سابقاً ، في ايدي نظام الاحتلال الاثيوبي ، والرأسماليين الأجانب والمتعاونين معهم من الأريتريين . وسنذكر ، هنا ، باختصار فقط ، ان الجبهة تعمل ايضاً على توسيع المناطق الصالحة للزراعة وتقيم زراعة واسعة النطاق على الأراضي التي انتزعت من العدو . وحالياً تدير الجبهة هذه المزارع من أجل الوفاء باحتياجات المنظمة للطعام وتستخدمها ايضاً كمراكز للتجارب الزراعية في خدمة جماهير الفلاحين .

تنظيم مديني من طراز جديد .

في العام ١٩٧٧ بدأت الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا في تحرير عدد من المدن الأريترية المهمة . وكما كان الأمر في الريف ، فان التحرير تم بعد دراسة للظروف الاجتماعية ـ الاقتصادية والسياسية وبعد انشاء خلايا سرية . أما بعد التحرير فقد أعطيت الأولوية لتعبئة وتنظيم السكان في منظمات جماهيرية حسب الطبقات الاجتماعية والمجموعات التي ينتمون اليها : العمال ، صغار التجار ، النساء الشباب وغيرهم . وسنشدد ، هنا على جهود الجبهة لتحويل العلاقات الاجتماعية ـ الاقتصادية في المدن ولتنظيم حياتها السياسية والادارية . وفي هذا المجال ، فإن مدينة كرن

(Keren) وهي ثاني أكبر مدينة اريترية ، مثلت أرض اختبار أساسية بالنسبة للجبهة الشعبية .

ففي الحقل الاجتماعي ـ الاقتصادي ، كانت المهمة الاكثر الحاحاً امام الجبهة اعادة بناء المدينة وتحسين ظروف الحياة للسكان. وعلى الصعيد العملي ، تضمن ذلك صيانة مصادر المياه ، وتزويد السكان بالسلع الأساسية ، وضمان الامدادات الكافية من الوقود للنقل ومنشآت الطاقة . وبرغم الصعوبات الهائلة وقصف الجيش الاثيوبي المتواصل للمدينة ، تمكنت الجبهة من استمرار تشغيل بعض المصانع والمنشآت الاقتصادية (انضم المقاتلون الى العمال في تشغيلها)، ومراكز الصحة والمدارس. وفي خلال الشهر الذي تلى تحرير كرن (Keren) عملت فرق من الجبهة على امتداد المدينة لاصلاح الاضرار التي ألحقها بها القتال. فأعيدت الكهرباء وخدمات الهاتف وكذلك أعيد توزيع حصص المؤونة للطوارىء. ولم يمرَّ وقت طويل حتى بدأت الحياة تعود الى طبيعتها. وبتدفق العائلات الأريترية الى كرن من المدن التي ما تزال تحت الاحتلال الاثيوبي فان المدينة نمت بسرعة . ويستحق اجراءان اثنان اتخذتهما الجبهة الشعبية لتحويل الظروف الاجتماعية ـ الاقتصادية في كرن الشرح هنا: اولاً ، وضعت الجبهة تحت سيطرتها المباشرة جميع المؤسسات الاقتصادية والمالية وكذلك الأملاك العامة التي أممها النظام الاثيوبي سابقاً. وبرغم كل الصعوبات التي يمكن تصورها، واصلت الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا برنامج التأميم هذا مباشرة بعد تحرير المدينة ، بينما كانت جبهة التحرير الاريترية بدلاً من ذلك، تعيد في المدن التي حررتها جميع الاملاك التي استولى عليها النظام الاثيوبي الى أصحابها الأصليين . ثانياً زيادة أجور العمال وتأسيس سياسة الأسعار المنخفضة للسلع المتداولة في المدينة . وفي موضوع الاسعار حدّدت الجبهة نسبة ربح دنيا (١٠٪) للتجار الكبار في المدينة ، وانشأت في الوقت نفسه سلسلة من المخازن التعاونية حيث تقل أسعار الطعام حوالى ٣٠٪ عن أسعارها في المتاجر الخاصة وكان الهدف من هذه السياسة ليس فقط تحسين ظروف المعيشة لسكان المدينة وانما ايضاً محاربة اي استغلال او مضاربة، ووقف اية فرص امام المنتجين الخاصين الصغار في كرن لتكديس الثروة .

● الى جانب المسألة الاجتماعية ـ الاقتصادية ، واجهت الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا ايضاً المسائل السياسية والادارية. وقد اتسمت الشهور التي تلت تحرير كرن (Keren) بتحريض سياسي مركز وكثيف وعقدت مهرجانات سياسية حضرها الألوف من الناس. وقد علمنا انه في كرن وحدها كان حوالى ٥٠ اجتماعاً سياسياً

وتعليمياً يعقد كل اسبوع . كما نفذت على نطاق واسع عمليات تعبئة وتنظيم الجماهير وانشئت منظمات جماهيرية متعددة. وبعد دراسة الأنظمة البديلة تبنت الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا ما اسمته «نظام الحكومة الذاتية الشعبية»، حيث قسمت كرن الى ٦ مناطق تحتوي كل منها على خمسة اتحادات جماهيرية : اتحاد العمال ، اتحاد الفلاحين، اتحاد البورجوازيين الصغار، اتحاد المرأة ، واتحاد الشبيبة (١٦ ـ ٢٥ عاماً). وقد عمل كل من هذه الاتحادات من خلال شبكة خلايا يصل حجم كل خلية منها حتى ٦٠ عضواً. كل مجموعة انتخبت قادة الذين انتخبوا بالاشتراك مع قادة المجموعات الأخرى جهاز المنظمة الشعبية . وانضم اعضاء هذه الأجهزة التنفيذية الى زملائهم في الاتحادات الجماهيرية الأربعة الأخرى لتشكيل مجلس الشعب المكون من ٣٦ ممثلاً . وهؤلاء بدورهم انتخبوا لجنة تنفيذية من ١٢ عضواً ، وهي السلطة المحلية العليا المسؤولة عن القضاء ، الشؤون الاقتصادية ، الأمن ، والنظام العام .

لقد وجدت الجبهة الشعبية ان هذا النظام هو الوسيلة الملائمة لتغيير العلاقات الطبقية في المدينة لمصلحة الثورة. وبسبب أغلبيتهم العددية المطلقة والتوجه السياسي الثوري للمنظمات الجماهيرية، قاد العمال والعناصر التقدمية بين الشباب والنساء الأجهزة السياسية والادارية. وبالنسبة للجبهة الشعبية فان الشعب تولى السلطة السياسية عبر اتحاداته الجماهيرية . الا ان قادة الجبهة ، برغم ان هذا النظام اعتبر نموذجاً للمدن الأخرى . يؤكدون انه لا يحول دون انتخاب مجلس الشعب في اريتريا المستقلة وفق الحق الانتخابي العام كما هو منصوص عليه في برنامجها .

ان علينا تذكر أن النضال المسلح بدأ في وقت كانت فيه حركة الطبقة العاملة ضعيفة وكان العمال الاريتريون مشتتين. ولم يكن النضال المسلح استمراراً مباشراً للنضالات التي خاضتها الطبقة العاملة في الأربعينات والخمسينات. ومع ان اكثرية مهمة من الطبقة العاملة في ارُيتريا موجودة في المدن تحت الاحتلال المعادي ، فان السيطرة على بعض المدن وفرت للجبهة فرصة تنظيم هذه الطبقة بصورة أفضل . كما أن الجبهة قامت أيضاً بعمل هام في تعبئة وتنظيم العمال الأريتريين المهاجرين في البلدان الأجنبية . وإلى جانب نشاطاتها السياسية ، تلعب اتحادات العمال خارج اريتريا دوراً مهماً في النضال عن طريق دعمها المادي الواسع للجبهة . اما بالنسبة للعمال تحت الاحتلال الأثيوبي ، فقد جرى تنظيمهم في خلايا سرية في المعامل والمؤسسات الأخرى. ومن المعروف عموماً أن المواد الضرورية لتشغيل مصانع الجبهة الخاصة بالحرف والمزارع المكننة في المناطق

المحررة قد تأمنت خلال الغارات العديدة على المدن بتعاون وثيق مع العمال المنظمين .

تقوم الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا ، أيضاً ، بجهود كبيرة لنشر ايديولوجية الطبقة العاملة . وهي تعلق أهمية كبيرة على تجنيد العمال . والى جانب مشاركتهم في نشاطات الجبهة جميعها . لابد من التشديد على الدور الذي يلعبه المقاتلون من العمال في نشاطات الجبهة الاقتصادية المهمة (المشاغل المتعددة، النقل ، البناء، الاسلحة، والاصلاح الالكتروني الخ . . .) . اما بالنسبة للدور القيادي للطبقة العاملة ، فان للعمال الأولوية بين المقاتلين وأفراد المنظمات الجماهيرية الذين يذهبون الى مدرسة الكادر ، تعطى للعمال أو للمقاتلين الذين هم من جذور عمالية .

د ـ النضال التحرري والمرأة في المجتمع الأريتري

وصف العديد من مراقبي النضال الأريتري مشاركة النساء في الثورة بقيادة الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا بأنها مهمة جداً وأصيلة تماماً في تاريخ الحركات التحررية في افريقيا. وهذا هو أحد الاسباب التي تجعلنا نرى ان موضوع دور المرأة في هذا النضال التحرري هو حالة مهمة تستدعي دراسة اجتماعية وسياسية تفصيلية . ولنلق نظرة سريعة في الوقت الحاضر، على المسائل التي اثارها وضع النساء في المجتمع الاريتري وكيف تعاملت معها الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا .

١ ـ النساء في المجتمع الأريتري

في اريتريا الريفية ، تستثنى النساء من ملكية اية وسيلة انتاج كما تستبعدن من اي انتاج اجتماعي او تلعبن دوراً ثانوياً بالنسبة للرجل. وفي مرتفعات اريتريا ، مثلاً ، يجري استثناء النساء ، عامة ، من الملكية المباشرة للأرض بجميع الاشكال لملكية الأرض. كنّ يمضين النهار بكامله في عمل قاسٍ في المزارع الى جانب ازواجهن ووراء آبائهن . في نهاية النهار تعود الزوجة الى البيت قبل زوجها وتبدأ دائرة جديدة من العمل المنزلي . في المنخفضات ، تحصر النساء في الأجزاء الداخلية من المنازل بحيث لا يراهن أي رجل . في المناطق المدينية، توجد نسبة ضئيلة من النساء اللواتي تعملن في المعامل. ولكنهن يشتغلن ، عادة في الأعمال الرخيصة ويشكلن ، بالتالي اكثر افراد الطبقة العاملة معاناة من الاستغلال .

[لم يكن للنساء مكان في جميع وجوه الحياة السياسية والاجتماعية .ففي المرتفعات، مثلاً ، لم يكن يسمح للنساء بحضور مجلس القرية . وفي مجتمع ابوي وشبه اقطاعي ،

كهذا المجتمع ، كانت الزيجات التي تتأثر اساساً بالحسابات الاقتصادية ، تتم دون اي تشاور مع الزوجة المقبلة . وفي اريتريا الريفية ما يزال زواج الاطفال سائـداً . أما بالنسبة للطلاق فهو امتياز كامل للرجل .

٢ ـ التغييرات في وضع النساء

لن نعالج ، هنا اشتراك النساء الأريتريات في النضال التحرري ، بل سنرى بشكل موجز كيف يسعى التحول الجاري في البناء الاجتماعي للمجتمع احداث تغييرات في وضعهن .

لقد رأينا أن قطاعاً من الفلاحين المحرومين من الأرض كان من النساء . وفي عملية الاصلاح الزراعي التي تنفذ ، لم يعد توزيع الأرض يتم على قاعدة الأسرة بل على قاعدة الفرد . وبسبب هذا التعديل في قوانين اعادة توزيع الأرض بات باستطاعة المرأة الحصول على حصة متساوية من الأرض . ومن خلال تنفيذ الاصلاح الزراعي ، تعتقد الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا ان احد الاسباب الاساسية لاضطهاد النساء ، وهو استثناؤ هن من ملكية الأرض ، سيزول تدريجياً . والآن فإن النساء لا تحضرن فقط بل تشاركن عملياً بنشاط في مجالس القرى وفي جميع النشاطات الاجتماعية والسياسية (الاصلاح الزراعي ، اسقاط السلطة الاقطاعية السياسية الخ . . .) للتجمعات القروية . وفي المدن المحررة وصلت النساء من خلال اتحاداتها الجماهيرية الى اعلى المسؤ ليات في أجهزة نظام الحكومة الذاتية . ولأن ٩٥٪ من النساء الأريتريات أميات فان الجهود لمحاربة الأمية تشكل عاملاً مهماً في تحرير النساء . كما ان تشريعات الزواج التي أعلنتها الجبهة الشعبية في العام ١٩٧٨ تتناقض تماماً مع قوانين وعادات المجتمع الابوي . ووفق هذا القانون ألغيت زيجات الاطفال الارغامية ، من ضمن اشياء أخرى ، في المناطق المحررة . أما بالنسبة للطلاق فإنه لم يعد وقفاً فقط على ارادة ونزوة الرجل .

تعتقد الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا ان هذه التغييرات سيتم تعزيزها في النضال الجاري فعلاً لازالة الأجحاف اللاحق بالمرأة في المجتمع . وكان هذا الاجحاف قد اهتز بفعل المشاركة المؤثرة للنساء في النضال المسلح . والآن فان ما لا يقل عن ٢٠٪ من مقاتلي الجبهة الشعبية هم من النساء . المقاتلات في الجبهة يشتركن ايضاً في الزراعة وفي الصناعات الحرفية ، كما يعملن في المشاغل الآلية وفي الورشات الكهربائية وورشات تصليح الاسلحة . وتشترك النساء المقاتلات بنشاط ايضاً في العمليات العسكرية ،

فليس هناك في الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا عمل مخصص للرجال فقط . وتسعى الجبهة ايضاً لزيادة عدد القائدات من النساء وكذلك تحسين نوعيتهن . فهن يتمتعن بالأولوية الأولى في الذهاب الى مدرسة الجبهة الكادرات . وفي المؤتمر الأول للجبهة الشعبية لتحرير اريتريا شكل النساء ١١٪ من المندوبين ، كما ان أحد أنشط الاتحادات الجماهيرية في الجبهة هو في الواقع اتحاد النساء .

هـ ـ العرقية والدين

تتعايش في البلاد مجموعات عرقية متعددة، وقد لعبت الموجات الاستعمارية المختلفة على الخلافات وحتى على العداوات بينها . وتميز المجموعات القومية المتنوعة نشاطات اقتصادية ، مواقع بيئية، عادات ثقافية ولغات مختلفة. تلك مسألة لم تستطع الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا تجنبها . وقد اتخذت بعض التدابير المهمة من أجل اعطاء كل مجموعة امكانات تعبير متساوية وخاصة في ما يتعلق باللغة .

والشيء نفسه يمكن أن يقال عن الأديان . فالمسيحية والاسلام هما الديانتان الرئيسيتان. وقد دمجت كلتاهما عناصر من الديانات التقليدية. والكنيسة القبطية هي المجموعة المسيحية الرئيسية الا ان هناك ايضاً مجموعات صغيرة من الكاثوليك والبروتستانت. يبقى انه من اجل تحليل هذه المسألة وهي مركزية تماماً ليس فقط بالنسبة للقوميات وانما ايضاً بالنسبة لبعض وجوه البناء التحتية الاجتماعية (خاصة التعليم) ، هناك حاجة ماسة لخلفية تاريخية. الا ان الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا لم تكتب الكثير حول هذا الأمر وان كانت ممارستها واضحة كما يبدو في هذا المجال : احترام المؤسسات الدينية التي تقوم بوظائف مهمة في المجتمع. وهذا مرة اخرى ينبغي ان يكون موضوع المزيد من التحقيق .

استنتاجات

لقد تجاهل الرأي العام ، بشكل كبير ولفترة من الزمن ، النضال المديد للأريتريين . والاكثر من ذلك ان الأبعاد الاجتماعية لذلك النضال غير معروفة الا قليلاً. فالاهتمام الاكبر يعطى لوجهه العسكري ، وأدى ذلك الى ارباكات متعددة بينها الاتهام بأنه مشروع قومي بحت. وفي هذه الدراسة الأولية حاولنا ان نكشف هذا البعد الآخر وهو مركزي في نشاطات الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا .

وهكذا فان عملية تصفية الاستعمار تربط معاً كلاً من الاهداف القومية وأهداف التحول الاجتماعي . واذن ، يمكن وضع الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا بين حركات التحرر العظيمة مثل تلك التي قامت في الصين ، فيتنام ، كوبا ، غينيا ـ بيساو ، موزامبيق وانغولا . وقد استطاعت الجبهة الى حد ما الاستفادة من خبرات تلك الحركات علماً بأنها كما يبدو ركزت الكثير من الاهتمام على خصوصية وضعها .

ان البعد الاجتماعي للنضال الأريتري يعني اكثر بكثير من الاهتمام بالمشاكل الاجتماعية . فهو يرتبط باحداث تغييرات في نمط الانتاج . وهذا هو السبب وراء عمل تحليل طبقي وتطبيقه تفصيلياً في كل منطقة قبل البدء بعملية التغيير . وقد تأثر العديد من المراقبين في الخارج بتجانس السياسات والتعقل في تنفيذها . وهذا يوحي بأن الجبهة واعية لواقع ان التحول الخارجي في علاقات الانتاج ليس كافياً وانه لن يكون هناك حل ثابت من دون عمل جوهري وصبور على مستوى البناء الفوقي .

ولهذا فان القيام ببحث تاريخي ، انتروبولوجي وسوسيولوجي عملية اساسية لنجاح الثورة على المدى البعيد ، اذا كانت الجبهة لا تريد ان تضطر لفرض حلول ، من فوق خصوصاً اذا كانت هذه الحلول لا تفهمها القاعدة بعد أو لا تقبلها بسهولة . والتعقيد الكبير في البنية الاجتماعية الأريترية لا يسمح بأي تجاوز لمثل هذا الاحتمال .

لا نستطيع ان ننسى ان مهمة حركة التحرر هذه تنفذ في ظروف غير ملائمة للغاية : الحرب مع اثيوبيا ، الصعوبات الناجمة عن الانقسامات في النضال التحرري (وهي غير منفصلة عن البنية الطبقية) ، في ساحة المعركة الخ . . . هذه الظروف الداخلية والخارجية لا تجعل النضال صعباً فقط وانما بطولياً بصورة غير عادية واكثر التناقضات مدعاة للألم هو واقع ان البلدان حملت السلاح ضد نضال اريتريا الوطني والاجتماعي .

المراجـع :

١

G.K.N. Trevaskis, *Eritrea: A Colony in Transition,* Oxford University Press (London, New York, Toronto) 1960.

Association of Eritrean Students in North America, *In Defence of the Eritrean Revolution,* 2nd ed., New York, 1978.

EPLF "Class Analysis in the Eritrean Countryside". June 1975.

Bimbi, Guid, "I contadini di Medri Zien", *l'Unita,* Rome 2-6 March, 1977 in *Revolution in Eritrea,* Le Comité Belge de Secours à l'Erythrée, Bruxelles, 1978; "Organisation des Zones libérées de FPLE", Dossier du Colloque sur l'Erythrée, Paris, 1978.

Dan Connell, "EPLF sets example in liberated Eritrean City", "How the EPLF organizes in Eritrea", "Liberation in an Eritrean village", *The Guardian,* New York, 13 July – 16 November, 1977, in *Revolution in Eritrea, op.cit.*
Mary Dines. "Eritrea, War on Want Report", London, 1978.
P. Gammachio, "La Resistenza Eritrea", Edizioni Lerici, Cosenza, 1978.
Jean-Louis Peninou, "La Réforme agraire à Azim", *Libération,* Paris, 14-15 October, 1976; "Le test des villes", *Libération,* Paris 23-29 November, 1977 in *Revolution in Eritrea, op.cit.*
Association of Eritrean Students in North America, "Eritrean Peasants intensify class struggle", *Eritrea in Struggle,* Vol.II, No.3, December 1977. "New Keren: the fruit of a revolutionary war", *Eritrea in Struggle,* Vol.II, No.5, February 1978.
Eritreans for Liberation in North America, "Women and Revolution in Eritrea", *Liberation,* Vol.VI, No.4/5, March-June 1977. "EPLF serving the masses on the medical Front", Medical report, October 1976.
Colette Braeckman, *Le Soir,* Bruxelles, 15-23 July 1977.
André Claude, *Le Journal de Genève,* 17-19 August, 1977.
Jean Brutsaert, *La Cité,* Bruxelles, 23-26 October, 1977.
Attilio Wanderlingh, *Il Manifesto,* Roma, 7-21 September, 1977 in *Revolution in Eritrea, op.cit.*

توني بارنيت

الزراعة في الثورة الاريترية

في اريتريا ، حيث يستمر النضال المسلح منذ فترة طويلة ، وحيث تعتاش اكثرية السكان من المزارع ، تحتل الزراعة موقعاً حاسماً بالنسبة للنضال . والجبهة الشعبية لتحرير اريتريا ترى الثورة الأريترية وتمارسها كثورة اجتماعية ووطنية معاً ، وفي اطار هذه الثورة فان سياسة الانتاج الزراعي تستهدف الاعتماد على الذات والمساهمة في الاقتصاد الموجه . ومن خلال هذه الاهداف العريضة يمكن تحديد ثلاث مهام حالياً :

١ ـ الحاجة لمواصلة الانتاج من أجل دعم السكان .
٢ ـ اعادة بناء البنية التحتية التي دمرت او هجرت في سياق القتال .
٣ ـ البناء والتحول من أجل تطوير المجتمع الجديد .

والمادة التي يستند إليها هذا البحث تم جمعها في خلال زيارة الى اريتريا في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٧ وكانون الثاني (يناير) ١٩٧٨ . المدة كانت قصيرة ، ومسار الحرب عدّل بصورة مؤقتة بعض وجوه الموقف منذ ذلك الوقت ، الا أنه ما دامت الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا ما تزال تسيطر على الريف وعلى غالبية السكان الأريتريين فان السمات العامة للوضع الزراعي لم تشهد أي تبدّل جذري برغم ان الانتاج تعرقل بسبب القصف الاثيوبي والمدّ والجزر في الحرب .

ويحدد هذا البحث نماذج الزراعة المنفذة في اريتريا مع الاشارة الى بعض المشاكل التي تواجهها وبعض التقدم الذي تم تحقيقه في بناء مجتمع اشتراكي . وتعكس نماذج نظام الانتاج الزراعي في اريتريا تنوع بيئة المنطقة وكذلك تاريخها الاستعماري . ويمكن تميز ثلاثة انواع انتاج ، هي النظام في المرتفعات ، النظام في المنخفضات، وقطاع المزارع . مثل هذا التمييز يجب أن يكون بيانياً ، وهناك بالطبع انواع انتقالية أيضاً .

نظام الانتاج الزراعي في المرتفعات

غالبية السكان في المرتفعات ترتبط بزراعة متوطنة . وهناك إضافة الى ذلك بعض [البدو] الرحّل مثل شعب الـ « بلين »(*Blin*) الذين يعيشون ايضاً في هضبة هـذه المناطق . ومن المهم ملاحظة أن بعض السكان المستوطنين ينتقلون أيضاً في جزء من العام . والمحصول الأساسي لهؤلاء المزارعين هو الدقيق ، الشعير ، الدخن ، الذرة والبطاطا . وهم يربون أيضاً الحيوانات ويرعون بعض المحاصيل النقدية مثل البن والفواكه . إلا أن تربية المواشي وزراعة المحاصيل النقدية تتصلان بالوضع الطبقي لمختلف قطاعات السكان .

وفي كلام عام فان الأرض في الهضبة تخضع في ملكيتها لنظامين هما «ريستي» و « ديسا»(*Deisa* و *risti*) «ريستي »(*Risti*) نوع من الملكية الخاصة تتولى فيها الأرض عائلة معينة بحيث لا يمكن بيعها أو نقل ملكيتها الا بموافقة تلك العائلة . هذا النظام هو الأقل وجوداً أما السائد فهو نظام« ديسا »(*Diesa*) الذي يوصف عادة بأنه نظام الملكية الجماعية للأرض . مبدئياً ، هو نظام ملكية القرية بصورة جماعية للأرض ثم اعادة توزيعها كل سبع سنوات من أجل مراعاة الحاجات المتغيرة لعائلات القرية . وعملياً ، ربما لم يكن هذا النظام ليعمل بهذه الطريقة اذ كانت العائلات التي تتولى شؤون القرية ، ممثلة في مجلس القرية بشيوخها، تضمن بلا شك أن هذا النظام يصبّ في مصلحتها . وهذه هي الحالة بالذات حين يتصل فيها هذا النظام بالقطاع الرأسمالي حيث تتوفر وسائل تكديس الثروة والسلطة خارج اطار النظام الاقتصادي المباشر المحلي والاقليمي وهذا بالتحديد ما حدث في اريتريا خلال الفترة الاستعمارية تحت حكم الايطاليين والبريطانيين والاثيوبيين .

وفي قرى المرتفعات ظهرت اربع حالات مختلفة للسكان ، تتكون من الفلاحين الاغنياء ، المتوسطين ، الفقراء والذين لا أرض لديهم . وقد جاء الفلاحون الأغنياء من العائلات المؤسسة للقرية ال« ريستيغنا » (*restegna*) وشكلوا صلب، اذا لم يكن كل اعضاء مجلس القرية . وعادة يملك هؤلاء المواشي ، المتاجر ، المطاحن ، والموجودات التجارية الأخرى ، وهم يستطيعون تحريك نظام ال « ديسا » (*Diesa*) لمصلحتهم ونقل ثروتهم الى ابنائهم من دون غيرهم . واذا كانت لديهم أية أرض«ريستي» (*risti*) فانها تكون بالمشاركة بين الأبناء والبنات . والمناطق الواسعة نسبياً من الأرض التي يسيطرون عليها كانت تستغل في جزء منها بواسطة قوة العمل المستأجرة ، وفي جزء آخر بواسطة

المشاركة في المحصول . أما قوة العمل فتأتي من فئات الفلاحين الفقراء أو المحرومين من الأرض . واضافة الى السيطرة الواسعة لهذه المجموعة على الأرض فانها تملك ايضاً ادوات الزراعة وحيوانات الشغل ، وتشكل مصدراً رئيسياً لمختلف انواع القروض للآخرين في القرية . كما أن الكنيسة كانت تملك ايضاً مناطق من الأرض تزرعها بالعمل المستأجر أو بالمشاركة في المحصول . وليس مجرد مصادفة أن يرتفع مبنى الكنيسة الأبيض الضخم ، في قرى المرتفعات ، في مواجهة اكواخ السكان الوضيعة ، رمزاً لشكل آخر من الهيمنة والاستغلال .

اما الفلاحون المتوسطون فكانوا يرتبطون غالباً بعلاقات محسوبية مع الفلاحين الأغنياء ، ويحصلون من خلال هذه العلاقات في بعض الحالات على أرض اكثر مما يستطيعون فلاحته بعمل عائلاتهم وحدها . قد يكون لدى الواحد منهم اربعة أو خمسة ثيران ، ١٠ ـ ١٥ بقرة ، وغنم وماعز . وعن طريق ذلك تكون لديهم القدرة لزراعة ما يكفي من الأرض لانتاج فائض يمكن تسويقه ، الى جانب أنهم قد يتمكنون من استئجار عمال والحصول على املاك صغيرة للمحاصيل النقدية .

الفلاحون الفقراء يملكون عادة رأساً أو رأسين من الثيران ، وعليهم بالتالي أن يتعاونوا مع آخرين من ذوي الظروف المماثلة من أجل حيازة قوة العمل الكافية لزراعة أرضهم . وبالقليل من الماشية ، اذا توفر ذلك القليل،فان ارضهم لا تتلقى السماد الطبيعي الذي يتوفر لأولئك الذين يملكون قطعاناً واسعة من الماشية . وبالنسبة للكثيرين ، فان أرضهم غير كافية لسدّ حاجاتهم ، فيضطرون بالتالي لاستدانة المال ، أو العمل كعمال في مزارع السكان الأكثر

أما الفلاحون المحرومون من الأرض فهم الشباب، واولئك الذين لم يشملهم تقسيم الأرض ، والعمال المهاجرون العائدون ، وقبل اولئك جميعاً النساء . وبعبارات عامة فمن السليم القول ان الممتلكات العائدة للفئات التي تملك الأرض هي كما يأتي : الفلاح الغني يملك ما معدله ثلاثة هيكتارات ، والفلاح المتوسط يملك حوالى ١,٥ هيكتاراً ، أما الفلاح الفقير فيملك أقل من هيكتار واحد .

نظام الانتاج هذا ، والبنية الطبقية السائدة ، هما من خصائص القرى المستوطنة وتلك التجمعات التي تمارس الانتقال [البشري] خلال وجودها في الهضبة وبرغم ان القاعدة الأساسية لأولئك المتنقلين هي في المرتفعات من آذار (مارس) الى تشرين الأول (اوكتوبر) ، فان قطاعات من السكان تنزل في تشرين الثاني (نوفمبر) وحتى شباط

(فبراير) الى السفوح على ارتفاع ما بين ٨٠٠ و ١٠٠٠ متر لزراعة محاصيل الشعير وبعض الدخن . هنا يبدو ان نظام ملكية الأرض مختلف الى حد ما ويرتكز على السيطرة على الأرض وفق نظام « دمينيال » *(Demeniale)* للتأجير الحكومي والذي انشأته الادارة الاستعمارية الايطالية . فهذه الأراضي كانت ، في الواقع ، امتيازات تعطي لأولئك الذين يستطيعون دفع الضرائب والرشاوى المطلوبة . والواضح أن هؤلاء هم الفلاحون الأغنياء الذين تشكل لهم هذه الامتيازات مصدر ثراء محتمل جديداً . فهم يحرزون معظم هذه الامتيازات ويؤجرون بعض أراضيهم للفلاحين المتوسطين الذين قد يمتلكون ما معدله نصف هيكتار . اما العمل الفعلي فيقوم به الفلاحون الفقراء واولئك الذين لا أرض لديهم . إن رموز الاختلاف في الثروة واسلوب الحياة ربما بدت واضحة في طريقة الرحلة من الهضبة الى السفوح . فالفقير يمشي ربما مع حمار أو بعض الماشية الضئيلة بينما الغني ينتقل بالجمال وحيواناته الأخرى .

ان هذا التعريف لنظام الانتاج في المرتفعات يخدم كقاعدة يمكن من خلالها رؤية التغيرات التي أحدثتها الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا من أجل دفع فكرة الثورة الاجتماعية والوطنية الى الأمام . والمثلان اللذان يؤكدان ذلك وقد جرى الحديث عنهما بشكل وافٍ هما قريتا « أزيم » *(Azim)* و « زاغر » *(Zager)* . الأولى وصف التغييرات فيها **جان لوي بنينو** *(Jean-Louis Peninou)*[١]، والثانية **دان كونيل** *(Dan Connell)*[٢] اضافة الى طاقم سينمائي من شركة *ATV*[٣] التلفزيونية البريطانية . وتظهر هذه التقارير ، كلها ، عملية تحليل سياسي في القريتين ، التربية والتنظيم السياسيين ، وحركة باتجاه السيطرة على القريتين من قبل أولئك الذين يشكلون غالبية السكان . وفي كتابته عن « أزيم » *(Azim)* ، وصف بنينو وضعاً لم تتم فيه اعادة توزيع اراضٍ حسب نظام « ديسا » *(Diesa)* منذ العام ١٩٢٢ . فبسبب تفكك النظام المألوف حدثت نزاعات عدة على الأرض وحالات من الظلم وتراكمت حتى العام ١٩٧٥ حيث حصلت حوالى ٨٥٠ عائلة على بعض الأراضي بينما كان هناك اكثر من ٦٠٠ عائلة من دون أرض على الاطلاق وقد اجبرت على بيع قوة عملها أو الهجرة من أجل العيش .

ابان تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٥ كانت الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا قد حققت مستوى من التنظيم والتعليم في القرية كان كافيا لضمان قدرة الفلاحين على تقرير مباشرتهم الاصلاح الزراعي . كما تقرر أيضاً ان فئات معينة من السكان

ينبغي استثناؤها من التوزيع الجديد بل أن أرضها ستتعرض ، للمصادرة وهذه الفئات هي : اولئك الذين قاتلوا مع الاثيوبيين اضافة الى عائلاتهم ، « الكومبرادور » وكانوا في هذه الحالة خمسة من الاغنياء معروفين بهذا الاسم في القرية كلها ، وأولئك الذين يملكون اراضي في قرى أخرى . والمجموع حسب بنينو ، كان حوالى ثلاثمائة رب بيت . أما الباقون وهم ١٢٠٠ فقد تولوا توزيع الأرض بالتساوي في ما بينهم . اما مشكلة أراضي الكنيسة فقد حلت وفق مبادىء مماثلة . ففي قرية يبلغ مجموع سكانها حوالى خمسة آلاف نسمة كان هناك حوالى ٥٠ كاهناً يشكلون بدورهم معضلة مهمة . وقد قرر القرويون ، بالتشاور مع كادرات الجبهة الشعبية ، ان الكهنة يستطيعون تملك الأرض بشرطين: ان لا يتملك أي كاهن أكثر من اي فلاح ، وان على الكهنة أن يزرعوا الأرض بأنفسهم .

ان الحالتين المعروفتين بالتفصيل من حالات هذا النموذج من التنظيم « الاصلاح الزراعي » هما حالتا « أزيم » *Azim* و« زاغر » *(Zager)* ، ولكن هناك محاولات مماثلة جرت على امتداد المنطقة الجبلية من أريتريا التي تسيطر عليها الجبهة الشعبية . وفي الظروف التي تلت الانسحاب الاستراتيجي لقوات الجبهة من كرن والمدن الرئيسية الأخرى ، اجبرت القريتان المشار اليهما أن تكتفيا ذاتياً ، أكثر من السابق ، كما زادت عزلتهما عن أسواق اريتريا ، وتصلهما الامدادات الهزيلة على ظهور الحيوانات ليلاً .

اما طاقم A السينمائي الذي زار « زاغر » *(Zager)* في ايلول (سبتمبر) وتشرين الأول (اوكتوبر) العام ١٩٧٨ فقد تحدث عن بدايات الانتاج الجماعي مع أناس جاؤوا معاً للاشتراك في حيوانات الشغل والأدوات . وفي بعض الحالات . كما بدا ، كانت العائلات تقوم بعملية الانتاج المشترك على اراض مُجمَّعَة إلا انه وفي الجزء الأول من ١٩٧٩ ، أجبر فلاحو « زاغر » (*Zager*) الذين كانوا يعملون تقليدياً في أرض خصبة في منطقة نهر « فلفل » *(Filfile)* على ترك حقولهم ومحاصيلهم كما هي عندما هاجمتهم القاذفات الاثيوبية وأشعلت النار في محاصيلهم . ومثل هذا الموقف ما يزال يعرقل الانتاج .

والمؤكد انه بينما تتولى الجبهة الشعبية التنظيم والتسييس التمهيديين في القرى ، وخاصة لضمان تناسب تمثيل الطبقات في مجالس القرى مع عددها في الاسرة القروية ككل ، فان اسرة القرية قادرة على اتخاذ المبادرات واجراء حوار مع كادرات الجبهة الشعبية التي تعيش وتعمل في القرية . وقد بدا ذلك واضحاً تماماً في الفيلم الوثائقي عن « زاغر » *(Zager)* الذي أعده فريق*(ATV)*، وايضاً في الاجتماعات التي حضرتها في

القرى الواقعة في اراضي المنخفضات الشرقية .

نظام الانتاج في المنخفضات : الري بالسيول والبداوة

على الجانب الشرقي من الهضبة الأريترية تنحدر الأرض في جرف مفاجىء وحاد . وفي أميال قليلة تنحدر الأرض حوالى ألفي متر في السهل الصحراوي الذي يمتد من قاعدة الجرف الى البحر الأحمر . مثل هذا الانتقال المفاجىء في الارتفاع يؤدي ، بالطبع ، الى تغير مفاجىء مماثل في الزراعة . ومن هذا الجرف يتدفق عدد من الأنهار الموسمية في السهل بمعدل ١٢ مرة في العام . وما لم تحصر هذه المياه في قنوات فانها تغور في الصحراء وتختفي في مسارب ضخمة . الأنهار الرئيسية التي تزود المنطقة بالماء هي الـ « إين »(*In*) والـ « لابا » (*Laba*) وأربعة انهر أصغر . وهذه تجعل زرع ست مناطق عند قاعدة الجرف ممكناً .

لدى مجييء الحكم الاستعماري الايطالي أعلنت المنطقة كلها « دمينيالي » (*Demeniale*). ولكن غالبية السكان كانت في أي حال من « الرحّل » . اما بدايات الزراعة المروية في المنطقة فهي حديثة نسبياً ، حوالى العام ١٩٠٨ في حالة منطقة «شِعِبْ (*Sh'eb*) حول مجرى نهر «لابا» (*Laba*) وربما من دون اختلاف كبير مع المناطق المزروعة الأخرى «غفر الله (*Kufrullah*) و «ابارارا» (*Abarara*) و تومبوسا »(*Tomboussa*) و « قدقد »(*Gedghed*)و «شَبَّح »(*Shebbah*) . في حالة « شعب » (*Sh'eb*) يبدو أن عربياً يمنياً يدعى أحمد أبو شنب جاء كخبير فني الى المنطقة وعلّم السكان كيف يبنون سدوداً عند أفواه الأنهر بحيث تقسم المجرى ومن ثم تحول المياه في قنوات ضحلة الى انظمة شاسعة من المصاطب . وكانت نتيجة ذلك ، في الحقيقة ، مدهشة . فقد أصبحت مساحات واسعة من الأرض قيد الزراعة في ما هو في الواقع تربة غنية بالطمي . والمناطق المذكورة تصل الى ما يزيد عن ١٠ آلاف هيكتار ، وفي العام ١٩٧٨ كانت تدعم وتتلقى عمل عدد منخفض جداً ولو انه كبير من السكان، يصل حوالى ٥٠ ألف نسمة . وهذه المنطقة منتجة جداً ما دامت هناك سيطرة كافية على مصدر المياه ، كما أنها يمكن أن تنتج ما مجموعه أربعة محاصيل في العام . محصولها الأساسي هو السرغوم الذرة يليها البطيخ والبندورة ومحاصيل صغيرة أخرى مثل السمسم والخضار . وإذا كانت المياه غزيرة ، والسيطرة عليها محكمة ، فان محصولاً آخر يمكن انتاجه من البطيخ يصل الى ٢٥ ألفاً في الهيكتار .

التعداد الاجمالي لسكان المنطقة التي تغطيها القرى الست المذكورة اعلاه « يصل الى

٥٠ ألف نسمة . وفي السنوات الست عشرة منذ بدأت عمليات النهب الاثيوبية في المنطقة . انخفض عدد السكان الى ٢٢ ألف نسمة ، نتيجة للهروب من القتال بشكل عام ، ولكن ايضاً بسبب الاعداد الكبيرة من الناس الذين قتلوا بالغارات الجوية وعمليات القوات البرية الاثيوبية . وكما قال فلاح في « قد قد » *(Gedghed)* :

قبل أن تبدأ الحرب كان نادراً ان يزيد عدد افراد العائلة عن ستة اشخاص . اما اليوم فالمعدل أقرب الى ١٠ أشخاص لأن عدداً كبيراً من الاطفال فقدوا والديهم نتيجة للحرب . كل عائلة كانت تملك على الأقل زوجاً من الثيران للقيام بالعمل ، أما الآن فتضطر كل ثلاث عائلات الى المشاركة في زوج من الثيران .

دورة الانتاج الزراعي في اراضي المنخفضات الشرقية

تنظر الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا الى مناطق المنخفضات الشرقية باعتبارها سلة القمح المحتملة الرئيسية في البلاد كلها . ولهذا السبب تنعم هذه المناطق بالأهمية الأولى في الاستراتيجية الزراعية الشاملة ، لأنها تمسك بالأمل في الاعتماد على الذات في ما يتعلق بالمواد الغذائية الأساسية . وهي تتمتع ايضاً بالأهمية الرئيسية في اية [عملية] اعادة بناء اجتماعية مقبلة لأنها مؤهلة لتكون مناطق اعادة توطين للعديد من اللاجئين الذين يعيشون الآن في معسكرات خارج أريتريا .

اما الدورة الزراعية فمعقدة بطريقة تتميز بها الزراعة المروية . ويبدو دائماً انها تتطلب حداً أدنى على الأقل من التعاون والتنسيق من أجل ضمان السيطرة على المياه وكذلك للقيام بالزراعة نفسها . ولهذا السبب سنشرح الدورة الزراعية ببعض التفصيل شهراً بشهر :

كانون الثاني (يناير) . المهمة الأولى هي حراثة الأرض بما فيها بقايا حصاد العام السابق من الدخن . ويجري ذلك قبل تحضير الأرض لاستقبال محصول الذرة . وتزرع الذرة في أبكر وقت ممكن من أجل التقاط المطر الذي يسقط عادة في هذا الوقت . وتلي ذلك زراعة الفول السوداني (وهو المحصول الذي يجب أن ينجح كثيراً في المنطقة وقد يشكل مصدراً لعائدات التصدير) وبعض السمسم الذي يشكل مصدراً للزيت من أجل الاستهلاك المحلي .

شباط (فبراير) : أما العمل السائد خلال هذه الفترة هو اصلاح وصيانة السد الرئيسي ومواقع التحويل الأصغر . وهذا مهم بشكل خاص لأن من الممكن حصول فيضان مبكر ، ولأنه ما لم تجر صيانة ملائمة لهذه المواقع في هذه الفترة من العام ربما تجرف

البذور التي زرعت والتي تكون قد بدأت في النمو .

وبسبب الحاح هذا العمل ومساحة الأرض التي يغطيها ، فانه يتطلب تنظيماً واسع النطاق للسكان والحيوانات . وعلى سبيل المثال ، فان السدّ الرئيسي في شِعِبْ *(Sh'eg)* مكون من الصخور وجذوع الاشجار والتراب . وهو بطول ٤٠٠ متر وارتفاع حوالى ١٥ متراً يضطر الى مقاومة تدفق ١,٥ متر مكعب من المياه في الثانية حوالى ١٥ مرة في العام . مثل هذا العمل يحتاج الى ما بين١٥٠ و ٢٠٠ شخص يعملون في وقت واحد . مع ثيرانهم ، ساعات طويلة من أجل ضمان قوة السدّ . واضافة الى هذا العمل ، يهتم المزارعون في الوقت نفسه باصلاح وصيانة السدود الصغيرة في حقولهم الى جانب تعشيب الذرة التي زرعت في كانون الثاني (يناير) .

آذار (مارس): تستمر مهمة صيانة اشغال التحويل ، وكذلك مهمة تعشيب الذرة ، اضافة الى جمع محصول الفول السوداني والخضار الأخرى المختلفة .

نيسان (ابريل) : يتواصل العمل في صيانة وتقوية تجهيزات الري ، تحصد الذرة . وتدرس ، وتخزن ، في الوقت الذي ينتهي فيه جمع محصول الفول السوداني . في الأيام الأخيرة من الشهر تبدأ زراعة محصول البطيخ إذا كانت ما تزال هناك مياه كافية .

أيار - حزيران(مايو - يونيو) : الى جانب مواصلة العمل في تجهيزات الري ، يزرع محصول السرغوم المخصص كعلف [للماشية] .

تموز (يوليو) : حصاد البطيخ . وبه ينتهي العمل في التربة لأنه في هذه الفترة يصبح سقوط المطر وشيكاً في المرتفعات تقترب الأنهر من موسم الفيضان .

آب(اغسطس): هذا هو اكثر شهور السنة عملاً .في الاسبوع الأول يجري اعداد الأرض في كل رقعة على حدة استعداداً لهطول المطر . ومن الجوهري في هذه المرحلة التأكد من صلاحية قنوات التوزيع الثانوية من مزرعة الى مزرعة وكذلك الأرصفة بين المزارع ، واستعدادها لتسهيل أمر السيطرة على المياه على مستوى الحقل . والمهمة الأخرى هي اصلاح وتحضير الآبار لمياه الشرب . في هذه الفترة من العام تأتي ايد عاملة اضافية الى المنطقة وتزداد كثيراً الحاجة الى مياه الشرب . وبحصاد السرغوم ، تصل الفيضانات الأولى الى الأرض لترطبها عشية زراعة محصول الدخن الاساسي للطعام . في هذا الوقت يصبح العمل صعب التنبؤ به . فقد تحصل عمليات طوفان قوية بشكل خاص بحيث تجرف السدود الترابية مما يستدعي غالباً زراعة الدخن مرة ثانية وربما ثالثة ، اضافة الى الحاجة الى العمل الصعب لاصلاح التصدعات في تجهيزات الري . وباعتبار ان النظام كاملاً يعتمد على منحدر أرضي خفيف من الشمال الى الجنوب باتجاه

معاكس عن فم النهر ، فان تصدعاً في اي سدّ عند نقطة عالية من النظام سيهدد ، ما لم يتم اصلاحه بسرعة ، بجرف المزارع القائمة تحت التصدع . يضاف الى ذلك انه بينما يستطيع النظام تقييد المياه في قنوات فهو لا يوفر مخرجاً فيمكن ان تحدث فيضانات من وقت الى وقت . لقد رأيت في « قدقد » *(Gedghed)* مكاناً شهد مثل هذا الفيضان ولم يكن هناك كفاية من العمال لاصلاح التصدع . والنتيجة كانت ظهور وهد ضيق بعمق ٣,٥ أمتار في وسط المنطقة المزروعة .

أيلول (سبتمبر) : مواصلة النوع نفسه من العمل كما كان الأمر في آب ، وبشكل خاص اصلاح السدود واعادة زراعة المناطق التي ربما تكون قد جرفت بفعل المياه المتدفقة خارج حدود السيطرة عليها .

تشرين الأول ـ تشرين الثاني (اوكتوبر ـ نوفمبر) : عمليات تعشيب مختلفة لمحصول الدخن ، ومواصلة العناية بالسدود الترابية برغم أن فيضان الأنهر في هذا الوقت يكون قد بدأ يخف .

كانون الأول (ديسمبر) : هذا هو شهر حصاد الدخن وتحضيره للتخزين . والحصاد ينبغي أن يتم قبل أن ينضج الدخن بشكل تام . وذلك يعود الى سببين : ان نسبة الاصابة بالأوبئة عالية جداً في هذا الوقت من السنة ثم أن الأمطار على وشك البدء ، والرطوبة الناتجة من شأنها أن تشجع على نمو الفطريات المؤذية في الحبوب ولذلك فمن الضروري حصاد المحصول قبل أن ينضج ، ونتيجة لذلك فانه يكون غير ملائم للاستخدام كبذار في الموسم المقبل . وهذا يعني أن بذاراً جديداً ينبغي أن يشترى كل عام ويؤتى به الى المنطقة عادة من السودان .

والواقع أن تنظيم الانتاج في مثل هذه الدورة الزراعية عملية معقدة وصعبة الوصف لعدد من الأسباب . أولاً فان تاريخ المنطقة غير واضح ، ولذلك فان طبيعة التشكيل الاجتماعي غير معروفة بأي من تفاصيلها . يقال انه قبل مجيء الايطاليين وخبراء الزي اليمنيين في وقت مبكر من هذا القرن كان سكان المنطقة من « [البدو] الرَّحل » . هل كان ذلك هو الحال أم لا ، وايضاً ماذا يعني تعبير « [البدو] الرحل » في هذه الحالة بالذات؟ انهما سؤالان مهمان في المناقشات مع الناس . في المنطقة يبدو بوضوح ان « [البدو] الرّحل » لم يكونوا [بدواً] رحلاً بالمعنى الكامل ، ومن المؤكد أنهم لم يكونوا على اكتفاء ذاتي وانما ربطوا انتاجهم بالمزارعين المواطنين في المرتفعات عبر التجارة بانواعها المختلفة .

وهكذا ، فان مقولة « [البدو] الرحل » تؤدي الى تضليل خطير في هذه الحالة لأنها تتجاهل العلاقات بين نمط انتاج وآخر . وفي مقال حديث ، بدأ أسد[٤] عملية استفهام مهمة عن استخدام هذه المقولة سواء بالنسبة للديناميكية الداخلية لهذا النوع من العلاقة بين الشعب والطبيعة أو بالنسبة للزوابط بين مثل هذا الشعب والشكل الاجتماعي الأوسع . المسألة الثانية والمتعلقة [بالأولى] هي أن المنطقة شهدت هذه التغيرات الجذرية في الأعوام الخمسين الماضية : السيطرة على الأرض عبر نظام « دمينيالي » *(Demeniale)* ، التمزق الواسع وحركة السكان المرتبطة بالحرب ، وأخيراً جداً عمليات التسييس والتنظيم التي قامت بها كادرات الجبهة الشعبية لتحرير أريتريا .

في ظل نظام الـ « دمينيالي » *(Demeniale)* أخذ المزارعون أرضهم من الدولة مقابل ايجار سنوي . وقد ازدادت الفروقات في الملكية لعدد من الأسباب بدا واضحاً أن أحدها هو القدرة على رشوة المسؤولين . يضاف الى ذلك انه كان ضرورياً تقديم بدلات الايجار السنوية للدولة من أجل استمرار الاجارة . في مواجهة هذه الخلفية التاريخية ، قامت الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا بالتحليل التالي لعدم المساواة وعمليات التمييز في مجتمعات لأراضي المنخفضات الشرقية المروية . ويحدد التحليل الملكيات التفاضلية التالية : عائلات بأقل من هيكتار واحد من الأرض ، عائلات بما بين هيكتار وهيكتار ونصف ، وبعد ذلك يأتي الفلاحون الاغنياء باكثر من ٣ هيكتارات . والآن فان الجبهة الشعبية تسيطر على الأرض بالاشتراك مع ممثلي السكان المحليين .

تسيطر اللجان الزراعية للسكان المحليين على النظام الزراعي في المنطقة منذ عقود من الزمن ، وربما منذ بداية التطور . وهناك أنظمة معقدة للغرامات والاجتماعات التي تهدف الى الانضباط المطلوب لمثل هذا النظام من أجل ضمان صيانة هياكل السيطرة على المياه . وتملك هذه اللجان ايضاً ، كما يبدو ، مسؤولية في توزيع الأرض وتطبيق الأحكام لمنع حدوث أي ضرر في السدود الترابية . في الماضي ، كان المزارعون الاكثر غنى الذين يعمل بعضهم كتجار الى جانب كونهم مستغلين لقوة العمل يسيطرون على هذه اللجان .

من الواضح ، ان هذا النظام الزراعي لم يكن مستقلاً بأي شكل عن الأجزاء الأخرى من أريتريا . وفي حالتين ، على الأقل ، كان هذا النظام يحتاج الى روافد من خارج التجمع المحلي . ففي كانون الثاني (يناير) وفي الفترة ما بين تموز وايلول (يوليو وسبتمبر) تبرز ذروات في الحاجة الماسة جداً لقوة العمل . وبرغم ان ذلك يزداد الآن نتيجة

للنقص في عدد السكان ، فانه كان قائماً دائماً ويتم حله بالاستعانة ببعض الناس في التجمع الذين يعملون بأجر نقدي أو عيني في مزارع الآخرين ، مقابل استخدام الثيران ، الحمير ، او الادوات الأخرى . الا أن الأهم من ذلك هو أن التجمع كان يبدو كأنه كان يوظف قوة العمل ، التي تأتي غالباً من السكان « الرحل » المجاورين . والناس الذين يأتون للعمل في المزارع ، هم في بعض الحالات من اقارب المزارعين وفي حالات اخرى من عائلات ترتبط بعلاقات قديمة بعائلات المزارعين . اما بدل هذا العمل فمن النادر أن يكون نقداً بل انه في الغالب عيني . وتفاصيل نظام البدل هذا مرتبكة جداً ، الا انها تكشف أن المزارعين يتمتعون بالسلطة المطلقة لتحديد نسبة مبادلة قوة العمل بالحبوب لأن البدو « الرّحل » يكونون في هذه الاوقات من السنة التي يأتون فيها للعمل في المزارع ـ فترة شهر آب (اغسطس) تقريباً التي تنخفض فيها مؤونة العام السالف ـ اما بحاجة كبيرة الى الحبوب او يرون انهم لن يستطيعوا الحصول على صفقة افضل في كانون الثاني (يناير) في ذلك العام (عندما يكون حصاد الدخن قد تم فعلاً) . أن النقطة العامة التي تتأكد هنا هي انه توجد تناقضات بين المزارعين ومستخدميهم وكذلك بين الطبقات المختلفة للمزارعين في التجمع الزراعي الواحد .

هذه التناقضات تنعكس بدورها في عدم المساواة وتناقضات في داخل مجموعة « [البدو] الرّحل » . ويوجد عادة تمييز محدد في داخل هذه المجموعات تتمثل في ملكية الحيوانات والوضع الموروث . واذا كان هذا هو حال الرّحل الاريتريين ، حقيقة ، فانه لا مفرّ إذن من أن تكون لهذه الطبقات المختلفة علاقات مختلفة مع المزارعين المتوطنين . يؤكد ذلك الى درجة ما ، انه عندما تأتي مجموعات رحّلية لتخيم قرب التجمعات المستوطنة يحدث نوعان من النشاط بين المجموعتين واضافة الى مبادلة العمل بالحبوب هناك ايضاً مبادلة الحبوب بالحيوانات . ويبدو ممكناً ان هذين النوعين من المبادلة لا يتمان بين جميع افراد المجموعتين بالتكافؤ . فالواقع أن مبادلة الحيوانات بالحبوب تتطلب ان يكون للرحّلي المعني فائض ليبادل به . اما بالنسبة لأولئك الذين يكسبون حبوبهم بقوة عملهم فالعكس هو الصحيح ربما اذ أنهم لا يملكون ما يبادلونه غير عملهم .

الطريقة الثانية التي تتمفصل فيها المجموعة الزراعية مع المجتمع الأوسع تتم عبر نشاطات التجار . وكما لوحظ سابقاً فان انواع الدخن التي تزرع لا تستطيع الانتظار لتنضج بشكل كاف ، وبالتالي لتوفير البذار للعام التالي . ولهذا السبب يجري احضار بذار الدخن كل عام وغالباً من السودان . وتوفير هذا البذار ، اضافة الى القروض التي

يطلبها العديد من المزارعين للتمكن من شرائه ، يؤمنها التجار المحليون الذي يشكلون شبكة لتوزيع السلع تمتد من البحر الأحمر ، عبر مراكز مثل كرن ، نقفه ،وقارورة الى السودان الى مدن مثل طوكر ، وبور سودان .

وفي تحليل هذا الوضع المعقد ، يبدو ان الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا أولت معظم اهتمامها الى بنية التجمعات الزراعية وربما تجاهلت « [البدو] الرحّل » اعتقاداً منها بأنهم يجب ان يتوطنوا عندما تتوسع المناطق المروية . من الصعب الحكم في ما اذا كان ذلك مرغوباً به أو مجدياً الا أن ما يبدو محتملاً هو ان التحالفات المعقدة بين مختلف مجالات الانتاج والتبادل تتطلب تحليلاً ادق مما يوفره التحليل السائد للتجمعات الفلاحية وتوزيعها الى فلاحين اغنياء ، متوسطين ، وفقراء . وفيما يمكن أن يكون ذلك كافياً بالنسبة للتجمعات في المرتفعات فانه لا يلتقط الحقائق بشكل كاف في أراضي المنخفضات الشرقية .

ان المهمة التي وضعتها الجبهة الشعبية لنفسها في هذه المنطقة مهمة طموحة . وهي تستهدف تحويلها الى سلة حبوب اريتريا ، وبناء التنظيم الجماعي القائم لتطوير مناطق زراعة مروية اكثر اتساعاً عن طريق تقوية واطالة أمد السدود والقنوات ، والتحرك اضافة الى ذلك باتجاه انتاج تعاوني وجماعي كامل . ومثل هذه العملية تفترض تطور وتخصص اللجان القائمة وتوزعها على لجان فرعية تعتني بالبذار ، التسويق ، وأوجه الحياة الجماعية . وهذا سيؤدي في النهاية الى تنظيم انتاجي جماعي (تديرها ، مثلاً ، الدولة كجزء من خطة مركزية) وليس الى كومونة (تكون السيطرة فيها بصورة مباشرة اكثر في ايدي الاعضاء) .

واضافة الى التغييرات في علاقات الانتاج ، هناك نية في ان تتولى المنطقة عملية تطوير متكاملة تؤدي الى توفير الآبار للسكان الحاليين وكذلك للزيادة الكبيرة في اللاجئين عندما يعودون . كذلك سيكون من الضروري ايضاً توفير المطاحن انطلاقاً من الزيادة المحتملة في انتاج الحبوب اكثر بكثير من حاجات السكان المحليين. وهذه الخطط طورت قبيل الاختراق الاثيوبي في اسمره . اما في حالة المناطق المرتفعة فقد أدى التقدم الاثيوبي ، من دون شك ، الى صعوبة المواصلات وأوقف بشكل مؤكد تنفيذ هذا المشروع المهم والطموح .

قطاع المزارع الكبيرة

على امتداد السفوح وفي الهضبة قرب كرن يقوم عدد من المزارع التي طورها

الايطاليون وغيرهم من المستوطنين الأجانب . وقد تم ذلك ، في بعض الحالات برأس مال شخصي بينما نفذته في حالات أخرى شركات كبيرة . وتقف مثالاً على النموذج الكبير. الاباريت *(Alabaret)* و « ماكلاسي » *(Makalassi)* . وعلى النماذج الأصغر « سابهور» *(Sabhour)* .قبل تولي الجيش للسلطة في اثيوبيا كان يسيّر هذه المزارع الملاك المنفيون والمديرون الذين كانوا يستخدمون الأريتريين كعاملين بالأجر . اما المحاصيل الرئيسية فكانت الحامض والفواكه الأخرى القابلة للتصدير .

وفي المستقبل ، تري الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا في هذه المزارع امكانية للعب دور مهم في استراتيجية الاكتفاء الذاتي . وحالياً ، يسيّر هذه المزارع افراد الجيش الشعبي لتحرير اريتريا من أجل توفير الفواكه والخضار اساساً للجيش . وهذا يكفل ان يشترك افراد الجيش الشعبي لتحرير اريتريا في الانتاج وان لا يضعوا اعباء اكثر من الممكن على الفلاحين .ولا يعني ذلك انهم كانوا سيشكلون عبئاً على الفلاحين اذا لم توجد هذه الأغذية المنتجة في المزارع ، لأن افراد الجيش الشعبي لتحرير اريتريا يشتركون عادة في الانتاج في التجمعات التي يتمركزون فيها . اما الانطباع العام حول قطاع المزارع [الكبيرة] ، حالياً ، فهو انها تعامل على قاعدة الرعاية والصيانة ، الا ان اية سياسة واضحة حول مستقبلها لم تحدد بعد . ويمكن ان تكون هذه هي الحال مع قطاع كهذا ، الذي صمم غالباً ليكون ذات رأسمال مكثف نسبياً ـ انظمة الري بالضخ الخ . .وموجهاً لسوق التصدير .

الزراعة وتطور السياسة في اريتريا

يمكن فهم الطريقة التي طورت ونفذت بها السياسة الزراعية في اريتريا ، فقط في ضوء البنية العامة للجبهة الشعبية لتحرير اريتريا ، وممارستها للمركزية الديموقراطية ، وسياستها الخاصة بدمج الثورتين الوطنية والاجتماعية . وتفهم المركزية الديموقراطية على انها دمج ناجح بين اشتراك الجماهير بشكل واسع ، عبر اتحاداتها الجماهيرية ، في صياغة السياسة وبين السلطات التنفيذية القوية والمركزة في تنفيذ التغيير الاجتماعي والتقني كليهما . وهذا المبدأ وهذه الممارسة يتمتعان بأهمية أساسية خلال مرحلة النضال العسكري ، وينظر اليهما على انهما النموذج للمستقبل .

البنية التنظيمية للجبهة الشعبية لتحرير اريتريا

المؤتمر
↓
اللجنة المركزية
↓
المكتب السياسي
↓
اللجنة الدائمة

↓ الرعاية الاجتماعية | ↓ دائرة الصحة | ↓ دائرة الاقتصاد | ↓ ادارة المناطق | ↓ اللجنة السياسية | ↓ اللجنة العسكرية

في قمة البنية التنظيمية للجبهة الشعبية لتحرير اريتريا ، المؤتمر الذي ينتخب من المنظمات الجماهيرية المختلفة . في المؤتمر ٣١٥ عضواً ، وهو ينتخب اللجنة المركزية التي تتكون من ٣٧ عضواً لهم حقوق التصويت الكاملة ، الى جانب ستة اعضاء احتياط لهم حق المناقشة ولكن من دون تصويت . تنتخب اللجنة المركزية المكتب السياسي المؤلف من ١٣ عضواً والذي ينتخب بدوره لجنة دائمة صغيرة من ٤ أشخاص . هؤلاء الأربعة هم الامين العام والامين العام المساعد للجنة المركزية ، سكرتير اللجنة العسكرية وسكرتير اللجنة السياسية . واللجنة الدائمة مسؤولة عن مهمات العمل اليومي وايضاح السياسة الموضوعة المصاغة خلال مناقشة مؤتمر الجبهة . اما تنفيذ السياسة فيتم عبرست دوائر ادارية رئيسية هي اللجنة العسكرية ، اللجنة السياسية ، دوائر الاقتصاد ، الصحة والرعاية الاجتماعية ، وادارة المناطق ، كل من هذه الوحدات الفرعية الادارية تتألف بدورها من عدة دوائر ، اما ادارة المناطق فتقوم بتنسيق نشاطات مختلف الدوائر في كل من المناطق الادارية التي تتألف منها البلاد .

وبشكل عام ، فان السياسة العامة يضعها المؤتمر الذي يجتمع مرة كل عامين . والاقتراحات بشأن هذه السياسة تأتي الى المؤتمر من التنظيم الجماهيري ، الجيش الشعبي لتحرير اريتريا ، أو من اللجنة المركزية . في المؤتمر تناقش السياسات ويتم الوصول الى خطوط عامة ، الا أن اللجنة المركزية تشرف بعد ذلك على اتجاه تنفيذ السياسة وتولي اهتماماً خاصاً بالخط السياسي الذي يجري اتباعه . اما المراقبة الاكثر

تفصيلاً للسياسة فتبقى للمكتب السياسي الذي يجتمع مرة في الشهر . والمشاكل التي تظهر داخل الدوائر أو في ما يتعلق باوضاع جديدة فتعرض للمشورة والقرار على اللجنة الدائمة للمكتب السياسي التي تجتمع كل يوم . وفي داخل دائرة الاقتصاد يشكل رؤ ساء الشعب المختلفة لجنة اقتصادية تتولى مسؤ ولية المراقبة عن كثب على السياسة في الدائرة ككل وتحاول تفسير السياسة ضمن اطار الخطوط العامة التي وضعها المؤتمر وشرحتها اللجنة المركزية والمكتب السياسي .

في مناقشة قضايا الزراعة ، فان الجهاز الأكثر أهمية هو جهاز الاقتصاد ، وبالذات شعبته الزراعية . والرسم البياني التالي يظهر الشعب الأساسية في جهاز الاقتصاد ، والشعبة الزراعية منها ببعض التفصيل .

دائرة الاقتصاد

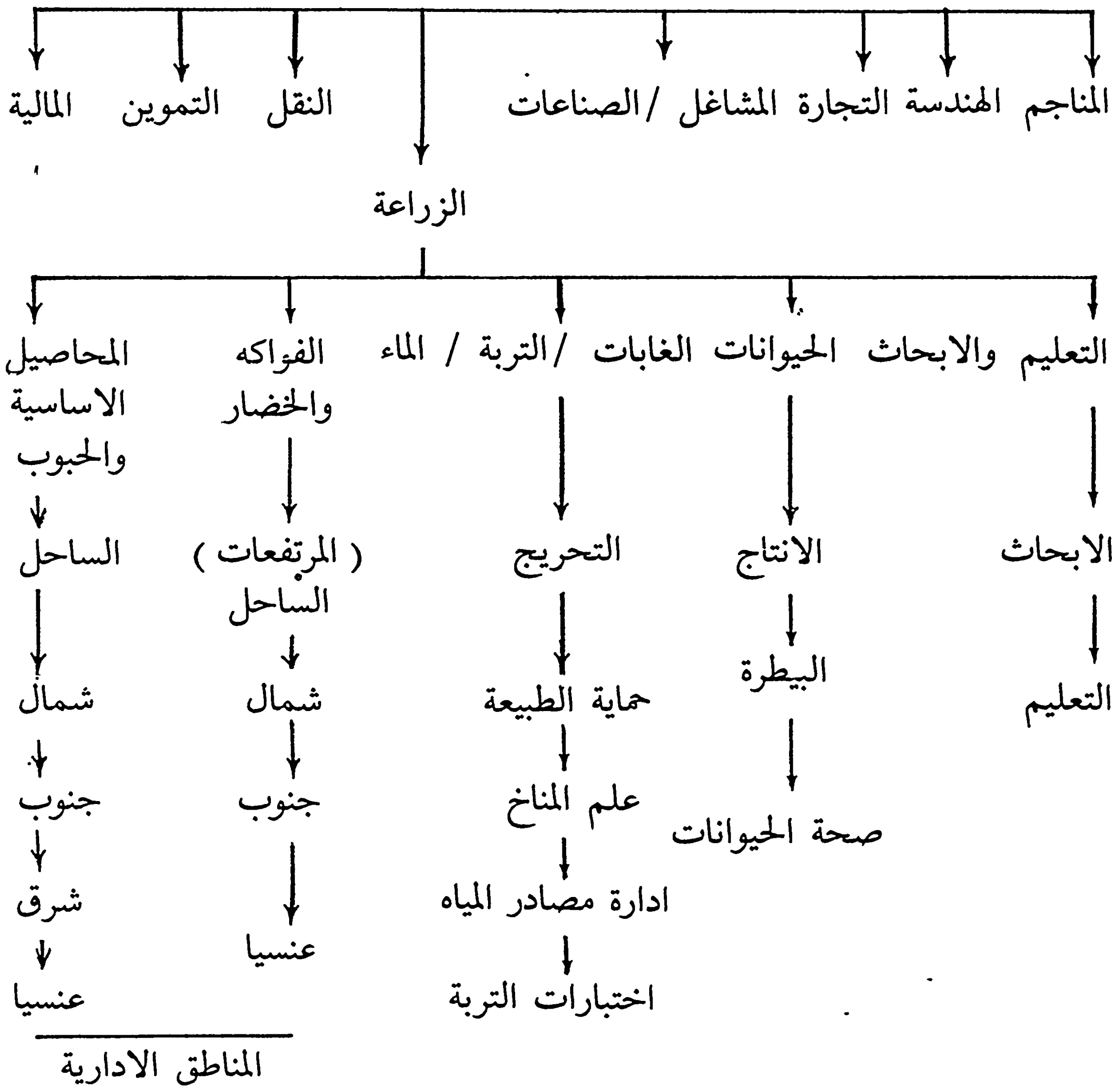

إن المشاكل الأساسية التي تمت مواجهتها في تجربة التخطيط الأخيرة ، عموماً ، وفي ما يتعلق بالزراعة ، خصوصاً ، نتجت كما يبدو عن مقتضيات الموقف الحربي ومتطلبات الجهد العسكري . وقد نمت ذهنية ادارية ونفسية بيروقراطية أدت الى ضعف التنسيق بين الدوائر . وفي محاولة لمعالجة هذه المشكلة تم تشكيل لجنة تخطيط في العام ١٩٧٧ برئاسة عضو في المكتب السياسي بمسؤولية أساسية عن الاقتصاد . أما الدوائر المختلفة الآن فيجب ان تحوي فروعاً للابحاث تطور وتقيّم خطط هذه الدوائر وترسل هذه الخطط الى لجنة التخطيط التي تتخذ ، من ثم ، قرارات نهائية حول الأولويات بين الاجهزة وتجتمع لجنة التخطيط مرة كل ستة أشهر حيث تراجع تقارير الاجهزة وتصدر على ضوء هذه المراجعة توصياتها التي تستهدف الوصول الى تنسيق كلي أفضل .

في آذار (مارس) ١٩٧٨ ، عقد في مدينة كرن ، كانت يومها في ايدي الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا ، اول مؤتمر لاتحاد الفلاحين الأريتزيين(٥) . وقد حضر المؤتمر الذي عقد تحت شعار « لنعزز تحالف العامل والفلاح » ٢٨٧ ممثلاً للفلاحين من الفقراء والمتوسطين بشكل أساسي . وامكانية عقد مثل هذا المؤتمر ، شهادة على درجة تعبئة الفلاحين من أجل قضية الثورة الأريترية . وخلف هذا الاجتماع وهذه الشعارات ، تكمن قاعدة صلبة من التسييس ، التنظيم ، واشتراك الفلاحين في شؤون تجمعاتهم المحلية وشؤون بلدهم . ففي بعض الأماكن دخل الاصلاح الزراعي الآن . المرحلة الثانية وحتى الثالثة من عملية المساواة واعادة توزيع الأراضي(٦) . وفي عدد من الأماكن بدأت جمعيات القرى تشكيل قاعدة للانتاج التعاوني . والفلاحون الذين يشكلون ٨٠ في المائة على الأقل من السكان يملكون الآن نواة ميليشيا حقيقية انبثقت من تجمعاتهم وتعيش وتعمل في هذه التجمعات . اعضاء هذه الميليشيا مسلحون ، وكما قال كادر في الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا فان « حقيقة تسليحهم في المقام الأخير ، هو دفاع ضد اي ظلم من قبل الجبهة » . وواقع ان ميليشيا الفلاحين تحمل اسلحة وان الكادر الحزبي يعطي هذه الملاحظة ، اضافة الى التغير الزراعي والاجتماعي الذي شرحناه سابقاً ، هو دليل على نموذج النضال الاشتراكي الذي يجري الآن في اريتريا .

كلمة شكر : المعلومات التي يرتكز اليها هذا البحث جمعت بمساعدة العديد من الأريتريين الذين قد يكون بعضهم قد مات الآن في النضال . ورفيقاي في الزيارة الى اريتريا ساهماً كثيراً ايضاً في الرصد والمناقشة ، وهما صامويل كاسابو (باريس) وهيوبرت لاردينويز (بروكسيل) .

المراجع :

1. Jean-Louis Peninou, La Reforme Agraire à Azien, (*Liberation*, Paris, 15 October, 1976), reprinted in *Revolution in Eritrea: Eyewitness Reports*, Le Comite Belge de Secours á l'Erythree.
2. Dan Connell, Liberation in an Eritrean Village, (*Guardian*, New York, November, 1977), reprinted in *Revolution in Eritrea . . .*
3. Documentary film on the land reform in Zager, transmitted by Associated Television, UK, 23 April, 1979.
4. Talal Asad, 'Equality in Nomadic Social Systems', *Critique of Anthropology*, 12, 1978.
5. *Eritrea in Struggle*, vol.2, No.9, June 1978, pp.1-2, *Vanguard*, vol. 3, No.1, May 1978.
6. Personal communication from Dan Connell.

ماري دانيز

الأرض والشعب والثورة

لا يمكن للمرء ادراك الموقف الاريتري ما لم يفهم أولاً جغرافية أريتريا . فهي تتألف من مثلث مساحته ٤٢٠ ألف كيلومتر مربع من الأرض تحدها من الجنوب اثيوبيا ، من الغرب والشمال السودان ، ومن الشرق البحر الأحمر الذي يشكل مفتاح أهميتها الدولية .

الحرب الطويلة عزلت الأريتريين عن العالم الخارجي . ولا يمكن الوصول الى اقليم الساحل الشمالي إلا بعد رحلة لمدة يومين عبر الصحراء من بور سودان . ولا توجد طريق بعد **سواكن** ، المدينة الصغيرة التي تقع على بعد ٦٠ كيلومتراً جنوب بورسودان ، في ما عدا مجاز ضيق عبر الصحراء الى مدينة **طوكر** *(Tokoro)* التي تبعد حوالى ٥ ساعات بالسيارة عن مدينة **قارورة** *(Karora)* الحدودية . والمجاز الصحراوي غدّار بعواصفه الرملية التي تخفي الطريق والكثبان الضخمة التي تجبر العربات على القيام بانعطافات واسعة . وتحت هذا المجاز ، في الواقع ، توجد آثار طريق تصل الى طوكر وتظهر من وقت الى آخر لمسافة ميل أو أكثر لتعود فتختفي مجدداً . أفضل دليل على هذه الطريق أعمدة التلغراف التي يفترض أنها تقوم على جانبها ، واذا أبقيت هذه الأعمدة في مدى بصرك فأنت على الأقل ، تسير في الاتجاه الصحيح . في فصل المطر تغوص السيارات والشاحنات في الوحل وفي فصل الجفاف تنزلق العجلات على الرمال الناعمة بحيث تفقد الاطارات ثباتها وتلتف العربات في مكانها . في المناخ الحار يصاب المسافرون بالدوار بسبب الحرارة . أما في الليل ، في موسم البرد ـ من تشرين الثاني (نوفمبر) الى نهاية كانون الثاني (يناير) ـ فالبرد قارس وتصاحبه رياح عنيفة تحمل معها سحابات من الرمل تجعل الرؤية معدومة نهائياً .

تعيش في الصحراء ، بشكل متناثر ، مجموعات صغيرة من الرحّل مع جمالهم

ورؤوس من الماعز ترعى قرب مجاري الأنهر وآبار المياه . يقيم هؤلاء في خيام ، بعض الوقت ، ولكن غالباً في أكواخ مبنية من غصون الأشجار . في الليل تتلألأ نارهم في الظلام ، وخلال النهار يخرج الأطفال مع القطعان ، بينما يجلس الرجال غالباً في ظلال الأشجار على جانب الطريق يخمّرون الشاي الثقيل مع السكر ويبيعونه الى المارة . في بعض الأوقات يبيعون التمر أيضاً . وحتى في الليل يترك هؤلاء النار موقدة أملاً منهم بمرور شاحنة تكون غالباً تابعة للجبهة الشعبية لتحرير اريتريا في طريقها من او الى بورسودان مع حمولتها من المؤن . ودائماً يتوقف ركاب هذه السيارات لتناول فنجان من الشاي الساخن قبل استئناف الرحلة في الليل . بعد طوكر يسير المجاز - لا يوجد أي مظهر للطريق الآن - يساراً عبر قرى صغيرة ومشروع ضخم لزراعة **السرغوم** يمتد لعدة أميال . قبل حصاد **السرغوم** يكون من المحتمل جداً ان تضيع بين الاغصان الكثيفة التي تشبه غابة اكثر مما تشبه حقلاً للمحصول . بين هذه الشجيرات أيضاً يوجد البطيخ الذي لا ينضج قبل جني **السرغوم** . ثم يزرع بعد ذلك القطن ايضاً في هذه الأرض . ويبدو ان هذا أطول جزء من الرحلة الى أريتريا ، إذ لا توجد فيه أعمدة تلغراف للاستدلال وانما جبال بركانية بلونها الرمادي - البني لا تنتهي وتمتد الى اليسار ، وكتل من الاعشاب الشوكية في الرمال ، مع عدد من مستوطنات الرحّل حيث يتوفر طعام كاف لجمالهم وقطعان الماعز العائدة لهم .

يتألف مركز قارورة الحدودي الذي استولت عليه الجبهة الشعبية لتحرير أريتريا من الاثيوبيين في كانون الثاني ١٩٧٧ من مبنى صغير مع علم ، ومن طابورين من الثكنات تنمو اشجار خلفهما وأمامهما . وفي الداخل توجد غابة صغيرة تختبىء فيها الحيوانات من حرّ الشمس خلال النهار . هنا تنتظر الشاحنات الأميركية والسوفياتية الصنع ، غروب الشمس لتبدأ رحلاتها الخاطفة الى خطوط التموين الأريترية في داخل أريتريا . خلف ذلك تمتد الصحراء المنبسطة مجدداً ولكنها الآن محاطة بتلال عملاقة تنتشر الى ما لا نهاية في العمق . وفيما تضيق الصحراء تظهر صخور ضخمة تحتشد غالباً في اشكال غريبة . هناك صخر اردوازي سقط من سفوح التلال ويبدو أنه يجثم بفزع على صخور صغيرة . إنها تشبه أشياء عديدة . احدها يبدو شبيهاً برأس أسد ضخم بعينيه وفمه ، وآخر أشبه بقرد ، وثالث مثل فيل . ومن الصعب الاعتقاد بأن هذه الاشكال عَرَضية ..وليست، مثل الاهرامات أو العمالقة في جزيرة الفصح *(Easter Island)* من صنع بعض الشعوب القديمة .

بعد المنطقة المسطحة قرب **قارورة** يصعد المجاز ليصل بعد ساعات الى مناطق الغابات في الساحل *(Sahel)* هذه المناطق تقطعها مجاري الأنهار التي تمتلىء في موسم المطر وتصل الى حد الجفاف في أماكن كثيرة حوالى نهاية العام . القليل جداً ينمو في الوديان في ما عدا بعض الاعشاب المتناثرة والاشجار الضخمة عند سفوح الجبال . غالباً ما تجرف هذه الاشجار بسبب الأمطار الغزيرة وتقبع مثل الهياكل العظمية ، جذوراً وفروعاً ، على مجاري الأنهار حيث يجمعها الرحّل الأريتريون الذين يتجولون في المنطقة أو مقاتلو الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا الذين يتمركزون في قواعد لهم في المنطقة للاستخدام كحطب. وعلى العموم فهذه المنطقة لا يسكنها المدنيون . فالألوف من الرحّل تعرضوا لمجازر الطائرات الأثيوبية التي كانت تحلق على ارتفاع منخفض في الوديان وتستخدم مدافعها الرشاشة في قتلهم وقتل قطعانهم . واليوم يتجول قليل جداً في الوديان ولكن هناك دلائل تشير الى كثرة اولئك الذين قتلوا . توجد مقابر صغيرة ، لا تحصى ، على جانب الطريق . كل قبر عبارة عن ركام مستطيل من الحجارة مع حائط حوله . وحيث توجد قبور عدة في المكان ذاته يقوم ايضاً حائط آخر حولها . وفي مناطق متعددة توجد ايضاً هياكل فارغة لملاجئهم المبنية على الرمال بشكل خيام .

معظم الساحل الشمالي رملي ، ولكن مع أنهار تجري بين الجبال والصخور البركانية الكبيرة التي ينمو على سفوح بعضها العشب ولكن تبقى قممها جرداء وعارية . هنا يحرس المقاتلون الاريتريون طرق الامداد الاستراتيجية وينتظرون الطائرات الأثيوبية التي تغير على الوديان بصواريخها وقنابلها .

تتنوع مجاري الأنهر وتختلف في حجمها . بعضها يمتد عدة مئات من الأقدام مع بعض الجزر في الوسط ، والبعض الآخر أضيق من ذلك . وحتى في الصيف تظهر جداول من الماء ، من وقت الى وقت ، كما أن بقعاً خضراء على امتداد مجاري الأنهر الفارغة تكشف احتمالات وجود ينابيع غير مكتشفة في مناطق متعددة .

وبرغم الرمال والصخور ، توجد زهور في كل مكان في الصيف : زرقاء ، بيضاء ، صفراء ، حمراء ومتعددة الألوان . بعضها يبدو مثل الأزهار الجبلية في النمسا ، كما يوجد شوك ذو زهور زرقاء لامعة . هناك أيضاً العديد من الطيور ، مثل اليمام الذي ينادي طيلة النهار، وعصافير زرقاء وسوداء ذات منقار طويل تغط وتطير من بين الأعشاب، مثل السنونو وعصافير الحب الحمراء والخضراء وغيرها . إلا أن الحيوانات ليست كثيرة ، فهناك القطط البرية التي تعيش في التلال ولكنها تنزل في الليل لتبحث عن

الدجاج وبعض الطعام الآخر . ولهذه القطط عيون صفراء واسعة في وجه دائري اضافة الى ذيل مخطّط طويل . الانسان لا يخيف هذه القطط وهي تحملق بدون اضطراب عندما يوجه الضوء اليها . والذئب الاريتري القصير الرمادي والشرس جداً هو قضية اخرى . انه يأتي ايضاً من التلال في الظلام املاً في سرقة رأس ماعز من الرحّل في الوادي . ولهذا السبب يحتفظ كل رحّلي بكلبين على الأقل من النوع الأصفر القصير الشعر الذي يبدو شبيهاً بكلب الدنغ الأوسترالي. هذه الكلاب أيضاً شرسة جداً ويستطيع الواحد منها التغلب لوحده على ذئب . الثعالب تسكن أيضاً المناطق المرتفعة . أما الى الجنوب فتوجد أيضاً ايائل صغيرة وعائلات من القرود . إلا أنه يوجد في كل مكان من اريتريا ، أرانب صغيرة رمادية اللون . وغالباً ما تقفز هذه الأرانب ، في الليل ، عبر الطرقات امام الشاحنات عندها يخفف السائقون التابعون للجبهة الشعبية سرعتهم للسماح للأرانب بالمرور . والجمال فقط هي التي تشكل خطراً على الطرقات . فلدى سماع هدير المحرك تخرج هذه الجمال من الادغال وتركض بجنون امام العربات من دون ان تحاول ان تحيد الى جانب الطريق، وليس بفضل ذكاء هذه الجمال قط أنها لا تتعرض للموت .

الطريق ، في الساحل حار جداً في النهار ، وتصل درجات الحرارة الى الأربعين خلال الصيف برغم أنه أكثر برودة في الليل ويمكن ان يكون بارداً فعلاً في الشتاء . والساحل أيضاً منطقة للبعوض الذي يهاجم الناس مرتين في الشهر على الأقل . والرمال مليئة بالذباب الذي يقرص وان كان أقل خطراً من البعوض . والحشرات والحرارة المرتفعة تفعل فعلها خاصة على شواطىء منطقة الساحل حيث ما يزال يخيّم الجيش الاثيوبي بعد طرده نتيجة سلسلة من الهجمات على مواقع الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا في الجبال .

في جنوب غربي منطقة الساحل تقع العاصمة نقفه *(Nakfa)* التي يمكن الوصول اليها عبر سهول واسعة من الشرق والغرب . نقفه نفسها تقع في هضبة تحيط بها الجبال ، وهي مدينة كان يسكنها في السابق أكثر من ٦ آلاف مواطن وفيها مياه للشرب تصل الى المنازل بأنابيب ، ومحلات للبيع ، ومسجد ، وكنيسة للأقباط ، أما الآن فهي هيكل مدينة ، خاصة بعد ستة شهور من الحصار من قبل الجبهة الشعبية في العام ١٩٧٧ ، وبعد القصف المستمر من قبل الطائرات الاثيوبية التي تهاجم مقاتلي الجبهة حيث ما زالوا يعيشون في بقايا المنازل المدمّرة . التلال حول نقفة عارية لا تغطيها الا قليلاً في الغرب غابة من الصّبير . الطقس في نقفه بارد في الليل ، وفي الشتاء ضبابي ويزداد كثافة كلما هطل المطر على المنطقة . أما في عمق الجنوب ، فالمرتفعات اكثر خصوبة .

السفر جنوباً شرقاً من التلال والسهول حول نقفه يؤدي بالمرء الى الفابت *(Alfabet)* والطريق اليها الآن يقطعه الخط الأمامي للجيش الاثيوبي على بعد ١٠ كيلومترات من نقفه . هنا يتمركز حوالى ٣٠ ألف جندي اثيوبي ، وقد حاولوا في خلال الشهور القليلة الماضية التقدم مرتين للاستيلاء على نقفه ولكنهم منوا بالهزيمة وبخسائر فادحة .

وأفغبت قرية مسلمة نموذجية ذات شارع رئيسي ببيوت من الطين وعدد من الشوارع الأصغر. التجار فيها يبيعون كل شيء من السجائر ، (« فلت ») أي بالسيجارة الواحدة ، الى المسحوق « اومو » *(Omo)* كان هناك مستشفى سويدي رائع في أفغبت إلا أنه الآن ركام بعد أن أقام الجيش الاثيوبي مركزه الأخير هناك عندما سقطت المدينة في أيدي الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا العام ١٩٧٧ . وكانت هناك أيضاً مدرسة كبيرة قامت الجبهة الشعبية بتجديدها بعد القتال . وقد عاد الجيش الاثيوبي لاحتلال المدينة في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٨ عندما فرّت غالبية السكان الى التلال المجاورة .

من إفعبت الى كرن. التي خسرها الأثيوبيون في تموز(يوليو) ١٩٧٧ إلا أنهم عادوا فاحتلوها في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٨، رحلة طويلة باتجاه الجنوب. تستغرق هذه الرحلة حوالى سبع ساعات من دون توقف ، وتغطي سلسلة جبال شاهقة أعلى الطرق في المنطقة كلها . شجعت الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا الرحّل على زراعة الذرة في السفوح ، وتبدو حقول هؤلاء في أوقات الحصاد ، حمراء مع جدرأن رمادية تم بناؤها لمنع المياه من التسرب من المصاطب الى الوادي . من مكان الى مكان توجد سهول تزرع فيها محاصيل اخرى . فقد تمت تجربة **السرغوم** في احد الاماكن إلا أنه لم ينجح بشكل كامل لأن المياه تسربت منه . والنظر الى الممرات الجبلية في الليل يشبه النظر الى أعماق المحيط ، بينما تدعو هذه السهول الى انشراح مؤقت ما يلبث ان يزول . وتصل الطريق في النهاية الى منطقة ريفية حول كرن خصبة وجميلة حتى في أثناء الليل. شمالي المدينة ببضعة أميال توجد مزرعة حمضيات واسعة كان يملكها في السابق مزارع ايطالي ، ولم يعتن بها أحد في ظل الاثيوبيين ، وقد استولت عليها الجبهة الشعبية لتعود مجدداً الى مرحلة اللامبالاة بها بعد الهجوم في العام ١٩٧٨ . وفي شهري كانون الأول (ديسمبر) وكانون الثاني (يناير) يعبق الهواء برائحة ليمون الحامض ، (الافندي) والبرتقال الذي ينمو في هذه التربة الرملية الناعمة .

الطريق من مزرعة الحمضيات الى كرن تمرّ عبر حقول مزروعة بالذرة ومستوطنات

للفلاحين يعيشون فيها مع قطعانهم الصغيرة من الماعز . عندما كانت الجبهة الشعبية تسيطر على كرن كانت هذه المنطقة حافلة بالنشاط دائماً اثناء الليل . وكانت مجموعات من الفلاحين تشعل النار على جانبي الطريق وتقفز لتحيي شاحنات الجبهة الشعبية المارة بالمؤ ن الى الجنوب . هتاف«**آعوت ناحفاش**» (*Aouot nahafash*) (النصر للجماهير) كان ينطلق من الحناجر، وغالباً ما كان الأولاد الصغار بمراييلهم الطويلة يركضون خلف الشاحنات وهم يلوحون ويصرخون مشجعين .

الطريق الى كرن محاطة بأشجار صبّير دائرية ضخمة ذات شوك قاس . ولاحقاً ، عندما تبدأ الشوارع في الظهور تبدو الجدران مكسوّة بأشجار **الأزالية** (*Azalea*) ذات اللون الليلكي العميق أو الأحمر الفاتح التي تنمو حول المدينة. ونباتات (المجنونة) **البوغنفيلية** (*Bougainvillea*) تنمو أيضاً في كل مكـان. وهنا ، للمرة الأولى ، تظهر طرق معبدة ومنازل حجرية . والوصول الى كرن هو بداية ونهاية الرحلة في وقت واحد لأنها عاصمة الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا وبوابة الجنوب معاً .

وكرن نفسها محاطة بالتلال من كل جانب . يظللها جبل **لالمبا** (*Lalamba*) وحصن عملاق بناه الايطاليون ، وفي العديد من وجوهها تشبه مدينة في الجنوب الايطالي . شوارعها الرئيسية محاطة بمنازل ايطالية واسعة وحدائق ملأى بنباتات مزهرة . والعديد من هذه المنازل استخدم من قبل الجبهة الشعبية كمكاتب لاداراتها المختلفة في العامين ٧٧ و٧٨ . كذلك توجد منازل بيضاء نظيفة من طبقة واحدة تتألف من غرفتين أو ثلاث غرف يتناثر بعضها على التلال . هناك ايضاً مستشفى وحديقة زخرفية جميلة ومدرسة واسعة شيّدت للأيتام إلا أنها تضررت في القتال واستخدمت لاحقاً كمختبر للأبحاث ومكان لاجتماعات مختلف الاتحادات المحلية التي سيّرت شؤ ون المدينة في ظل سيطرة الجبهة عليها . وفي محاذاة ذلك تماماً تقوم أكواخ الفلاحين المخروطية الشكل ذات السقوف المبنية بالقش . في وسط المدينة توجد سوق كبيرة تباع فيها الفواكه والخضار ، وشوارع تجارية ضيقة يعمل في العديد منها خياطون يجلسون على مداخل محلاتهم وهم يخيطون القمصان ، الفساتين والملابس الأخرى على آلات خياطة قديمة وبأسعار تبدو رخيصة جداً . التجار الآخرون يبيعون تشكيلات من السلع بعضها يأتي من اسمره والبعض الآخر من السودان . وكما في افعبت فالسلع التي تأتي من السودان تنقل دائماً بواسطة الجمال وذلك في ما عدا فترة سيطرة الجبهة الشعبية عندما كان التجار يستخدمون عادة الشاحنات في مقابل بدلات ضئيلة . في ضواحي المدينة

تقوم سوق كبيرة للمواشي ومسلخ . وقد تعرضت السوق ، والمستشفى ، اضافة الى المدرسة لقصف الاثيوبيين من الجو ، في العام ١٩٧٨ وألحق ذلك العديد من الخسائر بين السكان .

في كرن أيضاً شبكة أنابيب للمياه ، وخلال ١٩٧٧ و١٩٧٨ اعادت الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا خدمات الكهرباء والهاتف الى العمل إلا أنها فككتها عندما انسحبت من المدينة . لكن هناك خدمات أخرى قليلة . فمحطة السكك الحديدية غير مستخدمة بعد أن دمّر خط السكة الى أسمره منذ سنوات عدة ، إلّا أن الجبهة الشعبية سيّرت خطوط حافلات الى مدن في المناطق الأخرى . أما الضرر في خلال القتال في العام ١٩٧٧ فقد كان كبيراً إلا ان الجبهة الشعبية ازالت الكثير من الركام . وخارج المدينة عملت الجبهة حتى على ترميم المقبرتين البريطانية والايطالية اللتين تدلان على الحصار الذي فرضه البريطانيون على المدينة طيلة ثلاثة أشهر ونصف الشهر في خلال الحرب العالمية الثانية . للسخرية ، فالمقبرة البريطانية مقسمة الى ثلاثة اقسام : أحدها للبريطانيين والثاني للسودانيين والثالث للهنود الذين ماتوا أثناء المعارك . ولكن البستاني الذي يرعى المقبرة تجاهل أي تمييز عنصري واعتنى بالمنطقة كلها بالقدر نفسه . يبقى أنه بعد اعادة احتلال المدينة من قبل الاثيوبيين في نهاية العام ١٩٧٧ ، وضعت كرن تحت سيطرة الدرغ *(Dergue)* الذي يعمل من خلال نظام قبلي *(Kebele)* الشرس والقمعي .

الطريق جنوبي كرن تمر في منطقة خصبة برغم سنوات الاهمال التي منعت من استغلال كامل لهذه المنطقة ولا يمكن معرفة الطاقة الحقيقية لهذه المنطقة الوسطى من المرتفعات قبل الوصول الى مدينة **عيلابرعد** *(Elaboret)* . فقد بنى الايطاليون هنا مزرعة واسعة للحمضيات والعنب والذرة اضافة الى معمل واسع ومزرعة للألبان . هذه المزرعة تزوّد بالماء بواسطة نظام بارع يجرّ المياه من سدّ في الغرب ويوزعها بالأنابيب على بساتين الفاكهة والحقول . ومزرعة الألبان عبارة عن مبنى رائع مجهز بمعدات حديثة ، وقد توقف استخدامه بعد أن أعلن الاثيوبيون تأميمه . أما بعد تحريره من قبل الجبهة الشعبية في صيف العام ١٩٧٧ فقد عمل مقاتلو الجبهة بمثابرة لاعادته الى العمل مجدداً . فنظفوا البساتين من الأعشاب الضارة والنبات الهجينة وشذبوا الاشجار ، وأدى ذلك الى محصول ضخم من البرتقال والليمون وزع على المستشفيات والمدارس والفلاحين في مناطق لجوئهم . بعض الكروم نظفت أيضاً وزرعت أغراس جديدة من

نصوب العنب . إلا أن التطور الأكثر أهمية ، كان تهجين الماشية في باحة واسعة مبنية لهذا الغرض ، وفي مرابط مسقوفة ، قرب مزرعة الالبان . لقد ذبحت عشرات الألوف من رؤوس الماشية في غارات البحث والتدمير الاثيوبية خلال السنوات العشرين الماضية من الجرب . وبالتالي فهناك حاجة ملحة لسدّ النقص في المواشي . كانت الجبهة الشعبية تهجن الماشية من منطقة **بركة** *(Barka)* الغربية ومرتفعات اريتريا الوسطى بهدف استيلاد سلالة أقوى . وكانت تلقح ايضاً الماشية ضد السل لأنها تشعر بضرورة ذلك في بلد يقدر ان شخصاً في كل عائلة فيه يعاني من ذلك المرض .

كانت **عبلابرعد** *(Elaboret)* مسرحاً لقتال ضار في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٨ . وفيها تمكن المقاتلون الأريتريون مؤقتاً من وقف حملة آلية ضخمة بقيادة السوفيات على كرن في معركة استمرت يومين . وقد دمّرت المنطقة كلها بالقصف الجوي والهجمات الصاروخية والقتال الالتحامي الذي جرى هناك .

جنوبي **عيلابرعد** تدور الطريق حول التلال المزروعة بالشعير والذرة باللون الذهبي والبرتقالي وفي اوقات الحصاد ، تمتد الجبال الى الغرب . بعد الحصاد تمتلىء جوانب الطريق بأكداس قش الذرة الذي يستخدمه الفلاحون علفاً للحيوانات . وبينما تقف الجمال ورؤوس الماعز لتأكل من هذه الاكداس ، يجري تحميل أكداس اخرى على ظهور الحمير الصبورة الى القرى المجاورة . وهذا بدوره يجعل الطريق ذات سطح زلق ويشكل حافزاً اضافياً للجمال للسير على هذاالطريق ،امام العربات جانبي الطريق تنبت أشجار ضخمة من الصبير ، بشكل مراوح . وكلما تقدمت الطريق جنوباً تظهر للعين بقايا القرى التي دمّرها الاثيوبيون ، بعضها ليس أكثر من كوم من الحجارة ، وبعضها الآخر ما يزال يحتفظ ببعض البيوت على اقدامها .

طريق كرن تمرّ عبر المرتفعات الى **مصوّع** *(Massawa)* وتتفرع يساراً الى العاصمة اسمره . لكن قبل ان تصل الى مصوّع ، تعبر سهلاً منبسطاً تقع فيه مدينة **دقمحارى** *(Deca mare)* الصناعية. هذه المدينة في أيدي الاثيوبيين ، الآن ، برغم أن الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا استعادتها ليوم واحد في وقت مبكر من هذا العام . وحدات مقاتلي الجبهة تعمل بحرية في ريف هذه المنطقة ، وقد صدّت بكمائنها جميع المحاولات الاثيوبية لتحريك القوات والامدادات من مصوّع . وتكلف هذه الكمائن الاثيوبيين كثيراً جداً من الأسرى والارواح والأسلحة .

شرقي الطريق الرئيسية تقع قرية **ووكي** *(Woki)* التي يمكن الوصول اليها عبر درب

ترابي .وكانت هذه القرية مسرحاً لمجزرة مرعبة في العام ١٩٧٥ طعن فيها رجال ونساء وأطفال بالحراب حتى الموت ، وأحرقت بيوتهم ، ودمّرت كذلك حيواناتهم ومحاصيلهم . من ووكي تتجه الطريق جنوباً شرقاً الى زاغر *(Zager)* القرية المبنية على تلة في مرتفع صخري يطل على اسمره . والتربة الرملية تكسوها صفوف من الصبير الغليظ والأعشاب الشوكية المعروفة على امتداد اريتريا . ولقد كانت زاغر مركزاً حيوياً لنشاط الجبهة الشعبية في ١٩٧٧/١٩٧٨ وكانت اتحاداتها الجماهيرية نموذجاً للتطور .

تبدأ الحياة في زاغر عند شروق الشمس لدى أخذ الماعز الى المراعي في خراج القرية وذهاب الفلاحين للعمل في الحقول . لا توجد مياه في القرية وينبغي بالتالي جمعها من الآبار القريبة في قُرَب تحمل على الحمير . عندما يتم ملء القرب بالماء يستخدم غصن من شجرة الاوكاليبتوس (الكينه) *(Eucalyptus)* كسدادة لها ويحملها الحمار الى القرية حيث يجري تفريغ الماء في دلاء ، أو صفائح بترول فارغة ، أو أي وعاء آخر . البيوت في ووكي تحت مستوى الأرض غالباً وتتألف من غرفة واحدة مبنية في سفح التلة مع سقف من القش يمتدّ على أوتار خشبية الى الامام ليشكل مأوى . وفي هذا الجزء الأمامي يتم الطبخ على موقد صغير مصنوع من الحجارة أو صفائح البترول ، وتنام هناك رؤوس الماعز في الليل . القرويون هنا يشربون القهوة من مزارع تقع الى الشرق ، حيث تطحن باليد وتقدّم في أوعية صغيرة . بعض الناس يربون الدجاج ، من نوع البنطم *(Bantam)* الصغير ، ولكن البيض بمعظمه ، وهو ترف في اريتريا يؤخذ ليباع في الأسواق ، والفراخ ترف هنا أيضاً،الا انها ضمن الضيافة الأريترية النموذجية يمكن ان تطبخ تكريماً لزائر .

في زاغر كنيستان احداهما قبطية والثانية انجيلية .

والمواطنون عاشوا في معاناة وقلق كبيرين ، خصوصاً وان المدينة قريبة جداً من أسمره ومعرضة للغارات الجوية، انهم فقراء ، ولكن النساء يتزيّن بعباءاتهن الزاهية الألوان، وشعرهن يسترسل على رؤوسهن ثم يتدلى على شكل كعكة كثيفة الى الوراء . وهُنَّ حيويات ونشيطات وصلبات بحيث أنهن لا يتطلعن الى السماء عندما تحلق فوقهن الطائرات الاثيوبية .

من ووكي تنطلق طريق أخرى صعوداً وهبوطاً في الجبال وتؤدي الى منطقة فلفل *(Filfil)* الخصبة . وفلفل تعني « نبع النهر » وهي وصف لمنطقة كاملة وليس فقط للنهر الذي يسرع نزولاً من الجبال عبر الصخور. وجذور الأشجار الساقطة على

الأرض ، لتخف سرعته في وقت لاحق بينما هو يكمل مسيرته شمالاً . هنا توجد اشجار فواكه وقهوة ، وتعتبر المنطقة منتجة جداً في الظروف الطبيعية . تحت الأشجار في الوديان توفر الجبهة الشعبية لوحداتها من الفدائيين المواصلات والمؤونة ، كما يوجد ايضاً مستشفى كبير . ووجود المواصلات يجعل المنطقة عرضة للقصف حيث يقوم الاثيوبيون بطلعات منتظمة على امتداد الوديان . وفي المناطق الزراعية يقوم هؤلاء بهجمات نهارية بالصواريخ على الفلاحين العاملين في الحقول ويستخدمون من وقت لآخر النابالم والمبيدات للنباتات .

هذه المناطق الجنوبية من اريتريا جميلة بشكل مدهش . وبرغم ان الجبال شبيهة بالجبال البركانية في الشمال ، فهنا يوجد شجر اكثر ، والتربة خصبة ، والمناخ أقل قسوة . أنواع من الفراشات الفاتنة تزرع الحقول ، والريف المتموج يومض تحت سماء من دون سحب . وفي الشرق يهدر البحر الأحمر ، مفتاح كل من المستقبل والماضي المأساوي للشعب الأريتري .

أكثر من ٨٠٪ من شعب اريتريا البالغ عدده ثلاثة ملايين نسمة يعيشون عادة في هذه المناطق على الجانب الشرقي من البلاد ، وهنا بالذات ركزت الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا دائماً نشاطها السياسي والعسكري . وفي شمال الساحل *(Sahel)* أيضاً سيتقرر مستقبل الحرب .

وبالرغم من امكاناتها الزراعية فإن اريتريا فقيرة جداً . ومثل العديد من بلدان العالم الثالث التي استعمرت لسنوات عدة ، تعاني اريتريا كل المشاكل التقليدية العائدة للفقر والتخلف . وهذه تشتمل على المرض وسوء التغذية والأمية والمواقف الاقطاعية تجاه النساء والفقراء . موارد البلاد الطبيعية لم تستغل ابداً بصورة كاملة وحتى ما تم تطويره منها ـ مثل مزارع الفواكه والبن ـ كان نافعاً لأقلية فقط . فقد استغل الايطاليون طاقة اريتريا الزراعية والصناعية لمصلحة التجارة الايطالية ، لكن البريطانيين فككوا صناعتها لدى انتهاء الحرب العالمية الثانية . وعندما انتهك الاثيوبيون قرار اقامة اتحاد في العام ١٩٦٢ ، نظمت التجارة لمصلحة نخبة من الناس ، وحتى اللغات الاريترية منعت في المدارس. وكذلك التمييز ضد أهل البلد الأريتريين أصبح واسع الانتشار .

وهكذا واجه الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا وضع صعب عندما سيطرت على المناطق المحررة في كانون الثاني (يناير) ١٩٧٧. كانت جماهير الشعب تعيش في مستوى الكفاف وزادت ظروف الحرب من تفاقم العديد من المشاكل الاجتماعية . الخدمات الطبية

الضئيلة كانت تتركز في المدن ولم تكن لتقدم الا القليل لاحتياجات السكان الذين غالبيتهم من سكان الريف . بل ان توزيع الأدوية والكفاءات الطبية البشرية على المناطق الريفية كان معلقاً في بعض المناطق . وخدمات التعليم كانت ايضاً محدودة ومركزية والتعليم الثانوي مثلاً كان متوفراً فقط للقليلين من **اصحاب الامتيازات** .

وبالنسبة للأريتريين لم تكن هناك حلول آنية أو سهلة . وكانوا في ذلك ، في موقف مختلف عما كانت عليه بلدان نامية متعددة حصلت ، بعد الاستقلال ، على مؤيدين دوليين (عادة من الدولة الاستعمارية السابقة التي تهتم بابقاء الحكومة الجديدة في السلطة) مستعدين تماماً لتقديم العون . والغوث الدولي لبلد خاض الحرب لمدة ١٥ سنة لم يكن أكثر من قطرة ولم يف إلا بالقليل من احتياجات السكان . والمال لبناء قاعدة صناعية لم يكن متوفراً ، وحتى المنشآت الأساسية مثل السكك الحديدية والطرقات والسدود تعطلت سواء بسبب الاهمال أو نتيجة للحرب .

في هذا الوضع تحولت الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا الى المصدر الوحيد الذي لم يلق التقدير الكافي أبداً - الى الشعب الأريتري .

كانت الأحزاب السياسية قد نمت في أريتريا في فترتي الاستعمار الايطالي والبريطاني وخلال الأعوام الأولى من الاتحاد مع اثيوبيا . وبرغم أنها لم تكن قادرة على خدمة حاجات الجماهير الشعبية (لأن الاثيوبيين كانوا يمحون حقوق الأريتريين قبل أن يجف حبر الاتفاقات الدولية الخاصة بانشاء الاتحاد) فإنها طوّرت ادراكاً ناضجاً كان في وقت واحد غير عادي وأزيترياً مميزاً . وكان منطقياً ، بالتالي ، أن ينمو النضال المسلح ضد الهيمنة الاثيوبية على أيدي جبهة التحرير الأريترية منذ العام ١٩٦١ أي قبل عام من **الضم القسري لأريتريا من قبل هيلاسيلاسي في العام ١٩٦٢**

أما الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا ، فقد انبثقت في العام ١٩٧٠ بعد أن انفصلت مجموعة من المقاتلين الجذريين عن جبهة التحرير الاريترية . وكانت الخلافات بين الحركتين أساسية . فقد اعتقدت جبهة التحرير الأريترية ان هدفها الأساسي ينبغي أن يكون كسب الحرب ضد الأثيوبيين ، على أن تعالج المشاكل الاجتماعية والسياسية في وقت لاحق . أما الجبهة الشعبية ، من جهة أخرى ، فكانت تعتقد ان المهمتين يجب ان تواجها في وقت واحد ، وعملياً فقد اعتمدت نجاحات حرب العصابات التي شنتها الجبهة الشعبية ، الى حد كبير ، على الدرجة التي تمكنت من تحقيقها في مجال تسييس الفلاحين واشراكهم في الثورة الاجتماعية التي تحققت في مناطق الجبهة . إلا أن التسييس كان

عملية بطيئة ، لأن كادرات الجبهة الشعبية ، من المعاقل في الساحل ، عاشت وعملت أكثر من سبع سنوات مع الفلاحين في الريف ومع العمال في المدن . وقد تجسدت ثمار الخبرات والمناقشات التي تولتها هذه الكادرات ، أخيراً ، في البرنامج الوطني الديموقراطي . وأدى هذان العنصران ـ البرنامج الوطني الديموقراطي للجبهة الشعبية لتحرير أريتريا والحاجة الى تنظيم سياسي مرن يستطيع معالجة التخلف والوفاء بحاجات السكان ـ الى نتائج مذهلة في منتصف السبعينات .

كانت المعضلة الأولى اقامة شبكة تنظيمية جماهيرية تستطيع التعبير عن احتياجات ، وتوفير أداة خدمة ، السكان الذين جرى تقسيمهم سابقاً على أساس الطبقة والعنصر والدين وحتى الجنس . وهذه التقسيمات شجعها الاثيوبيون لأنها كانت تشكل لهم عنصر استغلال كوسيلة لانكار حتى مجرد وجود قومية أريترية . ولم يكن كافياً أيضاً تأمين أسلوب ديموقراطي لصنع القرار ، فالمشاركة كان ينبغي أن تكون هي أيضاً في صلب النظام . لذلك انشأت الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا سلسلة من « الاتحادات » الجماهيرية في المناطق الريفية تغطي النساء والشباب والفلاحين والبورجوازية الصغيرة (الفلاحون الأغنياء وتجار القرى الخ . .) . كما انشئت في المناطق المدينية اتحادات للعمال ايضاً .

هذه الاتحادات تتولى الشؤون التي تؤثر على كل مجموعة على حدة . وعلى سبيل المثال تناقش اتحادات النساء وتتخذ القرارات وتقوم بالأعمال في الشؤون ذات الأهمية الخاصة بالنسبة إليهن . وكل اتحاد ينتخب ممثليه الى اللجنة التي تدير شؤون القرية أو « حارة » البلدة . وبهذه الطريقة فان لديها مسؤولية على المستوى المحلي وتقدم مساهمة شاملة في سياسة الادارة . هذا النظام يتمتع بحسنات اجتماعية بارزة ، فهو يبرز الحاجات الأساسية للمجموعات الصغيرة ، ويوفر بنيه للعمل التعاوني في جميع القطاعات ويعطي كل شخص فرصة للتعبير عن نفسه/أو نفسها عبر المؤسسات الديموقراطية . وعلى مستوى آخر ، فهو يفعل الكثير للتخلص من البيروقراطية التي تفسد الكثير من الحكم المركزي والمحلي في أماكن أخرى .

ان درجة المشاركة في الاتحادات عالية . ويلاحظ ذلك في ضوء حقيقة ان المجتمع الأريتري كان منظماً حتى وقت متأخر على أساس اقطاعي . وبشكل خاص فقد كان دور المرأة يقتصر على الطاعة ، وكان يأخذ كل وقتها حمل الأطفال والواجبات المنزلية والأعمال الزراعية ، وكانت النساء الفلاحات بمعظمهن أميّات . والقليلات منهن فقط

سافرن خارج قراهن . أما التغييرات التي حدثت في الأعوام الأخيرة فكانت سريعة ، بل وأسرع من التغييرات التدريجية التي تحدث عندما تهاجر المجموعات الريفية البدائية الى المدن ويمتصّها المجتمع الصناعي . بالطبع ، فإن الحرب استعجلت هذه التغييرات . وقد أدى النقص في السكان المدنيين نتيجة للقصف والمجازر الأثيوبية ، اضافة للحاجة الى القوى البشرية للعمل في الادارة المدنية والقوات المقاتلة للجبهة الشعبية إلى كون مشاركة النساء ضرورية إذا كان ينبغي سدّ الحاجة الى القوة البشرية . وفي الوقت نفسه أظهرت المرأة الأريترية درجة عالية من الوعي السياسي وتجاوبت بقوة مع فرصة التحرر .

كان ذلك تحدياً للعديد من الرجال الذين رأوا دورهم التقليدي كرب للمنزل يتهدد . إلا أن الموقف تغير من جهة بدعم من كادرات الجبهة الشعبية ومن جهة اخرى بواقع أن الكثيرات من النساء أصبحن « مقاتلات » ونتيجة ذلك فان اكتسابهن للدور الجديد كحاميات طبيعيات للمجموعة قد لقي قبولاً واسعاً . والزيجات المرتبة منعت أو أصبحت غير ذات أهمية خصوصاً في وقت يشترك فيه في القتال معظم من هم في سن الزواج .

وقد رافقت التنظيم الديموقراطي للمجتمع الأريتري في قاعدته الأساسية عملية [خلق] لا مركزية في الخدمات الاجتماعية . فتم إدخال التعليم والعلاج الطبي الى المناطق الريفية أيضاً وأصبحا بذلك متوفرين للجميع . وعلى مستوى التعليم حدث انفجار كبير في محو الأمية شمل المسنين والشبان معاً . وقد أثار تعليم البالغين خيال وحماس الجماهير ، حتى أن الطاعنين في السن والذين تأقلموا مع الحياة كأميين لأكثر من ٥٠ عاماً أصبحوا يشعرون بالحاجة الملحة للقراءة والكتابة . كذلك فان أؤلئك الذين هُجروا من بيوتهم (غالباً أكثر من مرة) وأصبحوا لاجئين كانوا يتوطنون بسرعة ليبدأوا أو يستكملوا عملية التعلم .

وخلال السنوات القليلة الماضية انطلقت عملية اللامركزية في الخدمات الصحية بسرعة . وفي أريتريا تجلت كل المشاكل الصحية لبلدان العالم الثالث ، إلا أنها هنا باتت مركبة بسبب سنوات الاهمال . ومنذ ضم الأثيوبيين لأريتريا في العام ١٩٦٢ نظروا الى الأريتريين كأنسباء فقراء ولم يعملوا إلا القليل جداً في نطاق الصحة العامة . كما أن وكالات دولية قليلة ـ الرئيسية بينها هي الارسالية الدولية السويدية ـ أقامت مشاريع صحية افرادية في مناطق معينة . والأبرز بين هذه المشاريع كان المستشفى الذي بناه

السويديون في الفابت (Alfabet) . إلا أنه لم يكن هناك أي اعتراف بواقع أن العديد من المشاكل الصحية في أريتريا يعود في أساسه الى سوء التغذية .

والأمراض متوطنة في أريتريا ، وربما كانت الملاريا هي البلاء الأكبر . وهذه تصيب مجموع السكان الذين يعانون من تكرار الاصابة بحيث تتدهور [صحتهم العامة] . والتيفوئيد مشكلة صعبة أيضاً ، وكذلك السل والأنواع المختلفة من الديسنتاريا ، الحصبة ، الجدري والالتهابات الطفيلية . في العام ١٩٧٧ اكتشف الفريق الطبي للجبهة الشعبية لتحرير اريتريا البلهارسيا في ثلاث مناطق من البلاد برغم أن هذا المرض لم يكن معروفاً سابقاً هناك بسبب النقص في تجهيزات التشخيص . وتوجد أيضاً نسبة عالية جداً من فقر الدم (الأنيميا) ونقص الفيتامينات والسعال الديكي والتهابات الجفون والبواسير . كذلك فان مرض العيون (التراخوما) هي شكوى عامة في المرتفعات .

حالياً ، وفي غياب التسهيلات الخاصة بالتلقيح وفقدان امدادات المياه الجارية وسوء التغذية نتيجة للنقص في الطعام، لا تملك الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا إلا خياراً بسيطاً في كيفية المواءمة مع الموقف. فهي تعالج الأمراض حين تحدث وتبذل كل جهد لتحسين امدادات الطعام عن طريق تعزيز البرامج الزراعية على امتداد البلاد . وعندما تثمر هذه البرامج تأمل أن ترى بعض التحسن في الصحة الأساسية للشعب.

انما هناك تركيز بصورة كبيرة ، في كل حال ، على التربية الصحية وخصوصاً بين سكان الريف . فهؤلاء يتلقون تعليمات حول أساليب منع التلوث وانتشار الأمراض المعدية . كما يجري اطلاعهم على أهمية [نظام] الغذاء في مكافحة سوء التغذية الذي يجعلهم عرضة للمرض . كل مريض يخرج من المستشفى يتلقى هذه التعليمات ، وفي القرى تعطى افرادياً للمرضى الذين يأتون الى العيادات وجماعياً لاتحادات الفلاحين والشباب ، والنساء من قبل أطباء « حفاة » يقومون بزيارات منتظمة الى المناطق النائية . أيضاً فان الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا تنشر مجلة صحية نصف شهرية باللغتين التيغرينية والعربية .

بعد الانسحاب من المدن قامت الجبهة الشعبية بتعزيز خدمات المستشفيات في مدن الساحل الشمالي . وهناك ثلاث مستشفيات كبيرة تستطيع استيعاب أكثر من خمسة آلاف مريض وتقديم كل الخدمات المتوفرة للمرضى الزائرين . كذلك فهناك فرق متحركة تنطلق من الساحل وما زالت تقدم المعالجة والدواء للسكان في المناطق الريفية .

وكل أسبوع يغادر الساحل مساعدون طبيون من الجبهة مع كميات ضخمة من الأدوية ويتوجهون ، غالباً مشياً على الأقدام أو بواسطة الجمال ، الى مناطق أريتريا الجنوبية . كما أن المستشفى الكبير في منطقة فلفل *(Filfil)* تتلقى أيضاً خدماتها من الساحل .

المستشفيات في الساحل تستطيع تأمين كل المعالجة الضرورية للجرحى والمرضى في أريتريا . إلا أنها تواجه عدداً متزايداً من حالات الشلل وحالات التشوّه البالغ ، فقد افتتحت الجبهة مستشفى جديداً في بور سودان حيث توجد تسهيلات أفضل للرعاية الطويلة الأمد وحيث يمكن الحصول بسهولة أكبر على الأطعمة المغذية الضرورية للمرضى في فترة النقاهة .

وبالرغم من ظروف الحرب ، التي أدت الى حركة انتقال متزايدة بين سكان الريف ، تواصل خدمات التعليم التابعة للجبهة توفير المدارس لاعداد كبيرة من الأطفال كما أن تعليم البالغين ما يزال ضمن الأولويات .

والأريتريون يتكلمون ثلاث لغات رئيسية وأربع لغات ثانوية ، ولكنها كلها ـ كما ذكر سابقاً ـ كانت ممنوعة في المدارس حيث كانت الأمهرية ، لغة الفريق المهيمن على أثيوبيا ، واسطة التعليم . وتعتقد الجبهة الشعبية أن التعليم اساسي لكل نشاط وانجاز انساني ،هذا الاعتقاد تدعمه جماهير السكان ، وكل انسان راغب في تعلم القراءة والكتابة . وفي القرى تحضر الفلاحات صفوفاً دراسية تحت الأشجار حيث يعلمهنّ غالباً شبان ليس لديهم إلّا لوح أسود وطباشير . وحيث لا توجد مدارس يتعلم الأطفال بالأسلوب نفسه في الغابات . والصفوف لا تقتصر فقط على تعلم القراءة والكتابة وانما تتضمن أيضاً التاريخ وشؤون العالم . والناس ، الذين لم يكونوا يعرفون قبل سنوات قليلة قراءة أبجديتهم ، يتمتعون باطلاع واسع ويلقون أسئلة جدية وهامة على كل [قادم] غريب .

لا يمكن للمرء أن يكون مقاتلاً ما لم يتعلم القراءة والكتابة ، وأولئك الذين يتطوعون (ليس في الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا تجنيد) يتلقون العلم قبل التدريب العسكري . ويرتعد الأريتريون من استخدام الأميين لأغراض القتال ، كما انهم يرون في « اختطاف » الأثيوبيين للفلاحين الأميين وتجنيدهم في الجيش الأحمر جريمة فعلية . وأسرى الحرب الأثيوبيون يتعلمون القراءة والكتابة ، دائماً ، على أيدي المقاتلين الذين يرعون شؤونهم .

هناك نقص كبير في المدرسين المدربين في أريتريا . والعديدون من مدرسي الجبهة الشعبية ليسوا مؤهلين مهنياً بل تعلموا أساليب التعليم من القلائل الذين اختبروا أو استنبطوا أساليبهم من خلال الخبرة . وبرغم أنهم لا يملكون أية أدوات مساعدة للتعليم تقريباً فهم قادرون على تعليم الأطفال عدداً واسعاً من الموضوعات .

والنموذج المثير حقاً لنظام التعليم الجديد هو مدرسة الجبهة المقامة أصلاً في زيرو *(Zero)* . فقد أنشئت هذه المدرسةللأيتام وأطفال اللاجئين وأطفال المقاتلين في العام ١٩٧٦ . بدأت بـ ٢٥٠ طفلاً ، وأصبح لديها عندما انتقلت في منتصف العام ١٩٧٩ الى منطقة أكثر اماناً في أقصى شمال مقاطعة الساحل اكثر من ٢٥٠٠ طفل و ٥٠٠ معلم ومساعد معلم .

تألفت مدرسة زيرو من مجموعة صفوف مبنية تحت الأرض لأسباب أمنية . جدرانها رممت بالحجارة ، وتؤدي درجات قليلة الى الصفوف حيث الأرض من رمل تصطف عليها مقاعد ومناضد (كثير منها مصنوع في المشاغل في الشمال) . كان في كل صف حوالى ٥٠ تلميذاً قسموا الى أربع مجموعات : من هم دون الخامسة في رياض الأطفال ، ثم من هم بين السادسة والثامنة ، وبين التاسعة والعاشرة ، وأخيراً من هم بين الحادية عشرة والرابعة عشرة .

يعيش الأطفال في خيام أو منامات مشيدة داخل الجبال في الموقع نفسه . حياتهم بسيطة ، والقليلون منهم يملكون أكثر من غيار واحد من الملابس ،وبطانية وحصيرة . جدران أماكن النوم كانت مزينة برسوم أو قطن ملون أو بعض من الصور الملونة . والأطفال كلهم ، ما عدا من هم في صفوف الروضة ، يرعون شؤونهم من غسيل ورتق ملابس ، وكذلك القيام بالواجبات الجماعية مثل جلب الماء والحمل والتنظيف .

ممتلكات الأطفال كانت قليلة جداً . وجميعهم تقريباً صنعوا حقائب من الخيش ، أو القماش أو تطرّز احياناً كثيرة بالصوف الملون . وبعضهم أيضاً صنعوا مساطر ومعدات أخرى في مشاغل المدرسة . لم تكن هناك لعب أو كتب ، لكن الأطفال كانوا يروّحون عن أنفسهم بممارسة ألعاب عند مجرى النهر قرب المدرسة ويغنون ويرقصون على أنغام آلات غيتار من صنع أريتري .

في المنطقة المحيطة بالمدرسة كانت توجد عيادة ومستشفى . ومثل المسنين ، يعاني الأطفال من جميع الأمراض السائدة في أريتريا ، ولكن الملاريا والتيفوئيد هما الأكثر

شيوعاً . كانت هناك خيمة للعزل وغرفة للاستشفاء باثني عشر سريراً . جميع الأطفال يخضعون لفحص طبي لدى وصولهم الى المدرسة ثم يكشف عليهم يومياً من قبل الفريق الطبي . وفي خلال النهار يتلقون أيضاً تعليمات تربوية صحية .

قرب المدرسة كانت توجد حديقة اختبارية هي عبارة عن مشروع زراعي مصغر شبيه بالمشاريع التي تنفذ على امتداد البلاد . لقد انشئت الحديقة على الرمال قرب مجرى النهر وبات الأطفال يزرعون فيها البندورة والبطاطا والملفوف والجزر . كانت المياه تنقل الى الحديقة باليد ثلاث مرات في الأسبوع وكانت المناطق المزروعة تتسع بصورة متواصلة .

في الصفوف كان يتم توزيع الأطفال الى مجموعات وفق مرحلة تطورهم وليس وفق أعمارهم . وقد تم ذلك لأن بعضهم لم يكن قد تلقى أي تعليم اطلاقاً قبل مجيئه الى المدرسة وبعضهم الآخر انقطع تعليمه بسبب الحرب .

جميع الأطفال في زيرو تعلموا القراءة والكتابة بلغتهم الأصلية ، وفي سنوات دراستهم الأخيرة تعلموا العربية والانكليزية معاً . كما تعلموا أيضاً التاريخ والسياسة ، الجغرافيا ، الحساب ، العلوم وعلم الأحياء بينما حضر الطلاب الأكبر سناً صفوفاً فنية .

كان هناك ٤٠ مدرساً في المدرسة ، بعضهم مؤهل بينما تدرب الآخرون من خلال العمل نفسه . لقد عملوا في ظل أصعب الظروف ومارسوا الكثير من عملهم على اللوح [الأسود] فقط . كانت هناك حفنة قليلة من الكتب المدرسية عندما افتتحت المدرسة ، وبعدها بدأت مجموعات المدرسين تحضر موادها بنفسها وتنسخها بسبب عدم وجود طباعة . هذه المواد اقتبست من كتب قليلة ، غالباً باللغة الانكليزية ، حول الموضوع المعني . نصوص الجغرافيا اخذت من مزيج من الكتب الانكليزية والأمهرية ، ولكن مع تركيز أولاً على تعلم جغرافية بلدهم وافريقيا ، اضافة الى نصوص حول المناخ والجيولوجيا . كتب العلوم اقتبست أيضاً بحيث تصبح ذات معنى بالنسبة لأطفال لا تتعدى خبرتهم السابقة حدود الريف وليس لديهم أي اطلاع على معدات التجارب والبحث . وتعالج هذه الكتب المسائل العلمية الابتدائية ، علم أحياء النباتات ، وللحيوانات وللانسان .

روضة الأطفال في زيرو مؤثرة جداً . فهي تعتني بالأطفال بين الثالثة والنصف والخامسة من العمر . هؤلاء الأطفال جاؤوا من بيئات مختلفة ولكن معظمهم فقدوا

بيوتهم وواحداً من أهلهم على الأقل . الأطفال الصغار جداً يتلقون العون في ارتداء ملابسهم وفي غسل أنفسهم ويمضي فريق العمل جزءاً كبيراً من وقته معهم . عندما حضروا في البداية كانوا غالباً منغلقين على أنفسهم أو مضطربين لما اختبروه، احتاجوا لذلك ونالوا الكثير من الاهتمام. إلا أنهم انخرطوا تدريجياً في الحياة الجماعية للمدرسة. ملابسهم كانت تأتي من عدد من المصادر المختلفة وبعضها كان غير لائق في أريتريا . فساتين ، معاطف صغيرة وكنزات صوفية كانت تأتي من مؤسسات انسانية في اوروبا ، وغالباً ما تكون واسعة جداً بالنسبة لأطفال صغار . إلا أنه كانت هناك ملابس أخرى تصنع من قطع نسيج صودرت في اسمره وتولت صناعتها مشاغل الجبهة الشعبية .

كانت منامة روضة الأطفال مشرقة وواسعة . ومثل العديد من الملاجىء ، شيّدت المنامة داخل التلال وشكلت شرائح صخرية رصيفاً في داخلها . الجدران مطلية ومزينة ، وفي الغرفة كراسي وطاولات صغيرة مغطاة بقماش ملوّن . والأطفال يتعلمون الرقص والغناء في أوقات فراغهم كما يلعبون عند مجرى النهر عندما يصبح الهواء بارداً في المساء .

والمدرسة الموسّعة في الشمال تحتوي على كل المظاهر الأساسية لمدرسة زيرو برغم انها تفتقر الى غرف الصفوف والمنامات المشيّدة أساساً لهذا الغرض . الأطفال ينامون تحت الأشجار أو في الخيام القليلة المتوفرة . الصفوف أيضاً تقام في الهواء الطلق . الملابس أندر مما كانت في أي وقت سابق وبعض الأطفال يلبسون بناطيل وجاكيتات مصنوعة من خيش اكياس الدقيق . القمصان والفساتين مرقعة مرات كثيرة والقليل جداً من الأطفال ينتعلون الأحذية . وبسبب العدد المتزايد من التلاميذ ، هناك نقص أكبر في المعدات المدرسية مما كان عليه في زيرو . والطعام أيضاً مشكلة أخرى ، إذ بينما يمكن احضار الدقيق والسرغوم من السودان فالمنطقة جرداء ولا تسمح بتوفير أي فواكه أو خضار طازجة للأطفال .

إلا أنه برغم كل الصعوبات يحقق الأطفال نجاحات . وهناك زيادة مهمة في عدد الأطفال من العائلات الرحّلية الذين يتطورون جسدياً (باعتبارهم أطول وأقوى من أولئك الذين يحيون حياة غير رحّلية) وتعليمياً . وهؤلاء يشكلون الآن حوالى ثلث التلاميذ .

في الغرب ، كان هناك نقاش متواصل حول مشاكل الأقليات . وهناك من يعتقد أن هذه المشاكل تحل فقط عندما تلغى الحواجز الطبقية . وهؤلاء ينتظرون الثورة !

وهناك آخرون يرون أن الوضع العنصري يمثل تهديداً للمجتمع والاستقرار وان معالجته يجب أن تتم كمشكلة بحد ذاتها . وهؤلاء يفترضون أن التعصب العنصري الذي يؤدي الى التمييز هو سبب أساسي وليس ثانوياً في عدم الاستقرار . لكن الأريتريين لم يكونوا لينعموا بترف هذا النقاش ، فقد كانوا معرضين كبلد الى اضطهاد ضخم مترجم الى عدوان عسكري على نطاق لم يسبق له مثيل .

ولقد كانت الحرب القومية ضد أثيوبيا ، بالطبع ، عامل توحيد في مجتمع تعيش فيه تسع قوميات . ولكن التجربة في أريتريا أظهرت ، كما هو الحال في أي مكان آخر ، أن الوحدة ضد عدو مشترك ليست كافية . والأحداث في الجزء الغربي من البلاد خلال الهجوم الأثيوبي في العام ١٩٧٨ أظهرت ان الغاية القومية لم تكن كافية للمحافظة على الوحدة خلال التعرض للهجوم . وكان انهيار جبهة التحرير الاريترية وعدم تدخل قوات عثمان سبي حالتين تثبتان ذلك .

أما الجبهة الشعبية لتحرير أريتريا ، من ناحية أخرى ، واتجاهها القومي الواضح ، فقد أصرّت منذ نشوئها على أن التحول الاجتماعي للمجتمع مهم بالنسبة لتحرير الشعب الأريتري بقدر أهمية الاستقلال الفعلي. وأقرت الجبهة منذ البداية بأن التقاليد الثقافية هي جزء أساسي من أي مجتمع ولم تسع بالتالي لفرض الانسجام أو التطابق. وبينما اعترفت الجبهة بالتنوع ، استهدفت الغاء الحواجز الطبقية والاقليمية والجنسية .

في السابق ، كما ذكرت قبلاً ، كان التعليم مقتصراً على القلة ومتوفراً عموماً للطبقات الوسطى فقط . وأدى ذلك الى تثبيت البنيات الطبقية ، خصوصاً بفصل المهنيين « المحترفين » عن نصف الماهرين وغير الماهرين اطلاقاً. وفي مشاغل الجبهة الشعبية ، ومدارسها ، ومستشفياتها ومستودعات يقوم المهرة بتدريب غيرهم بغض النظرعن جنسهم أو أصلهم . والمهمات التي كانت سابقاً وقفاً على أولئك الذين تلقوا ما نسميه تدريباً معترفاً به تنفذ الآن من قبل كل من تدرب خلال العمل . أطباء « الفرق » (وهم مساعدون طبيون تدربوا في الميدان) ، وكذلك فنيو المشاغل يشكلون مثلاً جيداً لتلك المرونة ، إلا أن الأبرز هو أن النساء يحصلن في جميع المناطق على المهارات التي تناط تقليدياً بالرجال .

والعامل البارز الآخر في الغاء الحواجز الطبقية هو الاهتمام الذي أولته الجبهة الشعبية للزراعة . كانت الزراعة في السابق مجال الفلاحين والأيدي المستأجرة في المزارع حيث الملكية في أيدي قلة من الملاكين الأغنياء . أما في ظل الجبهة الشعبية فقد باتت

لكل انسان ، بطريقة أو بأخرى ، فترة عمل في الأرض سواء في زراعة الخضار لطائفة صغيرة من الناس في بقعة خصبة من الصحراء ، أو في الحراثة ، أو في الحصاد ، أو في العناية بالحيوانات . وحتى الرحّل بدأوا السير في تيار الزراعة في مناطق خاصة حيث يتلقون المساعدة على اقامة المصاطب في الأرض وزرع المحاصيل بينما كانوا في السابق يعتمدون في رزقهم بشكل كامل على المال الذي يجمعونه من تربية الحيوانات . وكان لذلك تأثير في المساواة في المجتمع أعمق بكثير من اطلاق الشعارات السياسية وعمليات النصح التي مارسها « الدرغ » في أثيوبيا . لقد جعل من « الاصلاح الزراعي » حقيقة واقعة في المناطق حيث تمكن الفلاحون من تعزيز الثورة .

ولكن ما هي اكثر وجوه الثورة الاجتماعية في أريتريا وضوحاً ؟ انها بزوغ النساء كقوة مهمة في المجتمع ، وحماس الاتحادات الجماهيرية ، والحملة من أجل الصحة والتعليم ، والنشاط العام للشعب انطلاقاً من الاحساس بالهدف . تلك كلها مثيرة وملفتة جداً . ولكن الجمال الحقيقي للثورة يظهر في أوضح صورة في الرفاقية الحارة بين السكان الذين يرعى أحدهم الآخر في المحنة وكذلك في حياتهم اليومية . وهذا بالذات ، مقروناً بقدراتهم البطولية على الثبات والابداع ، يجمعهم معاً كأمة وسيضمن لهم الحرية في النهاية .

وراء الحرب

في

اريتريا

منذ ٢٠ عاماً وشعب اريتريا يقاتل من أجل حريته . وقد تمكنت حركة الاستقلال هذه من تنفيذ إصلاح زراعي ، وادارة مدنٍ بكاملها لفترات طويلة .

يسد هذا الكتاب ثغرة ملحوظة في المعلومات عن الثورة الاريترية ، فهو يضم حصيلة ندوة دولية كانت عقدت في لندن ، قدم فيها مؤ رخون وباحثون ومراقبون من جنسيات مختلفة ١٠ دراسات تدور حول :

* تاريخ اريتريا تحت الاستعمار الأوروبي والمعاصر ، وتاريخ علاقاتها باثيوبيا .
* طبيعة النضال الإريتري وتجربته السياسية والعسكرية .
* المضمون الاقتصادي والاجتماعي للثورة الاريترية وتطوره .

مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م.

ص.ب: ٥٠٥٧ - ١٣ بيروت ، لبنان

١٦ ل . ل